أميـرة حويجة

ظل الغروب



مقدمة قد تكون ضرورية

كان المحك الأقسى الذي كشف كل العيوب: كان لكل واحدة وقفة مع نفسها ومع من حولها, مع التجربة قبل السجن, وخلاله, وكان يمكن لوقفة جريئة بجرأة الأفكار التي زارتنا أن تعطي دروسا لنا ولغيرنا, وقوة لنا في مجتمع يغط في النوم, احتاج ومازال لكل أبنائه الذين يحبونه ليبقوا على قلوبهم الدافئة وضمائرهم الصاحية لتحويل عشق الوطن في عملية إنقاذ بعد كل عمليات البيع والشراء التي طالت الإنسان..

بدأت الكتابة على الورق في زمن الغروب. واكتشفت مع الدخول في كهف الذاكرة ظلاما مدفونا في ضجيج لفني, و في بريق أحلام لم تتحقق.. رافقني الحزن معجونا بمتعة الوصول إلى أعماق تعرفت على جزء منها, وأحببت جزءا آخرا اعتقدت دفنه. أعماق احتفظت بالضروري من التجربة, والجميل من الطفولة, والمؤلم من الظلم.

عندما تركت المدرسة وقريتي, إلى بيت أحد المناضلين الذين قرأت عنهم, بعد أن أجبر على الخروج من ساحة المعركة.. تسلل القلق إلى روحي التي كانت تهجس برغبة المشاركة في الحياة العامة. قدر لي، ومعارفي محدودة، أن أشعر بالغربة التي تكلم عنها كثير من الفلاسفة والكتاب.. ظلم هنا أشعر به.. وهناك أسمع عنه.. هنا تعاطفي مع أختي التي فقدت الأمان والسند, وعانت من الحرمان بسبب جرأة زوجها ودخوله في معارضة الحكم.. وهناك حكايات عن بيوت تعاني.. حكايات قصّرت المسافات بين ما كنته وما صرته.. كل شيء أعد بقوة للدخول

في حكاية تشبه الأشعار التي قرأت والأغنيات التي سمعت: سيد درويش.. الشيخ إمام... مارسيل خليفة... أغنيات الأرض المحتلة وأشعارها. إضافة إلى رسائل تصلني حين أتعرف بالصدفة على أحد الشعراء أو المثقفين, ويبدي إعجابه بأهل بلدتي.. حيث أنتمي إلى بلدة يقال أن أطفالها يولدون وهم يلهجون بالشعر أو يتكلمون بالسياسة. رسائل تصلني لتزيد إحساسي بالتمسك بما أنا بدأته. كان للمركز الثقافي في بلدتي حضور مميز في أواخر السبعينات.. وكان لأهل البلدة.. بلدتي, أثر مميز لدى كل مثقف يدعى لندوة أو محاضرة هناك.. وكان لي نصيب كبير بالإحساس بالفخر وواجب الالتزام بالقضايا الكبيرة.. كنت فخورة, متحمسة, بقدر الحب الذي أستطيع أن أمنحه لغيري. ضعيفة وخائفة فتحاشيت نقاش قراري في الانتماء مع كل من يقدم لي النصيحة.. فاستسهلت مشوارا صعبا ينز بالألم.

كان ذلك عام 1976 وعمري ثماني عشرة سنة. واليوم بعد ثلاثين عاما أدخل في الشائك حيث سأتكلم عن أناس حاولوا توسيع صفاتهم بحمل أوجاع غيرهم فسلكوا طريقا محفوفا بالألغام.. رفعوا أصواتهم من داخل أحزاب آثرت فتح صفحات ملونة في تاريخ كاد أن يكون بلون واحد. كنت بينهم. في أحد تنظيمات المعارضة التي تحمل رايتها الحمراء, لأصبح فيها شاهدا على عصر من الآمال والخيبات.. وأحمل شهادتي على زمان لم يخجل من هزيمة رجال ونساء أرادوا أن يكونوا أبطالا.. في البدء كنت جاهزة لترديد صوت أخذ طريقه إلى روحي خجولا, ثم جريئا بعد حين. أسمع وأشتعل غليانا بالرفض والمعارضة, لا يشغل بالي إلا أن أكون بينهم, مع شعور بانبهار يمنعني من رؤية نفسي فيه .. تلك المعادلة الناقصة تركت أثرها لسنوات, قبلت ترديد الصوت, قبل أن أبشر نفسي بصوتي في المكان الخطأ وبعد فوات الزمان.. انشغلت بما يشغلهم. صرخت معهم, دون أن أميز إن كان ذلك الصوت يشبه صوتي,

يشبهني!. أم فيه الكثير من التقليد والتمثل بالغير..
لم أكلف نفسي عبء التفكير بأسباب دخول مسيرة التمرد تلك.. خالفت حياتي الهادئة ونفسي المسالمة, وهويتي البسيطة. لم أكن في مشكلة مع من حولي لأهرب نحو حل هو أشبه باللغز.. لم يكن لدي.. ولم.. والأهم أنني لم أكن مستعدة بما فيه الكفاية لاختيار هويتي الجديدة الغامضة.
أحاول اليوم وضع يدي على أسباب ودواعي ذلك الذهاب بعيدا عني في أغلب الأحيان منذ عام 1979.

الفصل الأول

في تلك الساعة:
العاشرة مساء من يوم 26-11-2006

لم تكن ساعة وداع لماض واستقبالا لجديد قادم– كانت لحظة عادية في سياق عادي في مكان مألوف. لكن حزنا أكبر بكثير كان هناك في تلك الزاوية من الصدر, وكأنها لحظة وداع لحياة لا تخلو من المغامرة, أشعر بذلك التقلص..أتلمس خيال أيام قادمة تحمل أشياء مبهمة.. فيها رائحة الموت الذي كنت أرفضه.. أسئلة كثيرة تتداخل مع أفكار تروح وتجيء دون أن تضيف معان مبهجة تنتشلني من الهاوية التي بدأت بالانحدار فيها. هاوية الاستسلام للعادي.

أتساءل: لم كل هذه الزحمة من الأفكار المظللة بسواد؟! سواد يشعرني برعب لم يغادرني منذ ذلك اليوم.. يوم سأتحدث عنه، تذكرني به أيامي الآن بدأت تهوي بي إلى سيرك لا أفقه به شيئا. لا يدهشني.. بل يدخل إلى نفسي مخاوف تتحول غالبا إلى أحزان.. أهمس متوجسة: إن كنت أدخل إلى هذا السيرك بإرادتي, فحري بي أن أخرج قبل أن أضل أكثر في الطرق القفرة وحيدة معزولة, أحاول النهوض ممسكة بحبل ولادة جديدة واتخاذ قرار مناسب..

كانت لحظة عادية في يوم عادي على ما أذكر. لا تحمل كمية أكبر من الصدق ولا مساحة أكبر للكذب.. لا أعرف إن كانت آلام الوداع للمغامرات والمراهنات, أم هي لحظة انتقال إلى أمان أسعى إليه؟ أسعى

إليه منذ سنة.. منذ عشر سنوات, منذ اللحظة التي ودعت بها أمي بطريقة مختلفة عام 1984.

وأبكي, هل أبكي من شعوري باليأس من الوصول إلى ذلك الأمان الذي أسعى إليه؟ لقد اكتفيت مما أصابني, في وقت يعذبني كل ما حولي: ماضي, روحي, حاضري..!!

وأنا على أبواب منتصف العمر. لكل عذاب مرارته, أكثر ما أخشاه هو فتح باب يخبئ عذاب جديد ينتظرني. وسؤال يلح: إلى أين؟ إلى أين؟! سؤال العمر الذي مضى والذي سألته لنفسي كثيرا وغالبا بعد فوات الأوان..

أجل يفوت الأوان, عندما يكون لديك فرصا ولا تختار.. بل لا تعرف من اختار لك فرصة التعب الطويل والممتد, عبرته و تعبره على استقامة بدون تعرجات تفرض عليك التفكير في التغيير في الوقت المناسب.. عبرت التعب بخط مستقيم شغلتني به اللحظة دون القادم, حلمت بمستقبل لم أخطط له ولم أخط بالنتيجة تجاهه. كنت أقرب إلى التائهة.. أجل أشعر بالتيه يخنقني.. ما وضعني في هذه اللحظة مع مواجهة هذا التيه واختناقاته سؤال جرحي الغائر في الأعماق: ماذا يعني رأس السنة؟ والجميع من حولنا يحضر لتلك السهرة.. التحضير أصبح يشغل الناس قبل أكثر من شهر من المناسبة.. يبدأ مع تحضير باريس له. يتزامن ذلك مع مناسبة اعتدنا مجموعة من النساء على الاحتفال بها سنويا لنطوي صفحة من عمرنا بعد أن خطفنا معا إلى سراديب سأتكلم عنها.

في هذه السنة, إحساس بالمرارة رافق التحضير لمناسبتنا الخاصة, إذ أنني مللت من الرمال التي أدفن بها أحزاني, لم يكن لدي وليس بي رغبة في الركوب على بساط الريح السحري.. كنت أتبعثر أشلاء أعجز عن لملمتها, أشعر أن عمري ألف عام.. يغزوني شر الإحساس بالعجز, وتمزقني سطوة الخوف من التلاشي في لاشيء.. أرى الخوف يسد

الطريق في وجهي ويمنعني من مشاركة الأخريات الاحتفال. ولأول مرة منذ خمسة عشر سنة.

لم يكن وراء ذلك تحديات الواقع وإفلاسه.. كان هناك أشياء أكثر خصوصية, سببت انعدام الرغبة بالمشاركة.. وأفقدتني القدرة على تلبية دعوة الأخريات..

شعور واحد كان يلح علي وهو التأكد من أنني لم أصب روحها بأذى حين تركتها في تلك الظهيرة قبل حوالي عشرين سنة.. ومازلت أنهك نفسي للخروج من موقف صعب حرمنا من التعامل بعفوية تقتضيها طبيعة العلاقة بيننا.

يؤرقني كل هذا الخوف.. وهذا الصمت الذي وجدت أنه سبيلي.. صمت يجعل الألم يرتفع على كل المشاعر الأخرى, صمت يشل قدرتي على التواصل مع أخريات لن يتقبلنه مني في مثل هذا اليوم.. أصبحت في دقائق مسجونة في قيوده, قيود يصعب كسرها.. يمسك بي لينبهني إلى عجزي أمام ما وصلت إليه.. في محيط يملؤه الضجيج ليزيد من عجزي.. أعرف أنني أصنع مشكلة مع نفسي عندما أضيق ذرعا بنقاش ملفوف بالسوداوية مع من أحب.. أدرك أنني أدخل في مزاج سلبي برد فعل يترجم خوفا عليها.. عشته في ذلك اليوم.. وأعرف أن ذلك ليس في مصلحتي وهي لا تطلبه مني, بل بالعكس يزعجها.. لكنني على ما يبدو اعتدت أن أخلق لنفسي غضبا" أصبح يرهقني بدون جدوى, ولا أقول أنه لم يكن يرهقني , بل فعل ولكن بعتبة أقل, كنت أتحمله وأتجاوزه سرا وعلنا.. الآن يأتيني على شكل انفجار لا أستطيع تحمله.. غضب يتغذى على الخواء الذي أشعر به بدون سلاح يساعدني في مواجهته.. فتحت الباب للحوار مع الغصة, لتجعلني والمرارة واحدا" سيعبر عن نفسه في هذه الأوراق.

وصلت إلى العمر الذي أبحث فيه عن راحتي, عن سلامي الخاص, بعد

تلاوين الألم التي اقتحمت حياتي. لا أريد لأحد أن يخدش هذا السلام الذي أنشده.. وصلت إلى العمر الذي أحتاج فيه لحماية نفسي من هموم تنبع من هذا البيت, تكبل حياتي وتقفلها على خوف دائم من الغد. تترجمها عاطفة النزق التي يكرسها بريد اليأس المرسل لي ومني.

ماذا يمكن أن أوقظ من كل ما تراكم ونام تحت جليد بدأ ينهار؟ هل أوقظ ما يسلي وحكايات الروح والعقل آهات تضغط بكل قوتها؟ أم سأزيح ستائر عن قوى خارت؟! أم أراقص أمكنة تشبه القبر؟! سأترك ذلك لتجليات الروح.

في لحظة تعب شديد استرجعت ما مضى من العمر. عمر تنقل بي من تيه إلى تيه, من وهم إلى وهم, من كابوس إلى حلم, من حلم إلى حلم, من حلم إلى كابوس, تلفني الخشية من أن يكون عمري القادم أسوأ. أن يكون حصادا أمينا لتلك الأوهام التي تعاملت معها وأكون من ضحاياها.

في هذه اللحظة لا أملك من التفاؤل ما يكفي لأقول مع شاعر تركيا "أجمل الأيام تلك التي لم نعشها بعد" أكره أن أتذكر خيبتي في مراحل عمري السابقة, رغم ما حملته من مغامرات ورغبات في كل منها حكاية صادقة وجميلة لدرجة جعلت الخط المتعرج للتيه يستقيم. في كل زاوية منها سر أراد أن يعلمني القسوة واللعب على المنطق وبالمنطق.. ودرس لما سيأتي إن أردت..

ولأنني بدأت الكتابة في يوم ذكرى خروجنا نحن النساء من ذلك القفص المعزول عن الحياة' المعزولة في الأساس عن السياق الطبيعي, الذكرى الخامسة عشر, أجدني مضطرة لذلك السؤال الخطير: ماذا فعلت في العام الماضي, وماذا سأفعل في العام القادم؟ بل ماذا فعلت في الخمسة عشر عاما الماضية؟ وماذا سأفعل في الأعوام الخمسة القادمة؟ أقول خمسة لأن سنة واحدة غير كافية للحكم.. وأقول خمس عشرة لأنها مرت على خروجنا. حملت أدنى مما كنت أتوقع من أفعال تخصني.

عند محاولتي الإجابة, تلاحقت صور وصور.. أحداث عمرها من عمر ذاكرتي.. كأنها حدثت في الأمس القريب.. وبدل الإجابة على هذا السؤال التقليدي.. وجدتني أحاكم من اعتقدت أنها نفسي لزمن طويل.

ماذا سأتذكر في هذا العام 2006؟ من أكون؟ هل أنا قريبة مني؟!أم اتسعت المسافة بين وجودي ورغباتي؟ كأنني ابتعدت عن عالمي أكثر من اللازم.. ابتعدت عن روحي كثيرا.. ليس لأنني أكرهها, بل لأنني لم أتعلم كيف أحبها كما تستحق, لأجد السبيل إلى حياتي بدون هذه المنغصات, بدون الكثير من هذه المنغصات التي تجرح جسدي وروحي وعقلي.. نفسي عادلة تحب الحرية, تحب الحياة, وأن تعيشها كما تستحق.. وأنا أتمزق بينها وبين ظروفي التي كانت في جزء كبير منها من صنعي لكنها كانت ضدي.

بيدي جعلت الظروف صعبة أكثر.. شحيحة بمواجهة عطاء بذلته ومازلت أرغب ببذل المزيد. ظروف ساهمت بوجودها منذ تلك اللحظة في ذلك اليوم.. بل قبله.

عندما عاد لينغلق باب وشبابيك وجودنا معا, إلى العاصمة في 27\8 كانت حملة اعتقالات ال87 ضد حزبنا في ذروتها هناك, لم يكن لديه مكان آمن للعيش.. كانت أبواب الأصدقاء تغلق في وجهه خوفا. كان استقبال معارض ملاحق كافيا لدخول السجن. أخبرني برسالة عما يجري معه, وكيف أنه ومكواته الصغيرة أكثر من نجا من الاعتقال, كانت مكواته التي تساهم في أناقته الدائمة رفيقة له, وكان معجبا بها لدرجة أنه لم يكن يستغني عنها, "في الوقت الذي يمكنه أن يستغني عن ضحكته المجلجلة ". كانت شاهدا على قدرته في الابتعاد عن الخطر في الوقت المناسب.. ورغم كل الضيق الذي كان يمر به.. عّبر لي عن تفاؤله بالقادم, كيف أن آلام الناس بدأت تطور مشاعرهم باتجاه البحث عن قوى التغيير, التي كنا منها. على الأرجح أراد أن يرفع معنوياتي, لأنني لم

أعهده متفائلا إلى هذا الحد.. كما أنه يناقض نفسه بين كثرة الناس المتعاطفة, وكثرة الأبواب المغلقة.. يحاول إنقاذي من الحيرة التي أتخبط بها

في الحقيقة كانت كثرة من الأبواب التي تنتظر مغلقة وهي مغلفة بألوان الخوف القاتل. ستتحول إلى أبواب يقتلك صمتها ومعاندتها للأحلام...

لم أستوعب رجوعه إلى العاصمة بعد شهور من ذهابي إليه في الشمال, هي العسكرة التي نناضل ضدها . إذ التم شملنا بعد سنتين ونصف من غيابه عن البيت, بعد أن جمعتنا ظروف التخفي. أشهر قليلة فرقتنا الاستجابة لحالة الطوارئ!!. ترى ألم يكن هناك حلا آخرا؟

غضبي كان كبيرا, لأن المواجهة في العاصمة كانت على أشدها, كما أنني لم أكن أجد مبررا لرجوعه من دوني. وأنا خلف بوابات العزلة عن الأهل والعمل والمدينة التي أنتمي إليها في وجداني. صمت لأنني لا أعرف أن من حقي الاحتجاج, ولم أكن أدرك أنني مت حيث استسلمت لمنطق رحيله الذي كان يرخي بثقله علي روحا وجسدا.

كيف يأتي قرار كهذا للتنفيذ؟ وهل ساهم هذا القرار في عدم رجوعه؟ لا أحد يعرف.. كانت كل الأماكن محاصرة.. سيارات فيها رفاق أصابهم الضعف تحت التعذيب, تحركوا مع حراس الصمت والموت دلوا على الرفاق في المواعيد ولم ينفعه التنكر بباروكة.. كان يعتقد مع غيره في قيادة الحزب أن باروكة ستحميه. كما تفعل قبعة الإخفاء في حكايا الأطفال.. قالوا لي أن الباروكة, وهو الذي ردد دائما مقولة التوزع الخاطئ لشعره, غيرت ملامحه كثيرا.. نسوا أن مشيته لن تغيرها باروكة, ولن يستطيع بها مغافلة أعداءه ولا ضعفاء حزبه.

أتى دوره لأن الزحام الذي يفترض أن يحميه وغيره, كان أبعد من التصور.. هو وغيره كانوا صيدا سهلا.. تخلوا, مرغمين, عن مهمتهم المستحيلة قبل الموعد.

شعرت أنه ذاهب إلى الأقبية المظلمة التي لا تفرق بين الموت والحياة, لكن لم يخطر ببالي أنه راحل عن هذا العالم المجنون.. طالما ردد أنه يفضل الاستشهاد على الاعتراف في وقت كان ما يزال للبطولة رونقها. رحل في أجمل أيام الخريف حاملا رايته, صمت حتى ارتجفوا غضبا فسحبوا منه أنفاسه.. انتزعوا روحه منه بدون أن يرف لهم جفن, أولئك الذين فرغت قلوبهم من الإحساس بنبض الحياة..

عندما أخبرني عن تلك الأبواب التي لم تعد تفتح له, ساعدته في الوصول إلى أحد الأصدقاء ليستخدم منزله بشكل مؤقت ريثما يؤمن سكنا حزبيا.. لم يعد للشكوى.. ولم أعلم أنه سكن عند ذلك الصديق إلا بعد حوالي الشهر من اعتقاله, في نفس اليوم وفي 20\9 الذي يصادف يوم مولدي. يا لهذه المصادفة السيئة.. أحسست أنه ذهب ليعتقل.. لكن لماذا يعتقل في هذا اليوم؟!..

كنت أنتظر عضو الارتباط الذي يحمل البريد من العاصمة.. أنتظر بلهفة مضاعفة, أنتظر رسالة فيها طعم الأمنيات بحياة أفضل بمناسبة عيد ميلادي.. كنت أنتظر كلمات حب وتشجيع منه!!. وعلى بساطة مطالبي بعد أن حرمت نفسي من العديد من ألوان الفرح, فإنها لم تتحقق, وكانت هديتي مزيدا من الأحزان... أحزان أطفأت شموع الفرح الباقي, أحزان لن أستطيع محوها, سكنت تلك النظرة التي رافقتني وما زالت.. للمرة الثانية أكره نفسي في مثل هذا اليوم. قبل سنة, اعترف لي بعلاقته العابرة.. الآن في عام 1987 ذهب كي لا يعود أبدا. ذهب إلى المكان الذي يئد الكلام ويئد المشاعر.. مكان لا يمكنني أن أوقظه فيه مهما اشتدت حاجتي إليه. استلمت الرسالة الحزبية من عضو الارتباط, بدل رسالة الحب التي كنت أنتظر..

كانت رسالة تحمل ذلك الخبر المؤسف, بطريقة تحاكي القسوة في داخلنا,

رسالة حزبية بامتياز, لا يخصني فيها شيء.. صحيح أن عيد ميلادي لا يعنيهم بشيء.. ولكن علاقتي بهذا الرجل تستحق بعض الكلمات.. لا مكان للعواطف ولا للتعاطف.. خلا ذلك اليوم من المشاعر التي كنت بحاجة لها, خلت الرسالة من كل ذلك, خلت من كل ما كنت بحاجة إليه, أمام مطلوب الأخذ بالاحتياطات الأمنية الضرورية فقط..

أجل تشوهنا الإيديولوجيا, لدرجة أن هناك مشاعر خاصة يمكن أن يصيبها الأذى, لم تكتف الرسالة بالخبر السريع, بل أرفقته بطلب عاجل: أن أساعدهم في الوصول إلى الصديق الذي كنت أرشدته إليه.. حيث استخدم بيته ومعه مكواته الصغيرة.. كان مطلوبا من هذا الصديق أن ينزل على موعد احتياطي ليسلم الأغراض التي بقيت عنده ولا تخصه..

لم يخطر لقيادة الحزب أن هذا الصديق كان في السجن أيضا.. ينال نصيبه من التعذيب, وتجربة العيش في منفردة لسنوات. كما لم يخطر ببالي..

ربما استطاع تأمين سكن حزبي فأراد أخذ أغراضه مع المكواة, وشكر الصديق.. فوعده في الشارع الذي يخلو من الزحام. في وقت عرفه أحدهم, رغم تنكره بالباروكة, فدل عليه, لم ينتظر دقائق كافية لانسحاب ذلك الصديق, ويحميه من ضريبة مجانية.. فهو لم يكن يرى في الحزب حلا, رغم عدم اتفاقه مع العالم الذي نعيش فيه.

صديق بكل هذا الحذر, وقع في فخ الاعتقال والحجز في الزنزانة بدون اعتراف من أحد. ضريبة لاستقباله شخص يثق به ولأيام قليلة, لم يكن يعتقد أنه سيكون معه عند اعتقاله, خرج بعد ست سنوات دون رغبة منه في التعرف على أحد. صمت في الزنزانة حزنا على نفسه, وعلى رحيل شخص أحبه, وربما على شكوك طالته ظلما.. وربما لأسباب أخرى, احتمي بالصمت من خوف يجهله ومازال غير راغب في الكلام. استغنى لسنوات عن فكرة أن الصوت نستخدمه أحيانا لنكتشف أننا مازلنا على

قيد الحياة.
لماذا رحلت بهذه السرعة تركت لي ما تركت؟ تركت لي ضحية أتألم من أجلها. لماذا رحلت وتركتني وحيدة مع كل هذا الألم.. وهذه الغصة التي تخيط أيامي؟
كنت آمل بأن آلامي ستخف, لكن آمالي هي التي بدأت تخف. رحلت تاركا فراغا لم تتوقعه, فسح واسعا على سؤال: ما الضرر لو أنك تمسكت بالحياة أكثر من أجلها.. من أجلي.. من أجل تفادي الحرقة في قلب أمك التي انتظرتك سندا لها. رحلت دون التماس العذر ممن حملوا لك حبا يفوق قدرتهم على تحمل غيابك..
هل يستحق العالم الذي انتمينا إليه كل هذه التضحية؟!
أعرف أن الإنسان يمكن أن يفقد أناه وأن يتحرر منها في لحظة, لكن لحظة واحدة غير كافية للرحيل..لقد فتح رحيلك أبوابا لأسى" إضافي سيلحق بنا ولجرح يصعب شفاؤه.. بدل تلك الأبواب التي اعتقدنا أننا نحمل مفاتيحها وحلمنا بأن ندخلها في الوقت المناسب.
أتيت خفيفا إلى هذه الحياة..رحلت سريعا رغم حبك لها.. سريعا فهربت من التفرج على فقدان الأمل بخلاص حلمنا به جميعا.. لم تعتقد أن النسيان سيغلف رحيلك بعد فترة قصيرة.. نسيان أصيب به الرفاق منذ سنين.. نسيان يزداد مع التحول باتجاه العلنية وصناعة النجوم.. خرج الجميع ونسوا لحظة الخروج من المعتقل أن هناك في ذلك الحي حينا, بيت. وفي ذلك البيت بيتنا, فتاة بعمر الورد فقدت والدها, لا لسبب إلا أنه آمن بقضية انتمى لها حتى الرمق الأخير.. احتاجت ظله لتحتمي من أوجاع عرفتها قبل زيارة الوعي لها...
طلبت صراحة شحن هذا البيت بالمعنويات, ممن كانوا أقرب إليه في مسيرة العمل القصيرة التي جمعتنا.. طلبت منهم تعويضها عن الحرمان الذي نذرت له, كنت أرى أنهم بتواجدهم في حياتها ستتغلب على

معاناتها, وستزداد قوة, لم يتحقق شيء من التواصل والتضامن المرجو, أعذرهم, لكنني أحيانا ولسبب مباشر أو دفين ينفتح ذلك الجرح وينز, ليصل العتب حد اللوم.. وأقول: أخشى أن يتذكروها فقط حين يحقق لهم ذلك مصلحة ما!. كلام أشعر بقسوته بقدر ما أشعر أنه حقيقي.. وأقول آسفة في سري: هؤلاء هم الآخرين الذين كنا معا يدا بيد سرا, ننتظر أن نكون معا بالعلن عندما تسمح الظروف. بعد تجربة قصيرة لفنا الغبار و أصبحنا كل في مواجهة مصيره, وكل يبحث عن نفسه.. سيرا.. دورانا.. بالنظر إلى الأمام, أو إلى الخلف, وأنا أسير و أدور, أنظر في كل الاتجاهات , أرى أحيانا وأحيانا لا, وأنتظر..

مصيري بعد هذا التيه الذي أنا فيه أو في طريقي, كما أفترض, للخروج منه.. تيه يشل طاقتي التي أسعى أن أعززها في التأمل والصبر, طاقة تلبس التماسك شكلا يذروها قدح نبيذ.. أجل كأس من النبيذ كان كافيا لكل هذا العري.. عريي أمامي يخنقني, عري الذين غمسنا معهم شبابنا بالألم, بدل الفرح يزيد اختناقي, أحيانا يثير قرفي.

عريي يخنقني لأنه يذكرني بأنني, ولست وحدي, ضحينا بالكثير, سنوات من عمرنا معزولون عن العالم, سنوات من المراهنات بدون طائل, سنوات من الاغتراب عن واقع عدنا إليه مع مزيد من المساومات, سنوات وسنوات تغيرت فيها مشاعرنا وأحلامنا من الأقصى إلى الأقصى وتحكمت فينا حيرتنا دون انتباه كاف منا, تسلحنا بلعبة إدارة الظهر للمشاكل والرغبات ففقدنا مراكمة الخبرة اللازمة لعلاجها, ولمعرفة ما نريد. والنتيجة عندي شعور بالقلق يهدني, يشعرني بضعفي, وكأنني لا أمتلك الآن شيئا غير تلك الأحاسيس السلبية التي أخذت حجما أكبر في صدري الذي استنفذ فرصه في الاستيعاب..

بل أمتلك..على الأقل سنوات من التيه مع آخرين.. تيه لا أستطيع أن أرميه بالبساطة التي يقتضيها الاعتراف بالخطأ.. لعله من القوة لدرجة

أنه يشل القدرة على رميه مع أشياء كثيرة أتركها عندما يكون في ذلك راحة أعتقدها..

كيف أتجاوز تلك الآلام والأفراح التي عشتها في السر؟.. كيف أنسى سنوات أخرى في قبور صامتة؟.. بل أجمل العمر ضاع في سراديب لا تعرف الهواء النقي ولا أشعة الشمس.. وضعني القلق الذي رافقني في خزان من التناقضات يغتال محاولاتي في النسيان.. ويصعب علي الطريق إلى السلام مع ذاتي.

عشت دائما دون التأكد من صواب خطواتي, لم أبحث في يوم عن ملكية أثق أنها ستزول, أو عن مجد خاص.. كنت أتبع إحساسي وحدسي دون أن أحسب أبدا لليوم الذي سيأتي, لم أحمل نفسي مسؤولية بناء حياة أحبها واضحة المعالم, لم يكن لي حظ في السكن في منزل يلائم رغبتي وذوقي رغم أنني مهندسة, لم أفكر منذ ذلك اليوم الذي سأتحدث عنه في اتخاذ قرار يتعلق بمصيري.. تركت للآخرين هذا الحق بدلا مني بدون طلب منهم.. استسلمت, للركض في اتجاهات لا أعرفها من غير انقطاع.. كنت أشعر أن بيني وبين الجنة خطوة واحدة بينما أنا في الواقع أتراجع أو أدور في مكاني ولا أعرف التقدم فكيف بالوصول.

هكذا كنت. والآن لست بعيدة عن ذلك رغم أنني تخلصت من الكثير من أوراق ذلك الزمان, تخليت عن البكاء من نسيان ذلك النشيد الجماعي الذي أنشدناه سرا.. غدا أريد الخروج من إطار, لم أعد متأكدة لماذا ومتى وضعت نفسي به. إطار جمعني مع آخرين لاعتقاد أنه يحمل الحل لواقع اخترت أن أعترض على ما يخنق الأحلام فيه. خنقتني جروح الزمان والمكان حيث أنا, كانت الجروح تدفعني للحلم بعد اختلاط الآلام بالأمنيات وكانت تطغى الأمنيات, الآن تطغى الآلام فتؤلمني جروحي, وتطلب من ذاكرتي الأجوبة على أسئلة منها القديم ومنها الذي خلقته اللحظة..

وأنا في لحظات العري, أحاول أن أتذكر: متى كان آخر قرار اتخذته برغبة خاصة بي وبقناعاتي أنا وليس بقناعات الآخرين؟!

كان القرار الأول, وقد شكل الانعطافة الأهم في حياتي, كان مني وليس مني.. لي وليس لي.. لقد كان توجهي لدراسة الهندسة, عام 1976-1977. كنت حينها مصرة على هذا القرار.. أرى فيه سعادتي التي أنتظرها. بإصرار أخشى أن يكون متعلقا بما سيليه من مصادفات وقرارات زادت من وعورة الطريق الذي أمشي.. حينها كان استجابة لرغبة تسكنني, لحلم كبير ورشاقة تكفيني للركض وراء ذلك الحلم: العمل في عمل يجمعني مع العمال.

رومانسية أتتني من قراءاتي لسلسة المقاتلين من الأدب الروسي. خلت نفسي بين العمال, أقف بجانبهم للدفاع عن حقوقهم.. مهندسة حمراء, تعطي صوتها للمحرومين من أصواتهم..

مع سنوات الدراسة كبرت مع الأصدقاء ونسيت وقفتي مع العمال, استبدلتها بالانضمام إلى جموع ستقاتل, إلى صفوف حملة الراية الحمراء, غابت تلك الرومانسية عندما قبلت العمل في وزارة مع مهندسين وخبراء دون أية رائحة للطبقة الكادحة. تجاهلت مسؤوليتي في تطوري مهنيا وعمليا مكتفية بما أهلتني له الشهادة الجامعية في الانخراط بالعمل. فضلت العمل في مكان يسمح لي بالمطالعة.. أي لم ألجأ إلى إمكانيات للعمل كانت مفتوحة أمامي, استغنيت عن العمل في موقع إنتاجي.. وتبخر حلمي المثالي.. وتجاهلت مسؤوليتي في تطوير كفاءتي.. ودعت طموحي العلمي زمنا ليس قصيرا.. ولكن إلى أين؟!.

في أعماق كل منا أساس يوجه استجابتنا لما يحيط من ظروف, والأسوأ أن تتبلور الاستجابة تلبية لمطالب افتراضية لم يطلبها أحد منك..

القرار الثاني, كان انتمائي لرابطة العمل الشيوعي في عام \1979\. الذي لم يكن لأن الحزب, الرابطة في تلك الأيام, شكل إجابة على

تساؤلات كنت أحملها في تلك المرحلة. تساؤلاتي أصلا كانت أقرب إلى الرغبات التي يمكن أن ترحل بي إلى اتجاهات غير محددة.. كانت أفكاري مجردة أخذتها من الروايات.. تحولت بعجالة مبالغ بها إلى رغبة في المشاركة في فعل إنقاذي لوطن يظلمه حكامه.. حين جاء ذلك اليوم الذي حمل لي فيه رجل من ذلك الزمان, ثلاثة عشرة كراسا تحمل في ثناياها البرنامج الانتقالي والاستراتيجي لرابطة العمل الشيوعي, كنت جاهزة في أقل من شهر للانتماء. تجاهلت أن الانتماء إلى حزب سري في المعارضة يستحق يقينا في الفكر والاستعداد, من أجل المضي أو التراجع بسلبيات أقل..

كان يجب أن أمعن التفكير, لكن خوفا مجبولا بفكرة سائدة في الأوساط التي كنت أتحرك بها وملخصها: يعيبك طول التفكير والنقاش والتمهل, عليك أن تخرج البطل في داخلك وتمكنه من السيطرة على كل رغباتك, وإلا كنت انتهازيا, إنها نقطة التحول إلى مناضل نذرت له نفسك والتي لا تحتمل التردد..

مضيت بتلك الخفة والرشاقة لأقاتل من أجل أفكار وقضايا كثير منها كان بعيدا عن بناء الإنسان الذي يحتاجه عمل يبتغي بناء وطن.. كنت مستعدة من أجلها أن أخسر أهلي وكل ما بنيت من علاقات!!. لقد كان اتخاذي لهذا القرار سهلا رغم الصعوبات التي تنتظرني. اتخذت القرار وأنا شبه نائمة.

بعد ذلك, ربما يصعب التحدث عن قرار اتخذته!!. لأن القرارات تتالت بدون إرادة واضحة مني.

قرار الخطبة.. قرار الزواج الذي كان انتقالا إلى حياة فاترة, كيف تلفت صمت.. توارت الدهشة وغار الفرح من كثرة فواصل الغم التي تسلقت روحي.. وبدأت بموتي إذ لم يبق لدي خيارات, ولم يعد بإمكاني اتخاذ القرارات حتى في أصغر الأمور التي تخصني, تغيرت قسمات وجهي

وتحولت حيرتي إلى غصة مرافقة. أشعر بالخجل من نفسي.. حين أتذكر تلك الساعات, خجل ليس من خطأ ارتكبته, بل من شعور بالألم على زمن جميل لم أكن أشعر بطعم الأشياء التي أقوم بها فيه, كنت أخطو صوب وجعي على نحو يمنعني الآن أو يعيقني عن ترميم ما انكسر.
بعد الخطوبة بعشرة أيام, ذهبت معه إلى الضيعة لزيارة أهلي من أجل إجراء عقد القران, كان هو قد قرر الزواج, لا أعرف إن كان اتخذ هذا القرار في العاصمة قبل سفرنا, ما أعرفه أنه لم يناقش الأمر معي, وأنني نظرت للموضوع بلا مبالاة.. ذهبنا مع والدي في اليوم التالي إلى المحكمة في المدينة, سأل القاضي عن المهر قلت له دون انتظار: لاشيء, أنا لست للبيع. والدي لم يعترض, ربما كان يائسا, أولا يريد الدخول في نقاش حساس أمام الآخرين, مع أن أحد الشهود من قريتنا, عبر باستنكار عن كيفية قبول أبي بهذا الأمر, متسائلا: كيف لبنت فلان أن تباع ببلاش؟!..خبأت غضبي في متحفي الذي بدأت بتشكيله وتساءلت مستنكرة: هل الزواج لعبة بيع وشراء؟. تقبلت غباء ذلك الشخص وأنا أعلم أنه اعتقاد عام.
للأسف, مازال ذلك هو الاعتقاد الرائج في بلدنا حتى اليوم, بل إن الأمر يزداد سوءا.. المهم أن إرادتي في تلك اللحظة, كانت في حدودها الدنيا, وهذا لا يتعارض مع تمسكي بقناعاتي التي مازالت راسخة في قضايا الزواج والمرأة.. كنت أملك فقط أفكاري المتمردة على كل ما أعتقد أنه بال ورث. أقول ذلك الآن وأنا أنظر بعد كل تلك السنوات إلى لحظة تخصني ستنتقل بي إلى صفحة مختلفة من صفحات حياتي, القليلة على أية حال. لحظة لم تكن تعنيني على الإطلاق مع أنها تحمل بذور حياتي القادمة.. وكأن ذلك يجري مع شخص يفارقني, أراد أن يكون بطلا إلى النهاية. لحظة فتحت على سنوات, سأرى فيها كل ألوان التراجع الفردي والذبول, سيطعن بوجودهما المارد في داخلي, الذي دفع بي في يوم ما

باتجاه الغياب الجميل, باتجاه الحلم, مارد سيتحدى تلك السكينة البادية التي اغتصبت دوري في تواجدي اللائق والدائم في الزمان والمكان الذي أتحرك فيه.

رجعنا من المحكمة إلى القرية, أهلي وأنا لا نعرف إن كان هناك جديد قريب.. فاجأني كالبرق في المساء بأننا سنتزوج في اليوم التالي, وكمن يتخبط في الوحل, سألته كيف سأخبر أهلي؟! كيف وكيف؟! لا شيء مهم. هكذا أفضل. وافقته مع أنني غير متحمسة لذلك..

أعشق الاختلاف والتغيير خاصة إذا كان باتجاه كسر عادات سلبية.. ولكننا لم نحضر نهائيا للأمر!. لم يكن مكان محدد للنوم يخصنا.. لجأت إلى أماني, إلى أمي أخبرتها, ذعرت.. كانت تنتظر يوم الفرحة بابنتها. ماذا سنقول للأقارب من الدرجة الأولى؟ قالت لي: كيف ستخرجين مثل الأرامل بدون زغرودة؟ وبدون وداع يليق بك وبنا؟ والأهم كيف ستتزوجين في يوم الاثنين؟! كانت أمي تخشى من الزواج في ذلك اليوم.. تعتقد أنه لن يدوم..لا أعرف إلى أي حقبة أو جماعة يعود ذلك الإعتقاد.. يسود اعتقاد عند العامة في قريتنا أن يوم الاثنين غير مناسب لا للغسيل ولا للزواج.. يقول البعض أنه قديم عاد تجديده بحكاية تزحلق السيدة فاطمة بمياه الغسيل في طريقها لزيارة قبر والدها, في يوم اثنين والذي هو يوم وفاته..

كيف؟ لماذا؟ ماذا؟ وغيرها من الأسئلة المنطقية, التي لم يكن لدي عليها إلا جواب واحد: غير مهم... بماذا أجيب على تلك الأسئلة المشروعة وأنا المفصولة عن كل منطق.. طرق الحزن داخلي وأنا أتلمسّ تبسيط الأمور المبالغ به..

ليس بقصد محاربة السائد, تمت مراسيم الزواج بدون صلات مع الأساليب المعتادة, لم يبق منها سوى دعوة أهلي للأقارب على الغداء من أجل رفع اللوم عنهم.. أتوا وودّعوني دون أن أفكر برضاهم أو عدمه..

أعطاني أبي ألفي ليرة, ذهبنا بهم شهر العسل إلى اللاذقية. قضّينا أربعة أيام جميلة في فندق الجمل, فندق بعمارة دغدغت عواطفي التي تتناغم مع العمارة القديمة. عدنا بعدها إلى مدينته عند أقاربه.. ومن ثم إلى دمشق في المسكن المشترك مع عائلته والضيوف من مرضى وأصحّاء. عدت بفستاني, الذي سافرت به, بصندلي القديم, كمقاتل عاد من مهمة عادية يضيع فيها الفرق بين الانتصار والهزيمة.. لا يعرف إن أخطأ أو فعل الصواب. عدت ولا أعرف ما حلّ بي من مشاعر خواء وتعب من كل شيء, خاصة عندما دخلت الغرفة المخصصة لنا في بيتهم, والذي يفترض أن يكون بيتي, تحتوي على خزانة قديمة تبحث عن الثياب القليلة التي كانت لدي على كل حال, وفراش على الأرض يبحث عن أجساد لا تعرف المتطلبات, جدران بائسة سترسل الخشية من القادم, قادم أقرب من التصور, لن ينتظرك لتتأقلم مع الجديد الصعب. قادم أسفر عن وجهه البائس سريعا: انشغال الزوج خارج البيت, انشغال الزوجة بالزوار والمقيمين, حياة عادية, رتيبة, قلقة, تركتني أمام خيارين إما الاضطراب أو التسليم الذي يساهم بتخفيف الألم المرافق لتحطم الأحلام الصغيرة, أجل هناك أشياء تحطمت وأخرى تقطعت.. أشياء جميلة غادرت حياتي, خلفت وراءها انكماش النفس وضعضعة الروح, نمت بعد حين دعوات لأشكال من التمرد.

هنا بدأ تيه من نوع خاص ألفته لأطرد كل المشاعر والأفكار التي تدعوني للخروج. بيت البيوت الذي انتقلت إليه لم يكن يروقني, لم أستطع مسايرتهم في الضحك والحديث, بدأت أعيش صمتي. وهو تلمس ذلك بوضوح. يتذكرني امرأة أخرى, امرأة تحب الحديث.. كان يجدني كما عرفني عندما أزور أخواتي القاطنات في دمشق, حيث أتجدد, يسألني حينها عن سبب صمتي في البيت فألوذ بالصمت, كمن لا يسمع السؤال. وهو لا يحاول أكثر.. يكتفي بصمتي.. ربما عرف أنه يجب ألا يسأل تائها

لماذا تتوه؟..

أخذت السعادة تهجرني, إنها صدمة الانتقال من الحرية إلى الالتزام, إلى حرية الاستكانة إلى متطلبات الواجب الاجتماعي بأثقاله.. هناك بدأت أدرك ما ينتظرني من قيود على روحي ومخاطر على طمأنينتي.. في الشهر الأول لزواجنا, طلبت منه تأخير الإنجاب رغم عشقي للأطفال وانتظاري لحياة الأمومة. رغبتي للتمتع بحياتي الزوجية في السنة الأولى اصطدمت بواقع الحال, بقيت رغبتي بالتأجيل بسبب المخاوف من احتمال الاعتقال وحرمان المولود من والديه, لم يناقشني في أفكاري ليعرف إن كانت قناعات أم هلوسات مخاوف, أراد أن يضع حدا لنقاش أفكار ربما كان أشد قناعة مني بها, لكنه لا يمتلك الحرية الكافية للتعاطي مع الموضوع, لقد قرر الوفاء بذلك الدين.. كان يحلم بوجه أمه باسما لطفل منه. ومنعا للدخول في حوار منطقي قال لي: أنا لا أنجب, صديقي درس العقم عند الذكور, أخذ مني عينة وقد كشف لي ذلك.. صدقته.. مع أنه قال لي قبل الزواج أنه يريد إنجاب ولد بسرعة من أجل أمه التي نالت ما يكفيها من الظلم في هذه الدنيا. نسيت رغبته تلك.. في الحقيقة لم يكن ذلك نسيانا بل مقدمة للدخول في وحشة درب ستقودني المعاناة فيها إلى مزيد من الآلام, بدأت بسرد أحاديث سرية مع نفسي بين مصدقة له ومكذبة, احتجت إلى الكثير من الحيلة لأستمر مع الآخرين بسلام, صدقته مع ملابسات الموضوع وعشت لحظات من الضعف والغباء تركت بصمتها على ما تلا. تناثرت كلماته القليلة في خلايا الجسد, واستقر في الأعماق خوف جديد لم أكن بحاجة له..

خطوة أخرى إلى حافة الخطر, دفنت حلمي بالبيت الذي وصفته فيروز في أغنيتها " بتشوف بكرة بتشوف شو دارنا حلوة.." شعرت بثقل الأيام دون أن يلاحظ ذلك, لم يتصور أنني سأصدقه لأكثر من سبب.. لكنني صدقت فقد كان ضعفي الخاص والراهن كافيا لاستقبال وساوس

استهلكت الكثير من قواي وقدراتي قبل الأوان.. الخوف من القادم سيصبح جزءا مني.. مشاركا مهما في معادلة ارتباطي بالحياة. يبدو أنني كنت أبحث عن مبررات كافية لأستسلم لحزني, لأوافق على هجران الفرح لي.. وجرح آخر يصعب السؤال حوله لماذا لأن معالجته لم تكن بتلك السهولة.. وعلى هذا الجرح وجدت بذور الوساوس تربتها, ونمت لتأكل مني المزيد.

أتى الحمل.. اعتقدت أنه حمل وهمي تحقق من شدة تعلقي بالأطفال وخوفي من عدم الإنجاب, وبدل مناقشة الأمر مع غيره أو معه خاصة أنه كان سعيدا جدا بالمولود القادم, بدأت أقرأ عن الحمل الوهمي وأتعمق بالموضوع بقصر النظر الكافي, فأدفع نفسي إلى الجنون.. لم يكن هناك أجهزة تصوير للكشف عن الجنين, لكن كان هناك أطباء.. وكمن يلعب بالوحل مضيت في شرك الاحتمال السيء لمدة تسعة أشهر وأيام. لأن القصة اكتملت بتأخر الولادة عن موعدها المحدد من قبل الطبيب, الذي أخبرني ببساطة أن حملي مديد.. وأنه يمكنني التحمل خمسة عشر يوما إضافيا". طبعا هو مطمئن حول وضعي ووضع المولود, إلا أنني وأنا المحاصرة بشبح الحمل الوهمي أرغب بيوم ناقص, فأنا معلقة بين الشك واليقين منذ تسعة أشهر, ولم يعد لي طاقة لتحمل أي يوم إضافي, طلبت منه التسريع في الولادة, أعطاني موعدا" بعد أسبوع في 28\8\1983/. لم أبث مخاوفي لأحد حتى تلك اللحظة والسبب لاشيء. في الواقع بقيت مخاوفي بين أضلعي حتى هذه اللحظة..

ذهبت إلى المشفى وكانت لنا قريبة ممرضة تعمل هناك, في المساء أعطتني إبرة التحريض بناء على طلب الطبيب, وانتظرت هناك الصباح بفارغ الصبر. في التاسع والعشرين من آب كان هناك معركة بانتظاري. كانت ولادتي من الولادات الصعبة, والطبيب مصر على الولادة الطبيعية. كانوا يتركون المرأة تصل إلى الموت قبل اتخاذ قرار

القيصرية. ورغم غرقي في الألم, رأيت دموع أمي التي تعرف هذا العذاب, كان عذابها مثلي مضاعفا.
هي محكومة: بولادة صعبة, وخوف من قدوم بنت جديدة.. إذ وصل عددنا إلى ثمانية وتاسعة ماتت. وأنا ولادة صعبة, وخوف من حمل وهمي.. كان مصيرنا في العذاب متشابها, مع اختلاف الزمن والأسباب.
بكت أمي عليّ ومعي.
في غرفتي وأنا أنتظر الرحمة والخلاص من شكوكي. أتت ممرضة لتتكلم عن ولادة في غرفة أخرى: (يا حرام الطفل منغولي) رنّت جملتها في أذني رغم كل الأوجاع.. هل كان ينقصني خوف آخر في تلك اللحظة؟ هل يتوجب علينا أن نقول كل شيء وفي كل وقت؟!
هكذا نتعامل مع مشاعرنا بعفوية وبدون أية حسابات تفرضها ضرورات اللحظة. أخذت أفكر أيهما أصعب طفل منغولي أم حمل وهمي؟ ربي! ماذا فعلت لأعاقب كل هذا العقاب بالتفكير الذي لا طائل منه, إلاّ مزيد من العذاب, بعد أربع ساعات من آلام متواصلة دون أي نتيجة.. اقترح الطبيب إزالة "ميةّ الرأس" أخذ رأيي قائلا: ذلك سيزيد الألم لكنه سيسرع الولادة.. قلت لنفسي: مزيد من الألم واختصار لزمن الانتظار الصعب الذي لم أعد أتحمله.. بل أنني مستعدّة لدفع عمري واختصار زمن الانتظار المر.
الغريب أنني لم أخبر أحدا بمخاوفي!.. حتى الطبيب لم أسأله لم أناقشه في وساوسي.. هل أعاني من مشكلة؟! هل أنا من النوع الذي يرغب في تعذيب نفسه؟! لا أعرف ولا أستبعد.
بصراحة أغلب البشر يتركون لأنفسهم أسرارا", الكل يخفف من عرض مشكلته حين يريد, و يزيدها حين يريد, لكن لأسباب. أما أنا فالسبب هو أن أتآكل فقط, أو أهرب من الحقيقة التي لي مصلحة بها: وحشة وغربة وليل موحش لا ينتهي.

قال الطبيب: المخاض سيصبح أصعب, ولم يقل أنه سيصل إلى درجة عالية من التعذيب تختبر أقصى قدرة للإنسان على التحمل, كما لم يضعني أمام خيار القيصرية السهل والممكن بالنسبة لي. بقيت أتلوى في هذا الجحيم أكثر من ست ساعات.. وبعد طول عناء استجاب القدر لدعوات قلب أمي المعذب ورغبتي.

يالله إلى غرفة المخاض. اضغطي أكثر.. الحمد لله أنك قوية...برافو نزل المولود.. أنت حقيقة قوية جدا.ً شكرا لكً قال ذلك الطبيب.

نسيت كل الآلام التي عشتها عندما علمت أن هنالك مولود, وهو بنت وطبيعية, وداعا لذلك البؤس الذي أدخلت به نفسي, وداعا لذلك العذاب الذي خصتني به الطبيعة..

أشهر لم أنم فيها كما أرغب.. أهلا به بعد قدوم ابنتي, حبيبة عمري التي ستكون حبا لي من نوع خاص وبخصوصية شديدة.

هلك الأهل بانتظار المولود, ذهبوا جميعا إلى البيت في أحد الأحياء الشعبية "الدويلعة" الذي كنا قد انتقلنا إليه قبل ثلاثة أشهر, بقيت أنا في المشفى, وصرت أتذكر كيف كانت الآلام أكثر من المتوقع, كيف توزعت روحي بين مفارقة ومصرة على الاستمرار, تعلمت عندها درسا للصمود, أساسه التحمل اللانهائي للإنسان إن كان هنالك هدف. سرحت بأفكاري ونمت.. تركت ابنتي في رعاية صديقتي الأولى في تلك الفترة.. هي التي نظفتها من أول خروج لها. وأنا بين الصاحية والنائمة أتى صهري بالطعام, أبدى دهشته من غياب مضر المتكرر عن المشفى.. لم يكن يعلم أن المهام الحزبية عنده لها قدسية تدفع لأداء الواجب الخاص بطريقة خاصة قاصرة بنظر المجتمع, بمنتهى الكمال بالنسبة للحزب, ولحسن الحظ أنه لم يعلم. فعملنا السري لا يحتمل نقاش الواجب الاجتماعي, ودور الزوج في مثل هذه اللحظات.

صديقتي سهرت على البنت طوال الليل, وأنا منهكة لا أذكر أنني رأيت

وجهها, وجه ابنتي, كفاني الاطمئنان على أنها طبيعية. تخرج البراز والبول وتبكي في الوقت الذي تريد, تعرف كيف تطالب بحقوقها. معادلة الحق والواجب أجهلها ولكنني أفرح عندما يحققها من أحب.. حقوق الطفل فوق كل الحقوق..

في الصباح خرجنا من المشفى بعد اختيار اسم المولودة, ليسجل في بيان الولادة: سنا... لم يكن لرأيي أهمية كبيرة, وأنا لم أصر على الاسم الذي كنت أحب, كما أنني أحببت اسم سنا, مع أن الكثيرين يعتقدون أنه اسم الدلع ل سناء.

أمي كانت تنتظرني في البيت.. مرتبكة لأنها لم تتمكن من أن تعد لي طعامي المفضل بيديها, ربما لأسباب احترام الضيافة ولباقة أهل البيت, وربما لخجل تعاني منه أمي.. وربما لأسباب أخرى..

أتذكر حزنها من أجلي. البيت الذي أسكنه سيء, تركنا الغرفة الأفضل للزوار وغرفتي هي الأسوأ, ينكمش الهواء فيها, وتخجل الشمس قبل بابها بمترين, وينسى الضوء في النهار واجبه.. فنضطر للاستعانة الدائمة بإنارة غير طبيعية. جدران البيت ونوافذه وأرضيته وموقعه شكت من الفقر والحرمان, كما شكت من انحسار وتشتت المشاعر الدافئة.

في اليوم الثاني, اليوم الأول لي في البيت بعد الولادة. لا مشاعر خاصة تجاه الطفلة, لا حليب في الصدر, وها هو مونولوج القلق يعود لي من شباك بعد أن خرج من باب.. ترى هل يعقل أن مشاعر الأمومة ليست غريزية و ليست جزءا من طبيعة المرأة؟ أم أن استجابتي لما هو طبيعي ضعيفة وغير صادقة؟ هل كانت مشاعري تجاه ابنة أختي طفرة؟ هل يمكن؟ هل يجب؟ وماذا؟ ولم؟ كعادتي لم أشكو لأحد بما أشعر به, كيف أعرض مشاعري ومخاوفي, وأنا التي أخفيت خوفا لمدة تزيد عن التسعة أشهر؟! أجل لقد تعودت على إخفاء المخاوف.. ومازلت...

مضى ذلك اليوم, لم يكن فيه شيء, إلا الخوف من برود مشاعري, وآلام

الجرح الذي سببته الولادة. راقبت حمام الصغيرة, لم يعجبني منظر الصرة, راقبت قسمات وجه أمي, لاحظت كمية الحب المتبادل بيننا.. لاحظت سؤالها المتجمد على جبينها حول سبب زواجي بطريقة خلت من البهجة التي تنتظرها كل فتاة.. ترى هل أدركت عدم وجود سبب بإحساسها الذي لم يكن يخطىء؟ هل علمت هي الخبيرة بالاستسلام أنني استسلمت بدون سبب؟.. استسلمت لأنني لم أنضج بعد.. الاستسلام كان جزءا منها.. وكأنني أنا منذورة له.. ترى هل علمت أنني سأظل أخرج من عذاب لأدخل بآخر إلى آخر الأيام الجميلة في حياتي؟! هي أيضا قبلت بكثير من العذاب.. لم يكن بيدها حل, هي لم يخطر لها التفكير بحل لأنها أساسا لم تكن تتساءل عن أسباب عذابها, بل تصالحت معه إلى النهاية.. أما أنا؟! فبكلتا يدي رميت الحلول الممكنة.. كان يمكنني أن أكون أكثر قوة منها.. أن أفتح على جرحي لأداويه, أن يكون صبري أقل لأنتظر أقل, أو أن يكون صبري أكبر لأتحمل المزيد من الضغوط... لست بالوضع الذي ترغب الأم أن تجد به ابنتها. تنهيدة أخرى.. وأعذار لن تجد سبيلها لتفسير الأمر.

الفصل الثاني

من امرأة أدارت الظهر

لأمومتها

في اليوم الثالث لقدومك إلى الدنيا, استيقظت لأرى الملائكة أمامي في السرير الصغير.. من أين أتى كل هذا الجمال؟! في ليلة واحدة, في غمضة عين تحولت الحياة لتأخذ طابعا جديدا, كان الحليب ينتظر أجمل ثغر في الدنيا, لم أعد بحاجة لخلق وتركيب صور ليحلو البيت, هذا هو الشعور بالحب الذي يغرق الدنيا بالجمال, هذا هو شعور الحب الذي يمدنا بطاقة لحياة أجمل. شعور الأمومة أنساني كل شيء.. رأيت على وجه أمي الفرح.. توارى ضجيج البيت.. سرقت بعضا من الوقت, دخلت في زمن جديد, عشت أنانية,ستزول في وقت لاحق رغما عني, تواعدت مع السعادة والبهجة والغناء.. أسفت على الأيام التي مزقتني بها الأوهام. شكرا لك على هذا الشعور الذي منحتني إياه. شعور صادق وحقيقي, يلائمني تماما وأستحقه, هذا الشعور لا يحتاج إلى قرار.. يفرض نفسه كالنسمة الباردة في الحر. أمسكت كما يجب بدوري في الحياة بما يتناسب مع طبيعتي وطبعي.

إنسانة عادية, البطلة بداخلي نامت مع تجميد عملي في الحزب. النوم تحول إلى صديق عند الضرورة لأيام بطولها, ترك الباب مفتوحا ليقظة تمكنني من الغب من سعادة زارتني بعد غياب. أخذت من بكائك حجة لأضعك على يدي في الليل وأنت نائمة. لم أفكر بما سيأتي في الأيام

القادمة, كنت منتشية بفرح يملأ جسدي وأنفاسي يبثه تواصل لعيون تغزل الحب الكبير. ولأشهر, دخلت في غياب جديد, غياب عن غياب كان قبل سنوات, اتسع صدري بك و لم يعد أحد يمثل لي الشيء الكثير, ولم يعد شيء أو أحد يأخذ مساحة تذكر..

تحولات الإنسان في لحظة تبدو خيالا, قبل سنة ونصف من مولدك رفضت أن أسافر برحلة إلى فرنسا مع زميلتي في العمل, خوفا على تراجع دوري قي الكفاح! هاأنا أرى الدنيا كلها في عينيك الساحرتين. أجل كل الأشياء تضاءلت أمام فيض المشاعر التي زارتني, أذكر كل ذلك وكأنه يحدث الآن. قبل قدومك كانت قلة النوم مشكلة بالنسبة لي, بعده أصبح النوم للحاجة فقط, أرغب الصحو ليطول الاستمتاع بما منحته لي الحياة. ببساطة تحول نشيدي المفضل الذي يربطني بالأصدقاء والوطن: "عن الورود أدافع شوقا إلى شفتيك وعن تراب الشوارع خوفا على قدميك". تحول إليك بعد ميلادك. دون أن أخجل من شاعر كبير كمحمود درويش.. أصبحت وطني الجميل.. وكما تخيلت وأنا مراهقة بيتي الجميل مع الحبيب, تخيلت مستقبلك المزهر بدون منغصات في الطريق, كنت أرسم القصور والأحلام والورود تزين خطاك, تخيلت أن أسلحة الإستبداد ستدمر حين تصل إليك, غاليت في أحلامي التي استندت إلى الفطرة وحاجات القلب.

أصبحت منذ تلك اللحظة 1983/9/1 حياتي..لا يهمني أحد قبلك.. والأصح لا يهمني شيء قبلك, هذا إذا اعتمدنا الحزب كشيء, أغار من حب الآخرين لك.. نبضي يتلون مع ابتسامتك.

انتقلنا من أجلك إلى بيت جديد, تدخله الشمس, ويستقبل الضوء والهواء.. أكسبنا ذلك راحة, وبدأت هناك تعبرين عن ذكاءك المتميز, في الحركة والنطق والانسجام مع الموسيقا.. انشغل أهل البيت وزواره بك.. في عيد الأم, أو بعده بأيام ذهبنا إلى بيت جدك "أهلي".. كان عمرك أقل من ستة

أشهر, كنت تصغين إلى الموسيقا والأغاني وأحاديثنا, وترددي بعض الكلمات بوضوح, وكأنك تشاركيننا الحديث مما أذهل أمي, وأخافها, قالت: (يسم الله كأن ابنتك مقنصة). انتاب والدتي شعور أنك متقمصة لروح شخص ما من جيل سابق مما يمكنك من تلك المشاركة. أفكار تناسب معتقدات سائدة في أكثر من مكان في بلدنا عند أكثر من طائفة, تتلخص بأن أشخاصا ماتوا يعودون للحياة أحيانا عبر بشر وأحيانا عبر حيوانات وهناك العديد من القصص التي تروى للتأكيد على ذلك, في منطقتنا أغلب القصص ترويها النساء.. مرت أيام العطلة وقبل عودتنا بيوم مرضت هناك, وطالت إقامتنا أسبوعا إضافيا, كان هدية منك, لأقضي مزيدا من الأيام مع أمي.. التي سترحل بدون استئذان في ذلك الحادث اللعين بعد أقل من شهرين. وبرحيل أمي ودعت كثيرا من الفرح الذي بقي لدي...

عدت من مواساة أحد الأصدقاء بوفاة والده, لأجد خبر وفاة أعز الناس بانتظاري, فارقت الحياة عند غروب أحد الأيام, تركتك وجزء هام من روحي .. وسافرت بإحساس من عدم التصديق.. خرجت الفراغات التي تراكمت إلى السطح وتحولت في لحظات إلى شخص مفارق لي.. سيكون ذلك سمة لحياتي في المنعطفات..

كان رحيل أمي بلا سابق إنذار تمهيدا لسلسلة من الخطوات باتجاه الهاوية, أمي الوحيدة في هذا العالم التي كانت تشعر بي دون أن أتكلم.. كانت صدى ومرآة لي, تمدني بالقوة كلما احتجت.. رائحة الغار في جديلتها علمتني متعة حاسة الشم ... حملت لي وعاء آهاتي التي كتمتها.. في وداعها انكسر الوعاء وانتشرت آلامي وتبعثرت معها..

بعد ثلاثة أيام أتوا بك من دمشق إلى القرية, كنت قد ازددت نحولا لأنك امتنعت عن الطعام لثلاثة أيام احتجاجا على غيابي كما قالت طبيبتك.. كنت تمتنعين عن الطعام عندما تزعجك الأشياء.. ومازلت.

لم تعرف أمي شيئا عن الصراع الطبقي, لكنها كانت تعرف عن العدالة أكثر مما صاغت الكتب. خانني الوقت الذي استعجل نهايتها.. وبقيت ممزقة بين حلمي القديم بأن أكون صديقة لها أرد لها بعضا من جميلها, وواقع رحيلها المفاجىء.. عدت وإياك إلى بيتنا الذي لم أكن أشعر, للأسف, أنه بيتي..عدت بصحبة غصة لن يكون التخلص منها سهلا.. عادة في الأحزان, وخاصة عند موت الأحبة لا نشاهد التلفزيون.. أحيانا من أجل ألا يتناولنا الناس بالكلام, وأحيانا استجابة لقرار غير واع بمقاتلة وسائل الرفاهية ومنها التلفاز.. لم أكن عند عودتي مستعدة لمشاهدته.. لم أكن مستعدة بعد للاندماج في روتين اليومي الذي خضع لتكسر النبض بموت آيات الحنان.. اصطدمت بالوحدة والقلق ينبعان من داخلي.. شعرت بتلاشي كثير من الأشياء التي كنت أسيرة لها.. أدرت ظهري لغرفة الجلوس ودخلت يمينا وأنت على صدري منهك الأنفاس إلى غرفة النوم لتكوني عندها صديقتي القريبة التي خففت عني وقربتني من روحي.. تمكنت من تخفيف شعوري بالوحدة.. في بيت لا يأتيه الأصدقاء لسد الباب على مصادفات بمكن أن تكشف علاقتنا, والدك وأنا بالحزب.. قبل أربعين أمي.. اضطر والدك للخروج من البيت, إلى بيوت حزبية حيث ولج دائرة المتخفين بعد كشف انتمائه للحزب في حملة ال 84, توارى بعيدا عن البيت.. تاركا لنا أسئلة من مثل كيف سنراه؟ متى؟! أسئلة لا نملك أجوبة لها لأنها متروكة لظروف خارجة كليا عن إرادتنا... ما نعرفه أننا سنراه بالقلق والخوف يحيط بنا.. حصل كل ذلك في السنة الأولى لقدومك إلى الدنيا. دون أن تختفي أحلامي في حمايتك وإيصالك بر الأمان من غير إخلال لكن بدون خطة لاستقبال ابتسامتك كل صباح. كان الجسد الحيوي في الحزب من المتخفين.. والمتخفي هو إنسان مضطر, بحكم انفصاله عن المجتمع لأسباب أمنية وليس لتميزه أحيانا, للاحتراف الثوري.. ينخرط بالعمل ويقترب من القيادة ويساهم فيها.

ترك ذلك أثرا سلبيا على الاحتراف حيث كان فضفاضا على كفاءات واستعداد البعض وأثرا أشد سلبا على الحزب...
ما زلت في الحزن على أمي, يغيب والدك عن البيت, فيزداد حزني وارتباكي, وأبتعد مرغمة عن حاجاتي ورغباتي.. وصلت الغصة إلى نبضي الذي كاد يتوقف منذ أشهر. وقد أفضى غيابه إلى العديد من الأزمات أولها أجرة البيت التي لا تتناسب ودخلنا عمتك وأنا.. ولم يكن بالأمر السهل العثور على بيت مناسب. فانتقلنا مكرهين إلى بيت يستقبل الضجيج ليلا.. نهارا...
في الواقع لم تكن أجرة البيت المرتفعة فقط سببا بالبحث عن منزل جديد, بل لعب الدور الأهم خوف أصحاب البيت من الغياب المبهم لأبيك, لقد تغيروا... أربكهم احتمال أن يكون صاحب البيت ملاحقا أمنيا.. أدركوا بدون أن نخبرهم... فغيابه من دون مقدمات.. لن يبرره إلا الغياب الأمني..
فالخوف تغلغل في نسيج المجتمع في أوائل الثمانينات.. وللخوف قدرات تجعل البشر يعرفون أن الأسرار غالبا يكون وراءها أسباب تؤثر عليهم سلبا.. كان باستطاعتنا أن نبقى في البيت, ولكننا فضلنا الرحيل لنحميهم مما ليسوا مضطرين للتعايش معه. وربما لنحمي أنفسنا من إشارات الجدران التي باتت ترهقنا.. كنت أخشى تلك الإشارات أكثر في المساء.. وأكثر في غرفة الجلوس حيث خيم علينا وجوم حرمنا من التواصل الذي يفصل بين الاختناق والتجدد.
المهم استأجرنا بيتا جديدا, لم أحب فيه إلا قصص صاحبه الغائب أيضا. كان أحد رفاقنا, وكان في سجن عدرا, تاركا لأمه مسؤولية بيته. امرأة تتكلم في كل شيء وفي كل وقت, وأنا أصغي لها طالما استطعت.. لم أكن أملّ حديثها وتكراره, كنت أستمع إليها وأسمعها على الأرجح لأواسي نفسي, أو لأهرب من الضيق الذي اشتد ونمت له ذيول

وأشواك..

قسوة معلنة في المحيط, وليس أمامي خيار إلا النبش في قدراتي للتحمل في مزيد أنتظره أو أتوقعه. بيت لا يشدني إليه شيء.. قاس.. لا يحمي من شيء.. يكتفي بسترنا عن الخارج, يرافقنا الضجيج على مدار اليوم.. لا يفصلنا عن الشارع الرئيسي الذي لا ينام إلا أرواحنا التي تتمزق وراء الأباجورات المغلقة والجدران الجافة.. أعلنت الحياة الجديدة عن مستوى التدهور الذي لحق بنا, صرحت عن دفع الضريبة بغض النظر عن الاستعداد.

أيضا ومرة أخرى كنت العامل الأهم في تخفيف الجفاف, والترويح عن نفسي التي تبتعد عن مرادها في حياة هانئة هادئة.. أنت بعودك الطري فعلت المستحيل في روحي. وأنا الآن أقف مذهولة محاطة بالرعب من عجزي في الاقتراب الطبيعي منك, أشعر أن أساسه هناك في ذلك الزمان والمكان غير المناسبين لطفل وعدته أمه بالدفاع عن الورود وتراب الشوارع من أجله, اضطرت لتركه مغلوبة على أمرها دون أن تتمكن من توضيح الأسباب له.. عاجزة حتى اليوم عن ذلك, تاركة لهذه الصفحات أن تأتي بالتفسير. كم أتمنى أن يكون ذلك قبل فوات الأوان.

لئيمة التغيرات السلبية في بدايتها.. كنت أسأل نفسي في خضم ما يجري معي وحولي, ماذا ينتظر هذه الزهرة؟ ماذا ينتظرك؟ أب غائب وأم ممزقة وضجيج لا يحتمل من غير إيذان بفرج قريب.

لم يطل بقاؤنا في البيت.. أتى الخلاص سريعا.. علمت أم صاحب البيت بتخفي والدك, شلها الخوف وهي التي تعمل واسطة من أجل خروج ولدها, خشيت أن يكون سكننا سببا في فشل الواسطة..

من حق كل امرىء أن يدافع عن مصلحته, فكيف إذا كان ضعيفا؟!

الضعيف لا يملك القوة, ولكن يتوهم بأنه يمتلكها, لذلك يمكن أن يقسو

أحيانا على أقرب الناس إليه.. لقد كانت تحبنا, وكانت بحاجة لنا, حيث نسمع لها بدون شرط.. كانت تفرغ كل آلامها عندنا بدون خوف.. تزهو بشجاعتها في زمن نحتاج به إلى التشجيع.. لكن حاجتها لولدها كانت أقوى من صداقة بدأت معنا.. المهم خرجنا من البيت, ولكن ولدها لم يخرج إلا بعد محاكمته وكان ذلك بعد زمن طويل من يوم خروجنا..

قبل خروجنا من البيت, ومع كل الضيق الذي نحن فيه, جاءتني تلك الدعوة الملفوفة بالفرح لبيت أحد الأصدقاء الذي لا يبعد كثيرا, هناك سنلتقي بوالدك..بضع مئات من الأمتار أحتاج فيها للتمويه وتوخي الحذر..

أن تغالي في الحذر يعني أن ترى في كل الاتجاهات.. في نفس اللحظة يعني أن تصل المكان وأنت تلهث لألف سبب بعضها أو كثيرا منها لا تدركه...

لأول مرة سيجمعنا زمان ومكان لوحدنا, رمينا وراءنا بعيدا وعشنا كما لم يكن ذلك ممكنا من قبل. شكله الغريب ذكرني بأبطال فيتنام الذين أحببناهم حيث أمدونا بالقدرة على التمسك بمبادئنا التي تشبه مبادئهم .. شاحبا أكثر من اللازم.. حلق ذقنه بطريقتهم.. بعد ستة أشهر على غيابه وجدته غريبا.. وجدته البطل الذي رغبت.. والحلم الذي رسمت.. لكنه سيغيب مرة أخرى.. سيغيب في رحلة لا أعرف عنها شيئا, وسأنتظر دعوة أخرى تشحنني بالطاقة اللازمة للاستمرار..

الأيام الصعبة تمر سريعا, وهي تمر أسرع كلما كان استسلامنا للتشوه المرافق أكبر.

كانت الأيام تزداد قسوة وتشوهي يشتد لدرجة أن أرى الصعب هين.. تقبلت الحرمان المادي والروحي لأدافع عن البطل الذي تصورته وجعلته أقرب إلي مني ليسيطر علي وأبتعد عني.. وبالنتيجة عدت لأدافع عن الروح المجنونة في من أجل تحمل كل الصعاب التي ستعترضني..

انتقلنا إلي بيت آخر وجدنا فيه حلولا هامه لمشاكل سابقة: هدوء الشارع, وعودة شروق الشمس وغروبها أمام ناظرينا.. كانت صاحبة البيت امرأة تركمانية بسيطة, يعمل زوجها في إحدى دول النفط , لديها ثلاثة أولاد.. تسكن في الطابق الأول.. وتريد الاستفادة من أجرة الطابق الأرضي.. الدرج داخلي, أي لا يوجد بيت درج منفصل, مما سهل لها رؤية كل ما يجري في البيت, بيتنا: زواره.. طعامه.. حركة من فيه, أنفاسهم, لم يكن هناك إخلال بالنظام العام يستدعي الشك بالنسبة لها.. فقط كانت تلاحظ أنني أخرج أحيانا مساء وأعود متأخرة بالنسبة لها. فتقول: "معلوم رجال غايب مرة سايب " كنت أضحك لهذه الجملة التي تختصر فيها ملاحظاتها على سلوكي.. وتختصر الفروق بين ثقافتين تجهل كل منهما الأخرى. هي أيضا رجلها غائب ولكنها لا تخرج من البيت إلا لضرورات دعمه بالطعام..

أسوأ شيء في سكننا الجديد: بعده عن الشارع الرئيسي.. خاصة في الأيام الممطرة حيث أصل إلى البيت من عملي مبللة بالمطر والوحل لاضطراري للمشي برامات المياه. فالطريق إلى البيت مليئة بالحفر التي تمتزج بها مياه الأمطار مع التراب والوسخ المتراكم ليتحول إلى طين أسود.. كنت أضطر للسير فوقه كل يوم ماطر وبعده.

في هذا البيت, بدأ توهاني يتناقص. ساهم والدي في رفع مستوى المعيشة بوضع مبلغ من المال مع أحد النصابين. ليعطيني أجرة البيت من ربح المبلغ.. جرى ذلك على نحو منتظم بعد أن سافرت جدتك وعمتك.. وأتت خالتك لتعيش معنا وتكمل دراستها, كان توظيف الأموال عند بعض أصحاب المهن دارجا, لأسباب تتعلق برغبة الناس بزيادة دخلهم بدون تعب, ولمداراة ضعف الحيلة في خلق فرص عمل بوجود رأس مال, والأهم من ذلك سوء العمل المصرفي في البلد, إضافة إلى أسباب أخرى, كلها سهلت تحول فئة من البشر إلى نصابين.. ومعاناة الكثيرين من

عملية النصب التي مازالت تأخذ أشكالا تتطور باستمرار. للأسف ذهبت هذه الأموال مع غيرها إلى استراليا مع رجل الأعمال الذي كان قد أدى الخدمة الإلزامية عند صهري والذي كان ضحيته مع الكثيرين من الضباط..

عيد ميلادك الثاني كان في الضيعة عند خالتك, تزامن حينها مع عيد الأضحى. احتفلنا هناك مع أولادها الثلاثة الذين أتت بهم إلى الدنيا خلال أقل من ثلاث سنوات, صورتك معهم.. تعترف بالحيرة والرفض لما كان ينتظرك.

ظهر رفضك وحيرتك بسؤالك: لماذا نحب أبي وهو لا يحبنا؟! سؤالك هذا تذكرته يوميا في السجن. كاد يمزقني في ذلك المكان: ترى كيف ستفسر غيابي الآن؟! فقد كبرت ولكنها مازالت طفلة.. بيتي الآن أشد بشاعة من تلك البيوت.. لن يجعله جميلا بعض النظافة.. بيتي يحرسه رجال غرباء, جدرانه العالية تمنع الحياة من الوصول إليه.. لا يمكنها دخوله.. ولا يمكنني أن أعدها بذلك, والأسوأ أنني لا يمكنني فيه إلا الانتظار.. انتظار قدومها لأقبل قدميها, فقد نسيت في ذلك اليوم أن أقبلهما وأنا في كل لحظة هنا أشتاق ذلك. ربما لأكفر عن ذنب بدأ توغله في لحظة كان مخططا لها مزيدا من التكبر على الأوجاع.

أتذكر سؤالك.. ولا أتذكر جوابي.. ربما كان جوابي غبيا أكثر من اللازم ولا يلزمني معرفته. كيف سيكون لدي جواب على قضية لا يمكن للأطفال أن يفهموها.. بل يصعب حتى على الكبار فهمها.. جعلناها مفهومة بتجاوز آلام الأحبة, أهلنا وأولادنا الذين عانوا بدون ذنب ولا إرادة, وطبيعية بتغذية أرواحنا ووجداننا بالحماس الذي ساعدنا على دفن بعض المشاعر الإنسانية في الأعماق الغائرة كي لا تؤرقنا..

دفعنا ثمن إيماننا المطلق بالحزب وشعاراته آلاما كبيرة, مثل كثيرين غيرنا سبقونا في التضحية بحياتهم, أعطينا مثل عطائهم, عناوين لبطولة

يحتاجها أي مجتمع ليدافع عن وجوده. لكنها بقيت عناوينا زال جزء كبير منها مع تغير الظروف التي تلونت بها, إنني أنتمي إلى عداد الذين حاولوا شق الدروب ولم يصلوا.. وانتشروا بعيدا عما حملوه ونقلوه وقاتلوا من أجله, لا أريد الدخول في تفاصيل الابتعاد لأبقى مع الذكريات وحواراتنا التي أكملتها وحدي, حوارات أوصلتني إلى مخاوفي التي تحاول اغتيالي.

قلت لي: بيته بشع ونحن نذهب إليه, بيتنا نظيف وجميل وهو لا يعيش معنا فيه. كان ذلك حيرة طفلة عمرها سنتان. عرفت أن والدها اختار بيوت الأصدقاء, دون أن تستوعب آلية اتخاذ القرارات لمن هم في وضعنا, ما رأيها بعد سنتين عندما غادرت البيت إلى غير رجعة وإلى مكان لا يمكنها أن تزوره حتى؟ في بيت يشبه الحكايات التي تركتها لها, بيت حديدان, جدة ليلى, غرفة سندريلا ..

لم تفهم طفلة بالكاد تبلغ ربيعها الثاني غياب والدها الذي تحبه وتحتاجهّ!

ولم تكتف بلقائها به في بيوت تملؤها الفوضى!

كل مرة نلتقي به في بيت لا تحبينه, بدوري شعرت بالغربة والضجر في كثير من البيوت.. البيت الوحيد المريح لكلينا, بيت استطاع أن يحررنا من أثقال الملل والروتين والتردد بامتلائه بالحياة والصخب والفرح الذي ينعش الرغبات.... كنت موضع اهتمام الجميع بجدارة من يستحق, حيث تمكنت من المشاركة في نقاش ملف الوضع الاقتصادي وأزمة المعيشة الكبيرة في منتصف الثمانينات.. للأسف المرة الثانية في هذا البيت, كانت الأخيرة لأن والدك سيذهب إلى قيادة منظمة أخرى في الشمال..

تنتهي الأشياء المريحة بسرعة إن كنا لا نتحكم بمصيرنا, فلا مجال للتعود وطلب المزيد.. تخشى أن نتمسك بها لأنها تعلم أنه لا يمكننا الدفاع عنها.

السرعة في تبدل الظروف تجعلنا نقبل بالأسوأ من دون أي تدخل

شخصي.. وتجعل القادم يحمل أعباء من الماضي.. اللحاق بالطوارئ دون توقف لمعالجة ما يلزم غمسنا به الأيام فمر الزمن من وراءنا ولن ندرك كم تركنا فينا لولا شدة الصرخات التي استقرت دون مقاومة, وكثرة الأيدي التي نحتاجها لعبور ما بقي لنا من العمر.

ابتعد والدك, وتعقدت الحكاية, لم تعد المشكلة في البيوت ونظافتها. بل أصبحت في الوصول إليه في مدينة أجهلها, رغم أهميتها, والخوف المرافق. ربما كان هناك عبرة في المزيد من الخوف والقلق وتشتت الروح الذي كان ولكن لم أناقش ذلك في حينها. شدة الحصار وضيق حال الحزب أبعدت والدك ولكنني لم أقف عند اقتراب احتمال ابتعادي القسري عنك ولم أدخل في العلاقة بين انتمائي الطبيعي وانتمائي السياسي.

كنت أيضا معرضة للغياب, لكنني عطلت تفكيري بما سيحل لك.. ساعدني الجيش الذي أنا فيه في استسهال الصعب بكل درجاته, وساعدتني فراغاتي في استقبال كل جديد في حينه بغض النظر عن إرادتي أو قياس قدرتي في التحكم والتحمل وكأن رسالتي إليك تحقيق الأماني الكبيرة!!

لو وضعت نفسي حينها, قبل أكثر من عشرين سنة, في المسافة الصحيحة بيني وأمومتي وبين الأشياء والقرارات التي قلما فكرت فيها وبنتائجها. لاخترت أن أتمسك بأمومتي وأوفق بينها وبين حياة المغامرة التي كلفتني ألما يشتد حين ألمح آثاره على من لم يكن له ذنب.

وقبل مزيد من الاسترسال في وفاء الدين أسأل ما هي الخيارات التي كانت بيدي؟

أحدها أن أكون إلى جانبك فات أوانه بعد دخولي في التخفي.. لم يكن لي أن أنفذه في تلك الأيام التي وصلت بها المواجهة مع الحزب إلى أقصى حالاتها, مع قرار تصفيته, فقد توسعت دائرة الاعتقال لتطال حتى الأصدقاء.. حوا المعتقل نساء ليست لهن علاقة مباشرة بالحزب, ولم

يشفع للبعض منهن وجود الأولاد.. كما أن العديد من النساء اعتقلن رهينات عن أزواجهن, وبقين بعد اعتقالهم, وبالرغم أن لبعضهن أطفالا" حديثي الولادة..

بكل الأحوال لم يتبق لي مجال لنقاش إمكانية بقائي إلى جانبك ولم يكن لي من طريق إلا دفاعي عن مبادئ كنت متمسكة بها, واستعدادي لدفع أقصى التضحيات , وكان لابد من خذلانك فأنا أعلم حاجتك للأمان, وأعلم أنني أكثر إنسان يستطيع منحك إياه.. حضن الأمان سيتخلى عن مهمته للأسف, وللأسف سندفع الثمن معا بوجع الحرمان.

خذلانك أتى لاحقا لوقوعي قبل أربع سنوات عندما لونت حياتي بأجمل الألوان بين المطرقة والسندان.. أما المطرقة فهي آلة القمع التي وضعتني هدفا, لا لشيء إلا انخراطي في تجربة أفرزها الواقع أرعبتها رغم صغرها, رأت فيها ردا على الظلم الذي كانت تحرسه..

والسندان, أولئك الذين سرت معهم باستسلام .. معزولة من كل إمكانية للتميز والرغبات الخاصة، رميت أسلحتي الطبيعية وصرت جنديا ليس مؤهلا لحسم المعركة.. منعت نفسي عما أريد بعد قدومك من أجل أن أجنب نفسي إحراجا من ملاحظات متوقعة لا أستطيع مجابهتها بعد أن أصبحت معزولة.

دائما أسأل حالي كيف لي فتح صفحات الروح من غير رائحة العفونة والجروح؟ هل ستبقى حاجتي لعكاز التبرير والتفسير في البحث عن السعادة التي أنشدها, أم سأستلم للمسافات التي خلقتها أشواك الماضي.

ويلح السؤال عندما ألاحظ ما تخبئينه ولا ترغبين في الاعتراف فيه.

تبنى الحواجز مع التمسك بالخوف من المواجهة, ومن الممكن أن يبتعد المرء بذلك عن أقرب الناس إليه, والخطأ هو الاستمرار في الابتعاد, إذ يصل إلى طريق مسدود في أحسن الأحوال.. والأخطر حين يدخل مجانا في مواجهات تحفر أخاديد ومتاهات في القلوب الجريحة.. قلوب جرحت

في معارك لم تتحقق بإرادتها ولا بإدارتها.. قلوب تنتظر من يداويها وهيهات.. يداويها من آلام الزمن الذي مضى والزمن الذي يمضي وكأنه لم يكن.

أحاول أن أنسى نظرة اللوم والعتب التي تشكلت في ذلك اليوم.. ذلك اليوم الذي لم يكن عاديا.. في تلك اللحظة الاستثنائية التي غبت فيها عنك, انتزعتك من حضني وأهديتك لمجهول اسمه الزمن, وأنا في أشد اللحظات غيابا عني لأنني لم أترك لنفسي أي خيارات أخرى. في تلك اللحظة حيث استسلمت لقرار التخفي, وتركتك بدون أن أناقش الأمر. بالأحرى لم يكن النقاش مفيدا.. كانت روحي تلمع عكازها على الفراغ عندما ضحكت عليك بهدية وأرسلتك مع البريد الحزبي ليوصلك إلى أحد الأقارب في العاصمة.. وعدتك أنني لن أتأخر.. لكنني تأخرت أكثر من اللازم. كنت عندي في زيارة وأنا في وضع التخفي, كم تمنيت أن تبقي معي, لكنني كنت عاجزة عن حمايتك.. فعلا لم يمض يومان على سفرك حتى جاء القرار بإخلاء البيت..

كنت معي في البيت الأول لي هناك, في أيام التخفي الأولى, أرسلتك إلى البحر خشية من ضربة أمنية تربكنا, بعد يومين أخلينا البيت بسبب اعتقال مفاجئ لأحد النزلاء الأساسيين.

بعد أشهر كانت زيارتك الثانية, زيارة استمرت حوالي الأسبوعين, وقبل أن يعزف العشق أغنيته جاء القرار بسفر والدك إلى العاصمة, وذهابك أنت إلى المجهول قبل عيد ميلادك الرابع بيومين, أرسلت معك الهدية وحملتك ذلك العبء.. بتحمل المسؤولية وقبول العيش بدون أم وأب.

كان ذلك هو اللقاء الأخير لنا.. حتى زيارتك الأولى لي في سجن دوما, كان مرّ على ذلك اليوم أكثر من ثلاث سنوات.. إذن وعدي كان كاذبا, تحملت ما لا تستطيع الورود أن تتحمله, وتحملت أنا ما لا تستطيع الجبال أن تحتمله, اغتصبت آلة القمع أمومتي ووضعت مكانه شعور لم يفارقني

حتى هذه اللحظة.. شعور بالذنب تغلب على الأهداف السامية التي جعلتني أتحمل الحرمان من الأمومة.

ترى هل تستطيع الطفلة التي أصبحت امرأة أن تنسى معاناتها من لعب الكبار وسخريتهم من براءتها؟! اعتمدوا على الزمن في حل المشاكل التي خلفوها.. زمن لا ينصف إلا أحيانا قليلة.. زمن اتكأنا عليه ولم نلاحظ عجزه عن رؤية دموعنا وصدقنا في أحلامنا وحرقة قلوبنا على آمالنا عندما ضاعت, لم يقدم ما انتظرناه من حلول لمشاكلنا الخاصة والعامة التي تركناها.

بل انتظرتنا تلك المشاكل لنبدأ في حلها بعد فوات الأوان للأسف.. وبعد فوات الأوان ينتظرنا غالبا العجز والآه.. وأشهد أن أصعب النتائج تكون في التخلي عن رعاية زرعنا الخاص.

أشد ما يرضيني في هذه الدنيا, تلك العلاقة الحميمة التي عشتها مع أمي.. الذي لم يضر بها اختلاف وجهات النظر والاختلاف في السلوك.. كنا نسيج واحد يجمعنا كل شيء رغم اختلافنا.. جوهرنا واحد يلفنا الحب الكبير الذي لا يمكن أن تتخلله الغيرة.. حب يساعد على تعمير الكون, فكيف بمد الحياة للبيت الذي جمعنا؟

بيتنا الآن يشكو من الصمت.. وكما تضيق الأرض على الأحلام الكبيرة, يضيق البيت على الأحلام الجميلة, تجتمع كل الأحاسيس السلبية والإيجابية في لحظة واحدة فأتعب.. أتخلص من كل هذه المتاعب بالهرب إلى الأمام, تهرب متاعبي أمامي, تنتظر سرا, وتعود عند أدنى درجات القهر فتؤلم كل خلية في جسدي. أبحث عنك كصديقة نتعرف على خلافاتنا بالحب. فيلاحقني ضجيج السماء والأرض وأفقد صوتي الذي أعرفه وأحبه.. ويزورني الندم مع تأنيب الضمير, أرتجف خوفا وألوذ بالصمت الذي أكرهه..

لماذا يتوجب علي أن أرى الحياة أسهل مع الصمت حيث أعيش؟! لعل

العيب فيّ!! ولعله مفروض علي..

بدأت الكتابة بدون مقدمات وبدون حساب للنتائج, لعل آلامي هي التي خطت.. آلامي هذه لا أشعر بها دائما... ولكنها وظلالها مرسومة شئت أم أبيت في كل حواسي تستطيع بدون إذن مني أن تخرج. لا أعرف متى بدأت فعلها.. لكنها فعلت ومازالت وتعرف كيف تنبش في تفاصيل المرارة.. لتعبر عن جانب مهم لن أستطيع تجاوزه. أدركت ذلك الآن وقررت أن أدعها تعبر إلى الآخرين مع بعض التجميل إن اقتضى الأمر, أعرف أن البعض سيسخر منها, والبعض سيتألم و.. لكنها بعد تحولها إلى عبارات لا أعتقد أنني سأتخلى عنها..

غدا ربما تتغيرين.. يتغير الآخرون, وأتغير أنا, لكن هذا لن يمنع من تسجيلي لمشاعر أعيشها الآن, لا أخافها ولا أخشى من نثرها مع أمنياتي بالموضوعية وإضاءتها لبعض المستور من غير مبرر.. ربما سيفاجأ البعض بهذه الاعترافات واعترافات قادمة, ولعل آخرين يرون فيها تجنيا على ظاهرة العمل السياسي, وربما سيقرع البعض طبول الخوف على كفاحية من تخول له نفسه المشاركة في النشاط السياسي الذي مازال مقننا.. ربما, لكن ماذا أفعل إن كانت روحي تنتشر على الشكل الذي فعلت؟!.ماذا أفعل إن أصبحت نفسي أكثر من اللازم؟..

كنت من الأشخاص الذين تصنعهم ردود الفعل, أي المواقف السلبية, بل المستلبة لمن أحب وأحترم... وكانت قيادة الحزب في تلك المساحة المنزهة عن الأخطاء بالنسبة لي.. لم يعلمني المشاكسون شيئا.. خاصة أولئك الذين يدافعون ليهاجموا, يستخدمون كل الوسائل حتى السوقية منها للعزف على أخطاء القيادة.. بل كنت أرى سلبياتهم هم. احتجت أن أمر بذلك الشوك لأرى بعض المستور.. الآن أستطيع أن أرى بوضوح سلبيات كانت موجودة, قبل أن أنتمي للحزب واستمرت أثناء وجودي.. ولكنني كنت مبهورة بهم وببطولاتهم لدرجة نسيت أن أرى نفسي بينهم...

لعلي كنت النموذج الذي تبحث عنه القيادة.. يصل إليهم ويمد يده لهم فينسون وجوده.. فيغدو مع الكثيرين جموعا مستكينة تعمل على عزف متفرد نوتته الموسيقية حصار حالة الطوارئ المرافقة لوجود الحزب, وقرار التصفية الذي يلاحقه, ينتظر معهم زمنا يكون فيه كل منهم ممثلا بقي افتراضا.. بالمحصلة فقد أعاد الحزب, قيادته, إنتاج أدواته بالمبررات الكافية للضعف الذي رأيناه في المحك. وتحول في الكثير من المعابر إلى رموزه في القيادات.. بقي للآخرين حق الاختلاف في التفاصيل التي تتغير.. أمثالي تحولوا لبشر يرغبون في البقاء في الظل.. اختصرت العمل لتحقيق شخصية مميزة بالانتماء للحزب والولاء للقيادة.. لم يكن يخطر لي أن غايتي ستنتهي هنا ولكن ذلك ما حصل.. الآن دخلت في أصعب معادلة: معادلة يستحيل عرضها دون تبسيطها.. وهي ستصل أسهل لأولئك الذين عاشوا التجربة معي.. وعاشوا في تجارب مشابهة. أما الآخرون الذين يجهلون أو الذين لم يروا فأطلب منهم التقاط أنفاسهم كلما تعثروا في ملاحقة ما أريد.. وأطمئنهم أن العيب ليس فيهم, بقدر ما هو خبرتي الضعيفة في التعبير, فليعذروني. بعد سنين أدركت أنه لو أنني راكمت خبرة في موازنة الأمور, ومنحت ثقتي, ولكن ليس بالمطلق للذين سرت معهم وانتميت إليهم .. لكان ذلك أفضل لي ولهم ولك, حيث سأتخذ شكلي الملائم لي في تلك الأيام, وأصل إلى قناعاتي المتواضعة التي تتجاوب مع الأولويات التي تخصني.. وكنت دفعت الثمن بآلام أقل ومن دون أسف.. بآلام يستطيع الزمن أن يمحيها.

الفصل الثالث

آلام البارحة واليوم

في زمن العلنية, عندما ينتهي العمل السري, ويتعرف المرء على الآخرين, كما هم على حقيقتهم, بعيدا عن كل الستائر التي تخفي الكثير. عندما يتعرف المرء على نفسه أكثر, ويدرك ذاته ومدى قربها أو ابتعادها, شبهها واختلافها, يتعرف على شكله الذي يحب, ويدرك ما يميزه عن الآخرين أو ما يميز الآخرين عنه.. يرى ذلك الخيط الرفيع الذي يفصله عنهم.. خيط جعلهم يظهرون قدراتهم بأكبر من حجمها.. وجعل قدراته تظهر بأقل من حجمها, مكنهم من تحقيق نجومية ربما يتحسر عليها.. يلمس أنهم أخذوا شيئا من الثمن لتضحياتهم وهو لا.. ما نراه من استعراضات للبعض على قلتهم ولد هناك غالبا في دوائر التخفي والعمل السري الذي أعطى البعض حقوقا" أوسع, وآخرين حقوقا" أضيق. ولدت الازدواجية المرضية التي كانت منسجمة وطبيعة البشر هناك.. كبر البعض وآخرين لم يكبروا وبقيت ذات المعايير في هذا الزمن.. ومع نمو قناعة كثيرين حول أهمية دور الخارج في التغيير المرتقب, أخذ ينتعش من جديد دور القيادات في العمل السري إلى حانب قوى جديدة ظهرجزء منها كرد فعل طبيعي وجزء آخر لغايات مرسومة .. كل ذلك يتم متوافقا مع حسابات التسويق التي تديرها غرف عمليات في الداخل والخارج لا يخفى على أحد طرق تشكيلها. تجذب أصحاب

الأصوات العالية التي اعتادت الحضور.. ليتم تسويقهم كممثلين جديرين بشرف المعارضة.. يتسابقون لحضور المؤتمرات بغض النظر عن الجدوى والأهداف, يتكلمون إن لزم الأمر باسم الآخرين الغائبين كمعارضة. الآخرين الذين سيبقون ضميرا غائبا..

هم, هم كانوا, هم أصبحت لهم همومهم وأصبحت لهم رؤاهم ولكنهم يعيشون بدون مكافآت.. بعضهم راضين بفعل تحقيقهم لكيانهم الخاص.. وبعضهم لا.. أما محك فرز الكفاءات والنوايا المتعلقة بخلق مجتمع عادل... فهذا ينتظر معاييره في زمن لا يحتاج الاستعراض الحالي.

كان في القيادة.. كان في قمة حماسه عندما دخل المعتقل.. توقع أنّه إن غاب إلى الأبد فهناك من لن ينساه من الرفاق. كانت ثقته بهم لا تقل عن ثقته بنفسه.. أعتقد أنه إن أفاق الآن بمعجزة ما سيرى الصورة وما فيها من ضياع لقيم أيامه, قبل رحيله.. سيرى الأصبغة الجديدة التي تخفي عيوب الإحباط..

رحل وحيدا لم يودعه أحد من الأهل ومن الرفاق.. أسف عليه الجميع في تلك الأيام.. عبروا عن أسفهم وحزنهم في المعتقل.. عمل الذين بقوا في الحرية من أجل التعرف على مصيره.. كان مصيره غريبا.. غياب مغطى بخداع السلطة الذي لا ينتهي.. أخفت الأجهزة الأمنية جريمتها بالإنكار.. رحل بدون برقيات تعزية من الذين لا يستطيعون الحضور وكنا جميعا في نفس الموقف.. رحل بدون جنازة تليق به.. رحل يحمل معه عشقه لقضية عادلة, لا يقلل من عدالتها الأخطاء التي رافقتها.. لم يعرف أحدا حجم الألم الذي رافق مفارقته للحياة. كان مازال صغيرا على أن يتمنى الموت.. رحل وهو مازال يتحسس للجمال والفرح في كل شيء.. بضحكته التي طالما دلت عليه, اعتقدنا أنه لا يمكن لأحد أن يهزمها.. كذبنا ذلك الموت اللعين.

أشعر بالرهبة من المضي في الكتابة.. قبل البدء كنت أرى أنني غير

كفء لهذا العمل الذي يحتاج موهبة أدبية متميزة.. وقد حاولت الكتابة أكثر من مرة, وكل مرة أجد أن الجرح في داخلي كبير, وأن ذكريات تأتيني بدون إذن تجلب لي مزيدا من الآلام التي أنا في غنى عنها. الآن, ورغم الرهبة, تتملكني الرغبة في الاستمرار بغض النظر عن النتائج, سأكتب كل ما يدور في ذهني.. سأقطع دروبا مليئة بالحفر اعتقدت أنني لن أعود إليها, سيرافقني فيها الآلام وآثارها. آلام مضت.. لكنها تمزقني ضعفا وعجزا. من شدة خوفي يزورني التردد واحتمال التوقف عما بدأته. وأشحن نفسي بضرورة الاستمرار..

أعود للكتابة من جديد بعد قراءة ما دونت على مدار أيام معدودة بإصرار ورغبة وخوف, وبعد نقاشها مع أحد الأصدقاء الذين اخترتهم لقراءة ما كتبت.. أكتب وأنا أتلمس تلك المرارة التي جعلت فنانا كبيرا يرى تلك الكمية من الحزن في عيوني, قرأ ذلك وأنا في تلك الرحلة إلى مصر.. قالها متسائلا .. وبدوري أرى أن ذلك الحزن الذي حفر عميقا في ذلك اليوم.

في السابق, ومن زحمة الأفكار التي كانت تراودني وخاصة قبل النوم.. تمنيت أن يجري لي, ما جرى مع "مليكة أوفقير" أتحدث لروائي ليكتب عن قصة أعتقد أنها ليست عادية أخذت قوامها من آلام البشر التي تبنيتها ومن التحطم الذي طال روحي الإنسانية ..المهم أن البحث لم يسعفني بتجربة مشابهة.. وربما لم أبحث بما فيه الكفاية لأجد نفسي على هذا الطريق الذي بدأته عفويا لحوار مع الورقة صديقتي الوحيدة في تلك اللحظة, مررت فيه لرغبة في المزيد من تصفح الماضي, أكملته بعد التشجيع الذي نلته بعد قراءته لخربشاتي التي لم أكن أعرها أهمية .. عندما بدأت, قلت سأستمر, ولن أقرأ ما كتبت, ولم أفعل, حتى أتمكن من المضي قدما في حكاية تجربة شخصية غالبا, لا يعني ذلك مرور كل أحداثها من أمامي.. فهناك ما أتى بالنقل.. قلت أن محاولاتي السابقة

مزقتها عندما قرأت روحي على الورق, ورأيت الأحزان التي لا أعرف السيطرة عليها, مزقتها مرات ومرات.. بدأت مع الزمن أرى أن تلك الكتابات علمتني الصدق, ومكنتني من اكتشاف تميزي بسلبياته وإيجابياته.. تميز من يجعل إحساسه هو الذي يتكلم.. تميز من لا يستخدم محاكمته العقلية ليكتشف مقدار ابتعاده عن نفسه وليكون حصاده الإحباطات وما يرافقها من مرارة..

الفصل الرابع

استيقاظ بطيء جدا

أين ابتدأت القصة؟ أين ابتدأ تكوني؟ متى؟ لماذا بدأت فجأة أفكر بتأن لأناقش كل الماضي الذي شكّلني وأعاد تشكيلي أكثر من مرة بنفس الطريقة؟
ابتدأت التفكير عند خروجي مع اللهب الذي بداخلي من شبكة العنكبوت..خرجت مغلفة بأوراق الملفوف التي اعتقدت أنها تحميني.. أوراق تداخلت مع الأوراق القديمة, خرجت بعد التحرق للخروج الذي سأتكلم عنه, لكن بدون أي شعور له علاقة بالفرح أو النشوة.. خرجت بعد خمس سنوات من الغياب عن روحي: ابنتي وكياني: أهلي. سنة في حلب, بدأت بالتعرف على الأشياء بنظرة فيها شيء من التجديد.. ولكنه شيء كمي وليس نوعيا. لم يكن ذلك كافيا للخروج بي كلية من ثنايا الاستلاب الملتبس.. ابتعدت قليلا عن التسليم بكل ما يأتي من فوق, وظلت معرفتي مجبولة بذات العماء الذي تحدثت عنه بعض الشيء وسأتحدث المزيد.. وبدون مقاومة تخليت عن إرادتي بما يهدد بالذوبان والشعور بالانقطاع عن النضج الشخصي الذي تقتضيه التجارب في الحياة, مازالت هذه العادة ترافقني حتى اليوم, وربما حتى ينتهي حظي في الوجود..
أصبحت معارضة بشكل محايد غير قابل للتبلور, كأنه نوع من الجنون يصيب أمثالي من البشر.. بشر يعرفون التضحية.. يضحون حتى بخلايا

الروح والعقل ويتساءلون بعد فوات الأوان.. وأحيانا يندمون.. انه الجنون.. ولماذا أبحث له عن اسم آخر؟ فإما أن أكون مثل أمي: أضحي ولا أندم.. وإما مثل أبي أضحي بمزاجي, وبما يناسبني ويناسب ذاتي التي تسمو إلى التطور.. رحم الله الاثنين.

سنة في حلب, علمتني أنني لو وثقت بنفسي وإمكانياتي لكان لي دور مختلف. أو لكنت هناك في عملي ومع ابنتي, وربما في منزل يليق بي أتلمس الدرب إلى حياتي أنا, كان هناك طريق مفتوح على نجمة تحثني للتعرف أكثر على نفسي بعد سنوات من الركض والانشغال بعيدا عني..

دفعتني لفتح أوراق مهملة مخبأة بدون حراس, وذلك عندما كنت في زيارته في حلب في أيلول 1986. ذهبت بإجازة من عملي لمدة أسبوع.. أعددت نفسي لقضاء وقت طويل نسبيا معه.. حيث كانت حياتنا المشتركة تقتصر على يوم في الشهر, أو سهرة في مناسبة. في الليلة الثانية للزيارة, التي كادت أن تكون الليلة الأخيرة.. أعد احتفالا" مصغرا" على طريقته.. شموع.. ومشروب.. تحت عين السماء التي ساعدتنا بنجومها وقمرها.. كانت ليلة من أجمل ليالي الخريف.. في مكان يخلو من أي صوت لا نرغبه, وكأن ذلك يحدث لأول مرة بعد زواجنا.

طاب لنا الكلام. بعد أكثر من سنتين من غيابه عن البيت, لم يجر بها أي حديث له علاقة بحياتنا التي يفترض أن تكون مشتركة بظروف استثنائية, حياتنا الافتراضية التي لم نحاول فهمها, لم نناقش كم من الحقوق نهدر وكم من الأيام تمر من وراءنا, وكم..؟! كان يعرف الكثير مما أعاني, لكنه لم يترك أثرا في الانشغال بمعاناتي.. حتى من باب الفضول.. كان هناك استقلال يصل حد الانفصال.. ترك الأمر كله لي وللزمن, ربما مرغما.. وربما كان يعرف طبيعتي المسالمة التي توقظني إلى نفسي في الوقت المناسب.. فلا أفتح بابا يحتاج إغلاقه إلى تدخل منه.. لم يكن هناك خلافات جوهرية بيني وبينهم, لكن لم يكن هناك

انسجاما كافيا لخلق سعادة نرجوها من وجودنا.. كنت أضيق بالعديد من الأشياء بدون مكاشفة مع أحد أو من أحد. أحيانا يشعر المرء بالضيق من أهله, والفرق أنه يعرف كيف يجد المتنفس للخروج. أردت بعث الروح في حياة خاملة لا تسر أي منا لكن وجدت الوقت غير مناسب.

تركنا ثلاثة مع ضيف دائم والصغيرة التي كبرت على غفلة منا جميعا, يلفنا صمت رهيب.. غيرنا البيت مرتين ولم يسأل عن الصعوبات والأحزان التي رافقت ذلك.. وكأنه في غمرة انشغاله بالعمل الحزبي نسي البيت ومن فيه.. ربما اعتقد أنه ترك بشرا" من الصلابة بحيث أنهم لو نطحوا الصخر كسروه.. لو أرادوا مسك النجوم استطاعوا.. كان في الصدر شيء حول هذا الموضوع وغيره و لم يكن هناك جرأة لفتح كهف الأحزان الذي بدأ فعله بدون إعلان ولا استئذان.. تغور الغصة في الحلق ونصمت.

في حلب في تلك الليلة الخاصة, خطر ببالي أن أعاتبه, أن أطالبه ببعض الاهتمام, أن أحدثه بأسباب الصمت الذي أنا فيه, عله يساعدني في الخروج إن كان لديه ما يقدمه.. وأتردد.. كي لا أكسر حالة أعتقد أنني وصلت إليها صدفة, ولن أخدشها بسبب المناسبة, عيد ميلادي, فجأة, سألني عن رأيي بالعلاقات العابرة, ولأنني مثقفة وحرة وجديدة وأريد تغيير المجتمع!!! فمن المنطقي, كما افترضت, أن أكون مع العلاقات العابرة بدون أي نقاش. في الحقيقة أجبته بدون أدنى تفكير, بل بابتسامة لا تتناسب مع الصعوبات التي أعيشها.. اطمأن لجوابي.. اعترف لي بأنه عاش مثل تلك العلاقة. أطلق مدفعه.. لم أتمكن من تلقي الضربة.. كما لم أستطع الهرب منها. وكيف أهرب؟

لم أسأله لماذا؟ متى؟ لم يخطر ببالي أي سؤال, تبخر عقلي وأتاني عجز من نوع جديد لم أفهمه.. كانت الصدمة كبيرة بما يكفي لنكء الجراح في أقل من الوقت الكافي لتداركها.. تبخر جمال الخريف.. تبخرت أحلام

تلك الليلة.. وزار كهف أحزاني حزن جديد ولون آخر للألم.. ولم يعد هناك مجال لتجميل البشع في حياتنا.. كنت على صلة بمشاكل العديد من الرفاق الملاحقين مع زوجاتهم.. ولكني لم أكن حتى تلك اللحظة قادرة على استيعاب تلك المنغصات في حياتي.

يتعرف المرء على نفسه في خضم الحياة العملية, نظريا, اعتقدت أنني مع هذه العلاقات, ولكني عمليا أرفضها. رفضتها ولم أجد ما يبررها, مازلت بنت البيئة التي تعترف بالإخلاص غير المشروط, ولا تعترف بإزالة قيود صنعتها آلاف السنين. في الحقيقة هذه الأفكار لا تناسب بشرا أرادوا تشكيل أسرة.. الأسرة تقتضي الإخلاص والمسؤولية. لو كانت قناعتي تامة بالجديد من الأفكار الذي قرأت عنها أو سمعت بها بما يتعلق بالحريات الفردية الإجتماعية لما تزوجت.. ولماذا أتزوج مواطنا" سيترك بيته في أقرب فرصة؟ يتركني وعلى يدي طفلة وحولي أناس طيبون ولكن لا أعرف التحدث معهم, إلا بلغة فاترة.

كان رصاص المدفع طائشا, أنهى الحالة الرومانسية التي انتظرناها طويلا.. وتحولت من مسالمة وباحثة عن الحب, إلى مقاتلة بأمنيات الخلاص والرحيل. قالت لي النجمة التي كانت ترافق سهرتنا: أن التغيير في الأفكار يكون سطحيا إن كانت استجابة لتقليد بعيد عن الروح.

الآن سأذهب إلى بيتي, الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل, الصغيرة نائمة, والقطار ينطلق إلى دمشق بعد نصف ساعة. لن ينقذني إلا السفر.. لم أعتد أن أتوحش في لحظة.. ولم أخضع نفسي لرد فعل عنيف قبل تلك اللحظة. ولم أعتد المواجهة في الدفاع عن نفسي.. كنت دائما أقبل الأمور لأنها حصلت وكفى, أستاء وأتضايق, ولكن لا أواجه.. أما الآن فردي كان لا يقبل المساومة, كان ألما جارحا لن أنساه أبدا"..

هكذا وجدتني في القطار. تسبقني دموعي, اختصرت إقامتي التي انتظرتها سنتين إلى يومين. في طريق العودة كنت أشعر بسخونة تلفني,

وبروحي تتقطع ألما, كنت قد اكتشفت للتو الخديعة التي اسمها سكون في حياتي.
بعد زواجي, لم تأخذني نظرة رجل باتجاه أنوثتي, في الحقيقة كنت أظلم نفسي, ليس بعدم الاهتمام بنظرة الرجل, ولكن باستغنائي عن وجود زوجي في حياتي.. اختصرت حياتي العاطفية إلى علاقتي بابنتي, لم أفكر بالأنثى في داخلي, برمجت نفسي للاستسلام لظرف استثنائي, متخلية عن معرفة إلى أين سأصل؟ ومضيت إلى الانغماس في إهمال للذات المغلف بخديعة اسمها:
مناضلة تترفع عن حاجاتها...
أعرف أنني ذاهبة إلى دمشق.. عازمة على الانفصال دفاعا عن كرامتي وحياتي المقبلة, اعترفت بما يجول في خاطري لإحدى الصديقات, كنا في عودتنا من لقاء حزبي, أتكلم وأبكي, تعاطفت معي.. ولكنها طلبت مني التريث. ربما تمكنت من وضع الأعذار.. وربما كان رد فعلي مبالغا فيه.. كنت مثالية, لم أتحمل اعترافه رغم أن ذلك ما كان يجب أن أتوقعه.. أتى اعترافه في لحظة صدق نادرا ما يمر المرء فيها, لم أعشها معه كثيرا, كلانا لم نعتد الكلام الجدي في الشؤون الخاصة, لم أتحمل واقع يعيشه وآخرون في عزلة عن المجتمع بحرية. قيود الأسرة والواجبات أصبحت وراءهم وهم في سن صغيرة, سن الشباب الحالم, والحامل لطاقات متنوعة. أحلام كبيرة وانفلات من كل القيود. ينظرون إلى فجر قادم.. تركوا قيودهم في بيوت تخلوا عن مسؤولياتهم فيها.. لم يخشوا في لحظة من خسارة شيء, تركوا نساءهم وأطفالهم وأمهاتهم. وكنت وغيري نتوقع أنهم تركوا عندنا مشاعرهم وحاجاتهم وغرائزهم.. افترضت ذلك ولم أشعر بما يخدش ثقتي فيه.
الآن فقط تذكرت أنني رأيت شال الصوف, الذي ألبسته إياه ليحميه من البرد, على كتف فتاة.. عرفته حينها من نقطة الزيت التي عليه, نقطة

زيت لم أستطع إزالتها,لأنني قدمته له بدون سابق قرار, وبعد تناول وجبة سببت في نقطة الزيت تلك.. وهي لم تحاول أيضا لأسباب خاصة بها أو بدون سبب, على الأغلب, لم يكن يزعجها الأمر.. أو أنها لا تملك صابونا يكفي لتنظيفه.. لم تكن تعرف أن نقطة الزيت تلك ستكون سببا لألم ممض شعرت به, تجاهلته في ذات اللحظة.. شعور لم أصدقه كعادتي حيث لا أعرف الاهتمام بالأمور الصغيرة, ولا أجري الحسابات على أرضية الشكوك. ربما كان هروبي من الاهتمام بهذه الأشياء الصغيرة أحد أهم أخطائي, فهي لها دلالاتها.. ربما تكون أشد وضوحا في رسم السلوك وطبيعة الشخص حتى.. والأهم من ذلك تلك الآثار الخطيرة التي ستتركها بسبب التخزين غير الواعي.

نحن في نهاية الأمر: سلوكنا الذي ينصاع للصغائر مهما ترفعنا.. عند نقاش, تلك الأمور الصغيرة, في حينها تكون المعالجة سهلة والصرخة المرافقة محتملة.. ولن تحتاج إلى البحث في ما وراء الأفق لتشعر بتلك الراحة التي تحتاجها إنسانيتك.

لم أناقش هذا الأمر معه, مثل غيره من الأمور التي ربما كانت أكثر أهمية, وأشد وضوحا. ذلك على الأرجح ما أوصلني إلى هذا الموقف الانفجاري, في زمان ومكان كنا قادرين على ترميم وإزالة كل الغبار الذي علق جسدينا وروحينا, أتذكر الشال.. بعد أكثر من سنتين التقيت مع امرأة الشال, وعرفتها رغم أنني حينها لمحتها فقط.. عرفني عليها الألم الذي استقر في أعماقي بدون أن أدرك ذلك.. لم أعتد تخزين صور أشخاص عابرين في حياتي.. لكن !! التقينا في المعتقل تأكدت أنها هي.. علمت أنها كانت ملاحقة سكنت معه في نفس البيت, لم أتجنبها.. لم أشعر بالمهانة التي أكلت روحي قبل أكثر من سنة, حيث كنت أعددت نفسي جيدا فيما بعد للخروج من مستنقع الأزمات.. مررت بتجارب علمتني أن الحياة أوسع من اختصارها بقيم جامدة..

وعندما أراد البوح بشيء يعذبه, تكون ذلك الشعور لدي باتساع المسافة بيننا.. لم يكن هناك متسع لتجميل ما حدث ولتقوية الجاذبية التي كانت موجودة في يوم ما. كان كل شيء يدعوني إلى الخروج.. إلى التمرد.. كان الألم الذي حاصرني كاف لخلخلة استسلام عشته بدون ألم.. غدت كل الألوان متشابهة, وأصبحت الأشياء بدون طعم, ودرجات الحرارة غير متفاوتة, فأمكن للزمن أن يستغفلني, ولم أدرك ما خسرت إلا عند الشعور بألم حجمه بحجم كل ما تناسيته.

شعرت بعد كل ما تذكرت وما خرج من سلة المحذوفات في صدري, أنني إن تركته لن أخسر الكثير, فأنا خسرته عندما ترك البيت, كان كل ما في البيت يرسل لي بإشارات لم أحاول فهمها حينها, عندما أعود من العمل أختنق فجأة. أحاول السيطرة وكبح انفعالاتي التي تسببها تلك الإشارات أنجح وأنا منهكة.. بغيابه كان للصمت في البيت طعم الموت. بدأت بالغياب الفعلي عن احتياجاتي منذ تلك اللحظة, قبلها أخضعت نفسي للعديد من الدورات التي تؤهل لقبول أشياء لا أرغبها.

كان الحل الأسهل بعد غيابه. ترك البيت.. والابتعاد عن تلك الإشارات وغيرها التي نشرت الحزن إثر مغادرته لأهمية دوره, فقد كان هو من يجمع الجميع, كنا نتبعثر بسرعة عند غيابه, وكنت المتضرر الأول, لأنني لم أكن قادرة على الخروج من قوقعتي, بل تعودت الدخول عميقا بها.. في الحقيقة غيابه ألحق الأذى بالجميع أيضا, أمه, التي تعرف كيف تخفي آلامها, تعرف مداراة تعبها عن أقرب الناس إليها.. هي تحملت من الظلم أكثر من اللازم, وما زالت, ومازال يسعدها سؤال صغير, على هاتف صغير..

إنها مشاكل تكبر تسيطر, تضغط لفترة, ثم تعالجها مساحات العواطف الأخرى, فمع الطفلة المدهشة التي باتت تتعلم بسرعة, وتتحدث بالعلم الذي تكسبه في الحضانة, كانت في عمر السنتين تتحدث عن الفصول,

تنشد, تغني مارسيل خليفة., كانت تسلية حقيقية في البيت, بدأت تأخذ دور الأب الغائب في خلق أحاديث مشتركة, كانت محورها, وكان ذلك يخفف من الوحشة التي سكنت قلوبنا في البيت. بوجودها أصبحت الصباحات أجمل, والأمسيات أكثر ألفة, ووطأة الأيام أخف. ومع العمل الوظيفي, والعمل الحزبي, رجعت الأيام إلى دائرتها, إلى موسيقاها المعتادة: هادئة ساكنة غبية. بدون آلام توجب التفكير بالقادم.

مع الزمن تآلفنا مع الجديد.. أخذت الحياة تواصل مسيرتها بدون تعرجات ملحوظة.. وعلى النسق والرتابة الكافية للتخلي عن التفكير بالتغيير.. بقي ذلك التمرد في الأعماق الذي سيظهر فقط عند اللسعات المؤلمة.. تمرد مغلف بحزن وألم.. خرج بعد أقل من شهر من قطع إجازتي..

خروج بعض المعتقلين من سجن المزة, ودعوتي إلى سهرة, لبيت الدعوة بفرح لا أعرف سببه, لعلها أتت في وقتها, ومن شخص أحترمه وأثق به.. ذهبت معه.. ورافقته في العودة.

كانت السهرة مختلفة بشكل واضح عن سهراتنا مع الرفاق التي كانت تتكرر نوعا ما, امتلأت السهرة ببهجة حقيقية, غناء متنوع فيه فيروز وأم كلثوم ووديع, فيها المجاملات وبعض الرسميات, فيها بشر من أعمار أكبر وأصغر, فيها الجو العائلي ومن يريد أن يكون له تميزه.. في سهراتنا ثمة تشابه كبير, تبدو ملامحنا واحدة, أعمارنا متقاربة, مزاجنا واحد, كان للقافلة فعلها الأكبر, حيث تعيد ترتيب الأمزجة بما يقتضي الاتفاق التام, الفروق بسيطة, هذا صاحب نكتة وذاك لا.. ماعدا ذلك, نضحك سويا, نغني سويا, ننعس في نفس اللحظة, لأن أحدا لن يعترف بالملل حتى لو شعر به, ننهي السهرة سوية. ننام غالبا جميعا في البيت الذي نسهر به.. غريب ذلك, لا أعرف إن كان ممتعا كفاية, ولكن السهرة, كانت التلوين الوحيد الذي يجمعنا خارج العمل الحزبي, بسبب سريته, بل كانت السهرة امتدادا لهذا العمل, نشرب أنخاب الغائبين في

المعتقلات. نتذكر من نعرف من الحزب.. بعضنا يقرأ رسائل الفخر والمديح لبعض القادة مرسلة من أناس لا نعرفهم فتشرئب أعناقنا, نشعر بأن المديح يطال الجميع, نشد أزر بعضنا البعض, نتجاهل الدموع المحبوسة مع الآهات, ننتهي من السهرة عندما يتعب الجميع.. ويتعب الجميع في نفس اللحظة..

هذه السهرة حملت الكثير من الاختلاف, طريقة الوصول اختلفت, ذهبنا إلى البيت بالسيارة وبعيون مفتوحة, وإلى حي راقي, وبيت جميل ومرتب أنيق ومريح.. فيه إشغال للمكان بمفروشات تدل على الرفاهية التي فقدنا التمتع بها.. كان كل شيء مرسوما" لتكون جميلة, وكان ذلك..

إلى بيوت سهراتنا كنا نذهب بأعين مغمضة بسبب السرية, وفي أشد الأحياء الشعبية فقرا, أغلب البيوت تمتلىء بالفوضى وتشتكي من قلة النظافة, والهواء المحبوس.. لم يكن في تلك البيوت طاولة كبيرة ولا مفروشات تلبي حاجتنا للراحة.. كنا نجلس على الأرض والطعام البسيط على الجرائد.. كنا نغرق بالألفة والراحة.. ورغم كل ما يحوطنا من سرية ومخاوف نشعر بكل الفرح الذي نستطيعه عند دخول البيت, نشرب مياه ملوثة بدون خوف, كان حبنا للحياة واندفاعنا لأفكارنا كاف للرضا والقبول بأي شيء.. الخوف يزول مع أول نخب.. نتحول من الضعف, الذي لا نشعر به أساسا, إلى القوة التي نحلم بها. يتسع المكان, ولا نشعر بالزمان.. نستشعر النصر القريب..

بعد السهرة المختلفة خرج الطير من القفص الاختياري.. وبدأت أجنحته بالبحث عن شيء جديد.. غذاء للروح أو الجسد.. لم أكن أعلم أن تحولا سيكون.. وسيكون أمامي خيار صعب.. كان هناك أسباب تتعلق بمشاعر تسكنني لم أكن أدركها. مع ذلك التحول, امتزج الألم بالفرح..الموت بالحياة, البلادة بالتفتح, السكينة بالمقاومة..نطقت الحياة تجديدها بسرعة وبنعومة مشتهاة, خرجت الأنثى مني ولم يكن ذلك ما أنتظر!!.

لبيت دعوته للسهرة من دون انتظار لأي مبادرة, في طريق العودة سمعت الهمس الجميل في أذني وبكل جسدي.. خرجت مرتبكة من زمن الملل, والدوران في انتظار بدون طائل لظروف أفضل, انزاح الثقل عن صدري قليلا, شعرت بجسدي, بدقات قلبي, وبالدم في رأسي, ساعة لن أنساها, وكأن قلبي يخفق لأول مرة, خرجت مشاعري من ثلاجتها, خرجت جثتي من كفنها بصدفة غريبة, بل أكثر غرابة من أسباب خيانته لي.. لا أعرف الأسباب هل هي الحاجة التي لا أنكر وجودها, أم من أجل رد الاعتبار بعد ذلك الاعتراف الذي خدش وجرح تلك الروابط التي عانت من الإهمال الذي زاد عن الحد..

لم أتحدث معه أو غيره في موضوع حاجتي للحنان, ترى هل كان يدرك أنني أعاني من العطش والإهانة التي لحقت بي؟ قالت أجسادنا ما أرادت قوله, قالت كلماتها بوضوح, ولم تفكر إن كان هناك جرح لمشاعر آخرين, لأنها لم تقصده, غسلت الخيانات التي كانت بحقي لاسترداد قليلا من فرحي ومرحي. قالته بسرعة وبصوت خافت, وبنفس السرعة بدأت عذابات الضمير, بدأ الخوف يرسل رائحته التي لا تقاوم, رائحة غريبة, تشل الحرية وتلقي بكل وسائل التمرد على المألوف في خانة النسيان والاستنكار.. أخذت الهواجس تحاصرني على مدار الساعة, وأدركت أنه لابد من حل.

مرة أخرى عدت للسكن في غربة عن روحي.. أعدت الضحية إلى مكانها المستقر.

كان يرسل رسائله عبر الحزب من حلب بتواتر يشتد, يعتذر, يستغرب, يأمل بإصلاح وترميم ما انكسر في داخلي, من مشاعر.. كنت كالجليد. أنا لا أنكر عمق المشاعر التي نحملها لبعضنا, لا أنكر ما يجمعنا, لكن الذعر الذي أصابني, كان أكبر من قدرتي على ممارسة الغفران لمن أحب. تحطمت سكينتي, وبدأت أرى أنني لا يمكن أن أعيش في حالة

طوارئ على طول العمر.

تأتي رسائله محملة بالأشواق والبارود, ولا أشم إلا رائحة البارود, وبقي الحال في الجليد حتى جاء القرار: سافري إلى حلب.

سافري إلى حلب, ليس من أجل أن أعيش مع زوجي, وإصلاح ما انكسر, ولا من أجل أن أقوم بدور حزبي ينتظرني هناك, ذلك سيكون تحصيل حاصل, بل لأنه لا يوجد متسع من المكان لي في دمشق, وضعي الأمني أصبح مشكوكا فيه, والمكان الأنسب حلب, هناك بيت يمكن أن يحتويني, وهناك حل.

وكأن رغبتي في حل وضعي المرتبك لن يكون إلا بهذا القرار, كان على الطير أن يعود مرة أخرى إلى القفص بعد أن اكتشف الخوف الذي ينتظره وهو حر بعض الشيء..

الفصل الخامس

تخفي بدون طلب انتساب

نعم جاهزة تماما للقبول, لأنني أرى ضرورة الهرب من قدر يلوح لي بالتمرد.. ذات التمرد الذي دفعني للزواج من شخص لم أكن أحمل المشاعر الكافية للتضحية بكل احتياجاتي, والدخول في حكاية ربما كانت أصغر أو أكبر من حاجتي.. للدخول في حكاية سأشعر فيها بالضيق والابتعاد عن روحي.. وأتخلى لاحقا عن حقوق امرأة مشت بأقصى سرعة وبإرادتها إلى مخاطر الركود والموت. لم تكن مشاعري ناضجة كافية تجاهه.. كان إنسان رائعا, وكنت قد تعبت من التردد في بناء حالة عاطفية مستقرة مع شاب. كنت دائما أشعر بالضيق من الشاب عندما يبوح لي بمشاعره, أو عندما أشعر بتعلقه بي, فارس الأحلام لم يكن في الطريق إلي, لقد أضل طريقه. خارج كل الحسابات, كان هو وكنت أنا جاهزة للقبول, لسبب رئيسي أثبت فيه لنفسي أنني أستطيع الاستقرار.. وأستطيع الاستسلام وتحمل الضغوطات التي سأعاني منها.

تبدأ الأمور معي بتلك الطريقة دائما.. تبدأ لأنني أكون جاهزة للقبول بأي شيء, وليس القبول بهذا الشيء بالذات.. لا يمكن للمرء أن يسعى إلى تضييق مساحة حريته إلى أكثر من الحد المطلوب إلا إذا كان مجنونا, كان تضييقا لا يفترضه الزواج بقدر ما افترضه الزواج بظروف حربية وما تبعه من نتائج تقترب به من وضع الضحية.. هكذا أعود وأتذكر جنوني وأنا أتخبط في أمواج أحمل نفسي فيها بصعوبة..

إذن كنت جاهزة لقبول قرار السفر إلى حلب, والبقاء هناك, والتخلي عن مغامرة في غنى عنها, في المقابل سأتخلى عن تربية ابنتي, وكان ذلك صحيح. دفعت الثمن غاليا, التضحية بمتعة حقيقية أشعر بها, لأكفر عن ذنب يلاحقني.. الوقت كان شتاء قاسيا, مع ذلك لم آخذ من الثياب كفاية.. ربما تعبيرا عن ترددي, ورغبتي بالعودة إلى حياتي الطبيعية.. أخذت تقريرا طبيا متمنية تخفيا احترازيا, بأمل أن لا يكون هناك اعتراف مباشر علي, أو ألا يكون الاعتراف كافيا لدخولي في التخفي والعزلة عن المجتمع, فربما لا يأخذ القمع طريقه إلى اعتقال النساء, ولكن من سيعرف؟!

لم تتحقق رغبتي, كان تخفيا مديدا رافقني حتى اعتقالي.. لأبدأ حياة جديدة بمعادلاتها وشروطها.. ودخلت في مزيد من الغياب عن نفسي..

بدأت حياتي معه ورفاق آخرين في شقة في الطابق الأخير من مبنى.. بناء غريب عن كل فنون العمارة.. إلا فن الإسكان للجميع وكيفما اتفق, شقة مرتفعة وسيئة التوزيع, كان المطبخ أول باب على اليسار.. غرف عديدة.. أما الحمام فلا أذكره نهائيا.. لقد عودتني الحياة السرية المزيد من عدم الاهتمام في تفاصيل الأشياء حتى لو كانت تحكم حياتي, وطريقة الوصول لها.. كما عودتني نسيان الأسماء أو عدم الاهتمام بها. لا يبقى إلا ما يدخل في الأحاسيس العميقة. التي تستطيع الذاكرة أن تخرجه في الإطار العام... تبقى تلك الانطباعات التي تفرض نفسها بدون تفكير..

كانت الشقة في حي شعبي حديث في أطراف حلب.. أجمل ما في الشقة: قربها من بياع المشبك الذي ذكرني بطفولتي حيث كانت الحلويات في قريتنا محدودة وكان منها المشبك,(تلك الأساور المصنوعة من السميد والطحين المقلي والمشرّب بالقطر) صنعت معه غراما لن ينتهي, أقاومه الآن حرصا على تخفيف الحريرات, كنت في البدء أستهدي به للوصول إلى البيت, بعدها أصبح الشراء منه عادة مرتبطة بنزولي إلى المواعيد.

كنا في البيت مجموعة كبيرة قابلة للتزايد.. الوضع الأمني في حلب ليس أفضل من دمشق بكثير, فالذي كان سببا في ملاحقتي عمل في منظمة حلب. وهو وصل من الضعف لدرجة تقديم معلومات للأمن تجعل الحزب في المصيدة في كل المحافظات. كل يوم زائر مؤقت لحين حصوله على السكن المناسب. من الطرائف التي حصلت هناك وعلى مبدأ شر البلية, أن إحدى الرفيقات زارت البيت مع طفلها ابن السنوات الخمس, كان مطلوبا منه مثل الكبار أن يغير اسمه, وعلى ما يبدو أنه يحب اسمه, ويعاند تغييره, اتفقوا معه على اسم عبدو, وكان مضر يغني للاسم الجديد عازفا على العود, دو ري مي دو حبيب عبدو, والولد يرفض, يحبس غضبه في صدره حتى لم يعد يحتمل فصرخ بأعلى صوته باسمه الثلاثي. طبعا كان الموقف حينها يعبر عن طفولتنا في تحقيق رغباتنا في السرية.. ودور أطفالنا الذين هم جزء منا, في الرد على أوجاع هذه السرية المستحيلة.. انتهى لم يكن مستعدا للتخفي, على عكس ابنتي التي قبلت بالتخفي فورا, وأصبح لديها الاستعداد لتغير في لحظة أسماء كل الذين تعرفهم, اختارت اسم خولة برغبة, حيث كانت معجبة بخولة بنت الأزور بعد أن قرأت لها قصتها, وقبلت أن يكون اسم والدها وليد, أما باقي أفراد العائلة فكانت تستطيع تغيير أسماءهم بسهولة مدهشة.

يختلف البشر في الطفولة. ويختلفون وهم كبار بحسب قدرتهم على التكيف. وهذا التكيف يمكن أن يكون له وجعه في الكذب على النفس ومزيد منه.

كان يعيش معنا أحد قياديي المنظمة, استغرب أن أكون سمراء ولست طويلة وزوجة قيادي في الحزب؟! كان يتوقع أن أكون أجمل, وصلني تعليقه ورد مضر حيث قال له: إنها تستطيع أن تقوم بكل شيء مطلوب منها فأين المشكلة؟!

المشكلة هي في التفكير المتخلف الذي يرافقنا بما يتعلق بوضع المرأة, حتى وان كنا نرفع شعارات كبيرة, تبقى مقاييس البعض هي مقاييس أجدادهم...

كيف سنغير مجتمع إذا كنا نعجز نحن أن نتغير؟ تلك الأمراض التي ورثناها نحتاج التخلص منها وبجدية أكبر عند الطليعة, وبإصرار لدى القياديين منهم, الوعي لا يتجزأ لمن يريد السير حتى الوصول, استغربت بشدة تعبيره الذي يدل على تلك النظرة التقليدية البغيضة للمرأة والتي تتلخص بالنظر لها كخادم وشكل يتناسب مع مستوى الرجل, لا شخصا قادرا على العطاء, وتحمل أكبر المسؤوليات, كيف تكون في حزب ثوري وتنظر إلى المرأة كسلعة, و بماذا يختلف هذا الرفيق القيادي عن أي رجل متخلف في مجتمعاتنا؟ رجل في قيادة الحزب يجب أن تكون زوجته طويلة وشقراء!!. لا يهم ذكاؤها أو حضورها أو قدرتها على التضحية أو مدى مساهمتها في العمل السياسي..

كنت أعتقد أنه المتخلف الوحيد في الحزب, لكن للأسف ستكشف التحقيقات, والحياة العلنية لاحقا.. أن هناك الكثير من التخلف عند الكثيرين. تخلف يظهر بأشكال مختلفة.. أشعر بها, في الزوايا المظلمة.. في النور... في أحاديث الأصدقاء والمحيط. في الماضي كان الإناء ينضح بما فيه, وكنت لا أرى. الآن بدأت العصابة تزول شيئا فشيئا وأرى ما بداخل الإناء.

أخذت علاقتي بمضر تتحسن بعد إقامتي في حلب, كرهت التعامل مع ذلك القيادي, ربما ردا على طريقة تفكيره.. وربما تعبيرا عن الشعور بالإهانة.. وربما تعبيرا عن كبتي لمشاعر سلبية لأفكاره وشخصه.. كنت مازلت في مرحلة انشغالي بآراء الآخرين, تصنعني تلك الآراء وتعيد تكويني.. كانت وعودي لنفسي هي وعودهم.. وكان رأيي بنفسي جزءا من رأيهم. مع الحفاظ على إمكانية العودة إلى دليلي الخاص في يوم أتى

متأخرا بعض الشيء.

أيام على وصولي, امتلأ البيت بالخيرات, ثياب, فرش, وطعام. معونات أدخلت الفرح إلى معدنا الجائعة التي ملت من البيض والمعكرونة, كانت مخصصاتنا قليلة, لا تكفي إلا لشراء الأرخص من المواد الغذائية في السوق والقادر على إسكات الجوع, خيارات محدودة ومحددة.

ويوم آخر, جاءت زوجة ذلك الرفيق, رأيتها فعلا امرأة بمواصفات الجمال التقليدي جميلة, لا أعرف شيئا عنها, تأكدت أن هذا الإنسان منسجم مع نفسه, في اختياره لزوجته.. لم أتمكن من التعرف عليها فعليا, ربما كانت تحوز كل المواصفات في الشكل والمضمون, ربما كانت امرأة مميزة...

لم تدم الفرحة لا في الغرف من أطايب الطعام, ولا من الاستمتاع بالفرش الجديد. كان مضر في مهمة خارج حلب, وكان الرفيق قد ذهب لقضاء موعد حزبي, وزوجته في اليوم الأول من زيارتها, لم يستطع العودة والقيام بواجبه في الضيافة, لبى نداء الألم الذي كان يحاصرنا. بقينا في حيرة بعض الوقت تعبيرا عن ضعف الخبرة والرغبة في صمود منه كجبل, ولكن لا مجال للمزاح, يجب أن نتصرف كما تقتضي الاستجابة الأمنية: رجعت زوجته إلى بلدها, تركنا البيت ولم نأخذ معنا أي شيء, كان هناك أمل بالعودة إلى البيت, مثلما كان لدي أمل بالعودة إلى عملي قبل شهر, بدت الهدايا الكبيرة امتحانا لنا على استعدادنا للتقشف الدائم... تركنا البيت بما فيه.. وعلى مبدأ المصري اللي في الريش يروح بقشيش, ونفدنا بريشنا, اعتقدنا أننا سنعود بعد أيام, فقد كنا واثقين من صمود الرفيق, الذي كان يكثر الحديث حول الصمود المطلق, مبديا الاستغراب من الضعف بمواجهة التحقيق, وكان منسجما في ذلك مع أحد خرافات الحزب, فعلا كنا نفصل صمود ليوم الصمود في سهراتنا ومناقشاتنا. أما المحك فكان في التحقيق وأمام آليات التعذيب التي تتطور باستمرار, فكلّ

وحظه وكل وإمكانياته في لحظة التحقيق معه.
ذهب كل شيء في البيت, وضاع على تلك الحزينة ساعات من السعادة كانت تعد نفسها لها, ومضينا إلى تشرد جديد حتى الحصول على منزل..
كانت المدينة لا تزال غريبة علي, ولا أعرف فيها إلا بياع المشبك وساحة سعد الله الجابري. ولن ينتشلني إلا تكاتف الرفاق هناك.. كان التصميم يغطي على الحزن الذي يلفنا, تحسرنا على عود مضر الأثري وأشياء أخرى.. كان يجدر بنا إخراج بعض الأشياء الهامة من البيت مثل المكتبة, أو الأرشيف, أو... هكذا قال الأكثر خبرة.. في اليوم التالي ذهب أحدهم باتجاه البيت, عله آمنا, فنستعيد أهم الموجودات.. أملنا انتهى بالفشل حيث كان يعج بعناصر الأمن, كانوا مازالوا يستمتعون بالطعام الذي تركناه, وربما كانوا يعزفون على العود.
افتقدنا إلى جمعة الرفاق في ذلك البيت..لم يعد هناك ما يبشر بسهرات قادمة.. كان اعتقال العود إنذارا بذلك, إنذارا بقدوم مرحلة استنفار ومواجهة غير متكافئة لا تنطوي على احتمال النصر. ولن تنتهي إلا بالدخول في أنفاق التخبط بالعتمة..
قبل أيام قليلة على اعتقال ذلك الرفيق.. سهرنا رأس السنة 86-87 -عام 86 كان قاسيا, ودعنا فيه الكثير من الرفاق إلى السجن, رفاق كنت أشعر بالحزن عليهم, تذكرتهم وتذكرت دمشق التي ودعتها دون رغبتي قبل أيام.. بكيت وأنا أغني"غيفارا مات". بينما مضر يعزف على العود, كنت خائفة من وعلى كل شيء مهم, كنت أقرأ ظلمة الأيام القادمة, بدأنا بالتحول إلى منشدين على الأطلال..
ذهب أغلبنا في تلك الأيام وعدنا بدون أصواتنا.. أو بنبرات مختلفة فيها..
وحده مضر انطبقت عليه هذه الأغنية. أو ربما كانت هذه الأغنية له..
وحده ذهب مع صوته.. ذهب ليبقى حيا في القلوب الدافئة, ذهب في خريف السنة التي ابتدأت باختفاء العود..

بعد البيت المجاور لبياع المشبك, سكنت مع إحدى الرفيقات الملاحقات حديثا ومضر في بيت في وسط حلب, في حي من الأحياء المحترمة يظهر ذلك من مظهر سكانه, فيه الشقق المريحة, الأبنية بواجهات منسجمة.. محلات تجارية.. فيه رائحة الطعام التي تميز حلب في كل الأوقات.. رائحة اللحم المشوي أيام الجمعة والأحد كانت كافية لتذكرنا أن اللحم من العناصر الغذائية التي هجرتنا.. الباعة الجوالون في الشوارع, الياسمين الأصفر يغطي جدران الوجائب, سمعت بائعا ينادي على الجبنة الخضراء, توقعت أن لديه جبنة بهذا اللون, عبرت عن دهشتي, ضحكت رفيقتي, أفهمتني أن قصدهم الجبنة الطرية. سكنا هناك عن طريق صديقة لرفيقتنا, امرأة مطلقة لها ولدان, ومشاعر الأنثى التي لم تطلقها, رغبت في العيش بطريقة لم أفهمها حينها, تقابل رجلا في هذا البيت بين الحين والآخر, لم يشغلني الموضوع من ناحية الخروج على العادات والتقاليد, بمقدار منحه البيت تغطية اجتماعية كنا بحاجة لها. هذه هي إفرازات الحياة الصعبة حيث ننظر للأمور من ناحية تقويتنا.

كان المنزل غرفتين وصالة صغيرة, ومرافق و بلكونات, أحببت ذلك البيت, ما يفاجئني أن ابنتي تتذكر تفاصيل هذا البيت أكثر مني, رغم أنها بقيت فيه أقل من شهر, ورغم أن عمرها كان ثلاث سنوات فقط. وكأنها عاشت سنوات غيابي عنها في تذكر البيت حيث اجتمعت للمرة الأولى بوالدها بعد أن تعلمت الكلام.. كان فيه ماكينة خياطة وخزانة في الحائط, لعبنا سنا وأنا فيه بيت بيوت, سجلت لها ما تحفظه من أغاني, وكانوا أكثر من المتوقع, مارست هوايتي بالخياطة لها بعد إرسالها إلى البحر وحيدة, كنت أشغل نفسي في أوقات الفراغ وأفرغ القليل من أشواقي لها في الفساتين الصغيرة التي أتفنن في تشكيلها.

مضت الأيام الأولى, بعد عودتنا للحياة المشتركة, عادية بدون لهفة واضحة رغم شعوري بأني سامحته.. لم أفتح معه أي عتاب, هو لم

يسألني ولم يحاول معرفة إن كنت غفرت له أم لا.. هو كعادته يكتفي بما يظهر له من سلوك, كعادتي أعيش صمتي مع الآخر, وصوتي مع نفسي,

كان يعذبني أكثر ما حصل معي في الشهر السابق لمجيئي إلى حلب, أردت فتح جميع الأوراق. اكتفيت بالتأجيل, كل يوم أقول غدا, أقلبها في جميع الاتجاهات, أجد ما تحمله من تعب للجميع, تركت الأوراق مخبأة في أدراج الذاكرة, ساعد في ذلك مشاغل تلك الأيام. وطبيعتي التي تخفي مشاعر الماضي..

كان يشغلنا الكثير, حالة الاستنفار التي ستمتد وتطول, حملة الاعتقالات التي كادت ألا توفر أحدا, أكثر شراسة مما توقعناه, كانت حملة تصفية..

جرح مفتوح... شباب و شابات إلى غرف التعذيب والتحقيق.. إلى الزنازين و المهاجع في أسفل درج مظلم.. اكتفينا بلملمة ما تبقى منا ونسينا جراحنا القديمة..

لا أعرف ما الذي كنا نفعله في سنة النزيف تلك, قبل أن نتماثل في المصير مع السابقين, كنا في حركة دائمة. نصف نهارنا في الشوارع نعزز ثقتنا بالنصر الذي نرتقب, ونصف ليلنا في تجرع الأحزان على من ذهب, وأخذ الاحتياطات اللازمة, وشحذ الهمم.. مناقشة قصص الصمود والانهيار.. مناقشة الانهيار الذي يوصل المرء إلى مرحلة الخيانة.. مناقشته قصة الخائن الذي انكشف بعد فوات الأوان والمصير الذي يستحقه.

تناولنا قصة الخائن الذي ساهم إلى حد كبير في تسهيل الحملة على الأجهزة الأمنية ضدنا, كان من الملاحقين ومن المفترض تأكيده لأمانه يوميا, غاب في بداية الحملة في أيار 1986 لمدة أربعة أيام, اعتقد الحزب باعتقاله, عند عودته تذرع بالخوف, واختلق قصة ساذجة لتبرير غيابه غير المنطقي, صدق الآخرون الحكاية.. أزعجنا (أننا اكتشفنا) أو أن القيادة اكتشفت وجوده بعد فوات الأوان, بعد أن استهلك كل

الاحتياطيات الأمنية للحزب, والتي كانت بالأساس أقل من المطلوب. صار كل منا يقول: على ما يبدو أننا عشنا الوضع سري مري, تهكم من شاعر بمرارة الأمر وفداحة الخسائر.. وبعد سنة وأكثر جرى استفتاء شفهي وسريع حول العقاب المناسب, احتارت القيادة بآليات العقاب الموجبة.. في القواعد رغبات بتقطيعه.. اقتراحات عبرت عن الغضب العارم في الصدور الساخطة.. استحضرنا تجارب الآخرين في معاقبة الخونة, عزلنا الأمر عن شرطه الموضوعي.. لم يكن عندنا جماهير تقتص من الخائن كما فعلوا في روسيا, أو كما وصلتنا العديد من الحكايات... نحن في حيرة.. حيرة عاجز اتخذ القرار بتعذيبه ورميه, مما يؤكد روح المغامرة الموجود عندنا بما فينا القيادة التي كانت تقود العمل, وروح الثأر لغاضب خسر أكثر من المتوقع..

مؤلم جدا ما فعله, وأشد إيلاما ممارستنا غضبنا كما تم, متناسين موازين القوى التي تحكمنا.. دفعنا الثمن غاليا أو هكذا بدت الأشياء, فقد حوكم الرفاق ووجهت لهم تهمة الانتماء إلى منظمة إرهابية, وكان هذا شاهد الأجهزة الأمنية الوحيد أو الأساسي.

للأسف, خيانة عضو في الحزب, وانهيار عضو لجنة مركزية فيه,(الهيئة القيادية في الحزب), ورغم سرية العمل المفترض, جعل الوضع التنظيمي مكشوفا تماما عند المخابرات, وأصبحت الآمال بالنجاة والاستمرار أضعف بكثير, كان بانتظارنا مصير الكثير من المنظمات الثورية في العالم.. باب النجاة لم يكن أمامنا. كنا, كما غيرنا من أبطال سبقونا, ننتظم في أحزاب صغيرة كادرية في جو من لامبالاة المجتمع. وذلك لا يمّكنها من الاستمرار في ظل سعي السلطة لإلغاء قوى المجتمع. كنا نفرح بصديق يشد من أزرنا, فننسى ضعفنا, نوايانا الصادقة دليلنا على قوة لم نكن نملكها, أو لم تكن كافية لحمايتنا- حماية وجودنا المنظم- .. تفككنا وتغيرت آمالنا. ولم يتبق مما جمعنا إلا الصراخ والعصبية التي

تذكرنا بما كنا نحلم بوجوده.. صراخ وعصبية ينسينا ما وصلنا إليه.. ينسينا أن هذا اليوم مخالف, وكل واحد فينا أشد اختلافا. وكأن ذلك هو المتبقي من التعاضد والتكاتف الذي جمعنا, هو الأثر من توحدنا الذي ضاعفه عذاب أهالينا وأقاربنا وتحملهم أعباء الزيارات عند احتجاز أجسادنا.. ظروفنا الحالية تضع كل فرد فينا أمام مرآة مجرحة من ذات الآلام التي وحدتنا في زمن مضى وانقضى! وأمام تلك المرآة أسمح لنفسي بتساؤلات:

ماذا قدمنا وغيرنا لحركة المجتمع؟ ماذا أضفنا للثقافة العربية؟ أين أعمالنا؟ ما الفائدة التي جنيناها كأفراد؟ ما الذي أورثناه للأجيال من بعدنا؟ أسئلة كثيرة تتوالد, تختصر زمنا كنا نرسم فيه بأرواحنا من أجل قادم أفضل لا نرى ملامحه بعد..

أسئلة أدوخ بها, وكل مرة أضع أسئلتي, تدور شمسي حول إحساسي بالانهزام والجرح الشديد.. تتقدم جروحي للإجابة فأختبئ من رعشة أجفاني. خلل لم نصوبه في غمرة انفعالاتنا أزاح أحلامنا.. وبقيت معتقلة في حكاية خيالية, أكلت مني ومن غيري أزهى سنواتنا.. أعجز عن الإجابة, وبالأحرى أفضل عدم الإجابة.

عندما أجيب يسكنني خوف على نفسي من الدخول في نزاع مع ماض أحترم أنني كنت فيه فردا في مجموع أراد أن يرى, أراد أن ينفخ في الاتجاه الإنساني. ليترك على الأقل أثرا".

تركنا الأثر الذي يؤكد أن العطاء في الزمن البخيل سيكون محدودا مهما كانت الجهود المبذولة كبيرة.. فكيف إذا كان هناك ثغرات.. تركنا أثرا", ولكنه لا يتناسب مع آلامنا وخسائرنا. أجل بعضنا خسر عمره فرحل شابا.. بعضنا خسر أهم جزء من حياته المقبلة لأنه ضحية وسيتعامل مع ضحية مثله. بعضنا مازال يبحث عن نفسه وهو في سن الخمسين, وبعضنا.. وبعضنا ابتعد عن كل ماضيه وبحث عن ذاته بشكل مغاير,

بعضنا أصبح نموذجا في التخاذل واقتناص الفرص, كل في محيطه يعطي صورة عن ذلك المناضل الذي كان, البعض صورة مشرفة.. وآخرون صورة مشوهة.. وكثيرون كمن لم يكن!!!.

أحاول أن أتعامل بالشكل الأنسب في ظروف لا أقول أنها أصعب, ولكنها بالتأكيد صعبة. خرجت أحمل آهاتي في صدري, وتشوهاتي في روحي ومنها, وبعض المعرفة التي أظنها كافية للوجود الصغير الذي أعيشه, خرجت بإحساس بالذنب كبير تجاه ضحية كانت في عمر الورد حين تركتها رغما عني, خرجت وكانت مازالت في عمر الورد, لكنها خمس سنوات كانت أصعب من أن يتحملها الورد.. سنوات من عدم الأمان والتعب, خمس سنوات وهي تتحمل كذب من حولها في الهمس بقصد التخفيف عنها, خمس سنوات يهرب محبوها من النظر في عينيها تفاديا لألم يسكنها, وما عرفوا أن المشكلة لا يقلل منها السكوت عنها, إنها تحفر هناك في ذلك المخبأ الذي اسمه اللاشعور, والذي سيعيدها في الوقت وبالشكل الذي يريد, وأنا وما انكسر في داخلي سأتفاعل مع عذاب, أبحث عن أحلام لا أريدها أن تسافر بعيدا عن روحي. غيرت السنين ما غيرت, أتأمل الصفح منها في صمتها وكلامها. اعتقدت بأنني أساهم في نزع أشواك من يحاول قتل الورود. ولكن على ما يبدو كانت الطريقة مستحيلة.. جعلها مستحيلة خطأ صغير حصل في يوم لا يمكن العودة إليه.. لا يمكنك العودة إلى الماضي عندما تسير بعيدا في طريقك, سافرت الأحلام وتشتت وهربت في الليالي.. انتعشت الآلام, وجعلت للحنين طعما, وللمرارة لونا لا يمكنك تجنبه.. وبقيت اللّو تكبر مع كل مشكلة تستعصي على الحل.

في وقت ما سيظهر ما كان في المخبأ.. لن يسألك الوقت إن كان مناسبا أم لا.. إن كنت قادرا على الوقوف أو المقاومة. بدأ التراكم في المخبأ قبل سنين, حوالي20 سنة, هناك عندما كان مازال هناك قلب ينبض, وكنت

مازلت في حلب. أعبر عن رفضي الذل والمهانة التي تحاصرني في بلدي.. أرسلت الطفلة الصغيرة إلى جدتها استجابة" للظروف المعاندة.. في ليلة صيف أبعدتها كما اعتقدت عن الذئاب التي كانت تلاحقني.. لكني حينها لم أفكر أنني تركتها لتمشي وحيدة.. وحيدة..

عندما كانت تبتعد الشعارات قليلا عني, أو كلما نظرت إلى نفسي نظرة متفحصة, أجدها أمامي, أكلمها أعتذر منها, لعل ذلك يصل لها.. تركتها ولم يكن لها ما يكفي من قدرات عقلية لتفهم, ولم أكن أعلم حينها أن الزمن لا يرحم, ولن يرحم.. بل سيسخر مني عند ذبول أحلامنا.. عند تلقي نتائج الضربات الموجعة التي يصعب ردها..

تركتها بعيدا في ركن مظلم لا أستطيع الوصول إليه عند الحاجة.. ساعدني كل شيء على تركها.. شبابي الذي نذرته للأهداف العظيمة.. طفولتي التي توزعت بين جبلين:

أمي التي اختارت طريق التضحية إلى آخره, لم تشعرنا بآلامها حتى إن وصلت الإهانة إلى قلبها. أوجاعها سرية, لا تظهر إلا في لحظة خارجة عن كل إرادة.. كانت ذكية بما يكفي لتعيش بسلام وسط العديد من التفاصيل الظالمة. اختارت أن تعطي دون مقابل لكل من حولها.. ملأت قلبي بتعاطف لا محدود مع المظلومين حتى لو كانوا هم من يظلمون أنفسهم.. عشقت العمل وتحضير كل شي بيديها, علاقتها بالنظافة وبالطبيعة حالة من التماهي تلفت النظر, غاية في الإنسانية مع البشر, تشعر بآلامهم وأفراحهم. كانت تشبه ما أقرأه عن القديسين الذين يعتبر وجودهم بحد ذاته خيرا لمن حولهم.

أبي الذي لا أنكر طيبته وكرمه, كان متجبرا, يصل به مع أمي إلى النهاية.. لم أره يضربها, لكنه كان يعرف كيف يتخلص من كل غضبه عندها, تهوره واندفاعه وغرائزه يعيشها دون حساب لشيء, ذلك يضعه في مواقف صعبة أحيانا, وملاذه هناك عند ذلك الجبل الذي يتحمل

فتنتهي عنده المصائب, لا يتقبل المساءلة والجدل في أي قضية, إن ضحك كانت ضحكته تتجاوز الحارة, كان جدي يؤنبه ويقول له: قلة الضحك هيبة, لا يستفيد من تجاربه في الخسارة وهو الذي يعمل بالتجارة.. كنا نخشى غضبه أنا وأخواتي, نحاول أن نكون في البيت قبل عودته. كان متطلبا يريد الوصول إلى كل حاجاته في أقل من نصف ساعة, يأخذ أبعاده في الجلوس.. يأكل بلذة, باختصار, كان يحب أن يتعاطى مع كل شيء حسب رغبته وفي الوقت الذي يحب. كان علينا أن نحب ما يحب, ونرضى ما يرضاه, كثير من الأطعمة لم تدخل البيت لأنه لا يحبها. لم يكن يراقبنا بشكل مباشر, ذلك أن القرية كلها تراقب كلها, غرس فينا أن بيتنا هو الجنة والأمان, وكل شيء.

بيتنا الذي يستقبل صديقاتنا في المدرسة, أهل القرية يرغبون في صداقة بناتهم لنا, ولا يزعجهم أن ينمن عندنا, فالبيت بيت نساء لأن الشاب الوحيد في البيت يدرس بعيدا, ونحن والصديقات كل يوم سهرة ومزاج جيد. ينتهي أحيانا بثورة والدي عندما يتعرض لخسارة قاسية.. ولأن البيت واسع وصدر الأم أوسع كان الضيق يذهب بسرعة.. يختفي مع الخوف الزائل بهدوء تلك الثورة التي لا تطول.. مع الخوف الطارىء أحلم أننا لو كنا بدون والدي سنعيش في جو أفضل, أنسى سعيه الحثيث لإسعادنا في الرعاية اللازمة التي كان يمارسها على أتم وجه, لا ينقصها إلا مشاركتنا له الحديث.. كان لا يعرف المشاركة, يعطي ويأخذ ما يريد كالملوك الطيبين.. علمت أن رغبتي بعدم وجود سلطته لا يعني رغبتي في عدم وجوده حين ألم به مرض وعشت ألم المعاناة من رغبتي تلك حتى تماثل للشفاء. لم يكن يزعجه ضجيج الأولاد عند زيارة أخواتي المتزوجات لنا.. بل تسعده المفارقات التي تحصل حتى لو وصلت إلى حد الشغب, يذهب والكبار إلى السهرة لأبقى أنا في رعاية البيت من عبث الأطفال, أولادهم, الذين كانت أمي تشبههم بدجاج الدواجن الذي لا

يعرف الانضباط, وكان الصغار يخوضون مؤامراتهم علي ويربحون المعركة التي تصل فيها أصواتهم إلى الجوار, وإلى تكسير المفروشات. عندما يعود الكبار تكون الدنيا في أسوأ حالاتها, وللأسف كل مرة أفشل بضبط العمليات وأفقد قواي. أتذكر ذلك لأشير إلى تلك الصفة التي لا أعرف إن كانت ايجابية أم سلبية وهي عدم القدرة على القيادة. في الحقيقة هي سلبية, ولكنني لا أحسد من يمتلكها ممن أعرفهم.

بين قمتين, وفي بيت يضج بالحياة, بنات وصديقات في أيام المدرسة, أخوات وعائلاتهن في الصيف, عشت وكبرت..

أخذت من أمي الكثير من الصفات: المسالمة والوداعة والذكاء.. عدم النزاع مع من يخدش المقدسات بسبب الخوف. لكن لم آخذ منها الصبر غير المحدود.

كنت في صيف كل سنة أزور أختي الثانية, زوج أختي ضابط, كل سنة في مدينة, لذلك زرت مدنا عديدة, لم أكن أحب صهري بقدر ما كنت أخشاه.. ربما كنت أزورهم لأخرج عن المألوف, تلك الرغبة التي تلازمني حتى الآن. أعود للقرية في نهاية الصيف وفي جعبتي حكايات عما شاهدت, أحكيها لصديقاتي في المدرسة وأنا أغرق فرحا في الدهشة التي أحصدها في عيونهم.. في رحلتي الأولى وأنا في طريقي إلى السابعة من عمري, تهت في الذهول من رؤية التلفاز والهاتف, انطبعت في ذاكرتي تلك الشاشة وذلك الهاتف الأسود, ذاكرتي ليس فيها الكثير من تلك المرحلة, بل قل لا تخزن شيئا, لكن يبدو أن شدة الدهشة وصلت حد الخوف.. لم يعفيني ذلك, من آلام شوقي لأهلي منذ اليوم الأول, أريد أمي وأبي, كما لم تنفع كل محاولاتهم في الترغيب, فأرسلوني بعد أيام عندما امتنعت عن الطعام.

يمتلك الطفل وسائل الدفاع عن مشاعره, يعرف كيف يرفض, كيف يفرض على الآخرين الاستجابة إلى ما يريد. أولادنا لم يستطيعوا

ممارسة هذه الإمكانية, لأن من حولهم عجزوا عن الاستجابة إلى رغباتهم, وأهاليهم وراء أسوار لا تعرف الحركة إلا بأوامر السجان.. محاطون بقضبان من حديد تعمل بأوامر أناس بلا قلوب..
في السنة الثانية ذهبت رغم فشل التجربة الأولى, لطفهم في السنة السابقة ساعدني على قبول ذلك,كما أن تجربة أختي الأكبر لعب حافزا مهما, إضافة إلى حاجة أختي لمن يساعدها في البيت والأولاد جعلها تزيد في ترغيبي.. كان الضباط يأتون بالخادمات الصغار من قراهم, أما أخواتي فكانوا يأخذننا فتتحقق متع متبادلة.. رحلة لنا, ومساعدة مرجوة لهن.. هذه المرة نجحت السفرة بقيت بدون بكاء, رجعت إلى القرية بفستان جديد, وحذاء جميل, كان ضياعه سببا في انقطاعي عن الذهاب إلى المسجد.. كنا نذهب, نحن الأطفال, إلى المسجد ليلتا الجمعة والاثنين, حيث يوزع علينا الشاي والكعك, كان الكبار يأخذون معهم الجبنة وغيرها من الطعام ليتناولوه مع الشاي المميز برائحة البخور.. كان ذلك من أجمل المشاوير المتاحة لنا في القرية, لافتقارها كل وسائل الترفيه والتسلية, ذهبت بالحذاء الجديد الذي اشترته لي أختي من المدينة, وعند انتهاء الأكل واقتراب العودة إلى البيت كان حذائي قد سرق, وسرقت معه رغبتي في الذهاب إلى المسجد, وأنا في الثامنة من عمري, وحتى الآن لا أذهب إلا بالمناسبات, بدون وعي, تخليت عن زيارة هذا المكان وعن سحره الذي كان.
في المسجد يؤدي أهالي قريتنا صلاة المغرب والعشاء بعد الغروب والفجر عند الفجر. جزء من صلاة الفجر إنشاد للشاعر الصوفي ابن الفارض:"أنتم فروضي ونفلي.. أنتم حديثي وشغلي... يا قبلتي في صلاتي إذا وقفت أصلي.. جمالكم نصب عيني...إليكم وجهت كلي" أشعار تبدأ بالفروض وتمر على أسرار الوجود والتكافل وتنتهي بتلك العلاقة بين الموت والحياة: "فالموت في حياتي... وفي حياتي قتلي...أنا

الفقير المعنى...رقوا لحالي وذلّي".
أحيانا ’وحسب ظروف أهل قريتنا ’يتخلل الصلاة في المساء بين الوقتين مبايعة الأطعمة المتنوعة والمنتجات الزراعية والحيوانية التي يقدمها الأهالي في المناسبات فيتبادلونها مقابل مال يوضع في صندوق خيري يذهب جزء من ريعه لمساعدة المحتاجين, وقسم لدعم مؤسسة الآغا خان, وقسم يضيع, كما يتخلل الصلاة أناشيد من نظم شعراء محليين تؤديها أصوات جميلة من القرية في ليلتي الاثنين والجمعة قبل شرب ماء الشفا كما يدعى.. وماء الشفا ماء جرى تبخيره والقراءة عليه, يعطي الطاقة لمن يعيش طقوس الدين على أرضية إيمان صادق.
مشاوير الصغار الأخرى, كانت زيارات إلى بيوت الأصدقاء والأقارب, وصنع الألعاب التي نحبها.. أعواد وأغطية القاظوظ, كما كان يدعى,المعدنية وبعض القماش وقلم تلوين, كانت كافية لصنع ألعاب نتبارى لإنتاج الأجمل. كما كنا نلعب في الطرقات بألعاب مازالت منتشرة حتى اليوم من مثل نط الحبل وغيرها.. كانت تسليتنا تترافق مع حركة ونشاط أكسبنا حيوية ونضارة خسرها أطفال هذه الأيام لأن هذه الألعاب فقدت أهميتها أمام الجلوس على برامج التلفيزيون وألعاب الكومبيوتر.
بعد سرقة حذائي, امتنعت عن االذهاب إلى المسجد ولم أكن أعلم أنني في يوم ما, سيكون لي موقفي من موضوع الطقوس الدينية مع العديد من صبايا وشباب القرية في سني.. على عكس هذه الأيام, حيث أخذ الدين شكله الطائفي وبدأ الأهل يوجهون أولادهم إلى الاهتمام بالطقوس الدينية, والشباب شديدو الاهتمام بالأمر, يتسلحون شكلا بالانفتاح على العقل الذي نادت به الطائفة تاريخيا والذي يوجه إليه إمامها.. لكنهم هجروا إلى حد ما الاهتمام بالثقافة بشكل عام. فقد بدأ الدين يحتل مكان كل الثقافات الأخرى.. الأغلبية عندنا كما في الطوائف الأخرى, للأسف, تكتفي

ثقافيا" بالاهتمام بالدين وما تطرحه وسائل الإعلام المرئية.. أما الثقافة التي تفتح للعقل مساحات المعرفة المختلفة, فقد انحصر انتشارها بدوائر مازالت تضيق.

كانت أيام الدراسة تمر ببطء وهدوء, وكان السفر هدية الصيف المنتظرة كل سنة, عندما أصبحت في الصف السابع أضحى الصيف جزءان, أقضي الأول في القرية مع الأهل والأقارب والأصدقاء والبهجة التي يخلقها وجود أخي القادم من روسيا, حيث يدرس. الجزء الثاني أقضيه عند أختي, في الليل مع مخاوف لا تفارقني, أستحضر بها حكايات جدتي عن الغولة والعفاريت وأنا بمفردي في الغرفة حيث أنام. في النهار أسعد في المشاوير.. بعد أكثر من خمس وثلاثون سنة أدرك مقدار ضعفي وهشاشة أسلحتي وقلة حيلتي المرافقة لي منذ طفولتي, حيث تركت نفسي أعد الأيام بين نهارات جميلة, وليالي رعب, لأعود قبيل المدرسة بثياب جديدة وحذاء يضيع في المسجد كان مؤشرا لمغامرات قادمة بعيدا عن السائد.

هل كانت النتيجة كافية للتضحية بذلك الأمان الذي كنت أنعم به بالقرب من أمي؟! أم أنها الرغبة في كسر المعتاد هي ما كنت أبحث عنه, أم تقليد أختي الأكبر؟!

كان شغل الناس الشاغل في القرية الطعام والشراب, إضافة إلى تكاتفهم في الأحزان والأفراح, ولأن الحياة بسيطة ووسائل الترفيه محدودة لعدم وجود كهرباء, والسهر على ضوء الكاز والقمر جعل الحفلات والجلسات الحميمة تنتهي قبل العاشرة مساء رغم جمالها. يبدأ النهار في الرابعة صباحا عند الأهل, والساعة السابعة صباحا عند باقي أفراد العائلة.. والسابعة وقت متأخر على نشر الغسيل الذي انتهت منه الأم, بل كانت الحياة و كل متطلباتها يتم تحت أشعة الشمس الحارقة التي لا ترحم في الصيف, ونحن في أطراف البادية.. شمس قاسية لا ترحم.

أحاديث الكبار كانت تتم بعيدا عن أسماعنا, غير مسموح لنا أن نسمع الحديث حتى لو كنا نحن محوره, استمر ذلك حتى ذهبت إلى الجامعة, جعلنا هذا نخجل من الأسئلة الخاصة, كل شيء محرج وعيب وحرام, كانت الأجواء تغلي عندما يتناول الحديث صبية أحبت شابا, هذا منتهى العيب, أما بلوغ الفتاة فهذه قضية لا تعني الأم وابنتها, لا تعني البنت وأختها الأكبر أو الأصغر.

من الحوادث المضحكة في العائلة.. أن كانت العائلة الكبيرة مجتمعة في أحد البيوت, شد انتباههم صراخ إحدى فتياتها تبكي على الدرج لأنها تعتقد أنها تزوجت بالحرام, جاءها الاعتقاد لأنها بلغت, وكان وصل إلى ذهنها أن المرأة حين تتزوج يحدث لها ذلك التغير, من جهة أخرى وصلها أن هناك فتيات يخربن سمعة العائلة بعلاقة محرمة. ومع الأوهام والخيالات المريضة لمراهقة, خافت عل سمعة أهلها, رغم أنها بريئة.. كان عمرها خمسة عشرة عاما وكان لديها ذلك الجهل وذلك الاعتقاد... عندما وصلت تلك القريبة إلى الجامعة ناضلت من أجل تحرر المرأة بجرأة, عندما تزوجت ذهبت قناعتها بأهمية النضال, وعندما أنجبت فتاة خشيت عليها من حرية تريدها أوسع مما يسمح به المجتمع.. فوضعت لها الحواجز اللازمة لمنعها مما يسمى تهورا".

هذه قصة من القصص المشهورة, هناك قصص مجهولة ربما تكون أشد غرابة, أنا نفسي خفت واخترت سبيل الهروب من مواجهة واقع هو الطبيعي.. في ذات يوم كانت واحدة من بنات الصف تتحدث عن حب بين فتاة وشاب قبل خدها, تساءلت ألا تخشى من الحمل؟! كان عمري حينها ستة عشرة عاما. إحداهن خشيت من الحمل عند انقطاع الدورة الشهرية وذلك طبيعي في أول البلوغ.. وغيرها من القصص التي تعبر عن سذاجة, مبررها الوحيد الحرمان من الثقافة الخاصة بالفتاة وعالمها.. كنت شرهة للقراءة لكنني لم أبحث عن تلك المعرفة, لم يكن لدي فضول

للبحث في تلك الخصوصية حتى وصلتني بالصدفة كتب نوال السعداوي وكنت تجاوزت السابعة عشرة من عمري عندما أتيت لأساند أختي.. رأيت ذلك الكتاب بالصدفة في مكتبة البيت.. قلبت صفحاته ولا أزال أذكر كمية الخجل التي غرقت فيها.. قرأته على عجل وبشكل سري.. كنت أشعر بأنني أخون ثقة أهلي حيث بدأت أتعلم ما كانوا يتجنبون الخوض فيه أمامنا.. أدخل في معارف تربك حجم الجهل الذي لم تمحه قراءاتي المتنوعة ولا كتب العلوم التي تقدمها وزارة التربية والتعليم لأذهان فقيرة بتساؤلاتها..

شغف القراءة عندي كان غريبا".. لم يكن أحد من أصدقائي يقرأ, ولم تكن العائلة تشجع على القراءة, لم تنجب عائلتنا أصحاب فكر, كانوا أناسا"عاديين, لا تعنيهم الثقافة في شيء.. كان أعمامي يحبون الأرض والعمل.. ليس لديهم فن للتعامل مع الناس.. ولا يبحثون عنه. أعتقد أنهم لم يكلفوا أنفسهم عبء معرفة ما يجري في الدنيا. كانوا أقرب إلى الانغلاق, غامضون على بساطتهم, غموضهم لم يثر انتباه الآخرين, هم أيضا استغنوا عن معرفة الآخرين.. كان غموضهم وصمتهم يثيرني لأن الطرف الآخر, أهل أمي, كانوا يستسهلون التعامل مع الآخرين, كانوا فنانين في التواصل مع بعضهم البعض, يتكلمون في كل شيء على بساط أحمدي عدا الجزء المتعلق بالمرأة, وعلى سبيل النكتة كان يقال إذا كنت تريد أن يذاع سرك فأعطه لفلانة, من عائلة أمي.. رسالة أهل أمي كانت واضحة مقروءة مليئة بالحب والبساطة وتوحي بالثقة بالنفس.. بينما أهل أبي أغلقوا أبوابهم ونوافذهم.. كرهوا الكلام والجهر بما تخزنه نفوسهم. أجاد أحدهم في مساعدة المنطقة كلها, كان يمارس خدماته بمهارة وإتقان, كان الأشهر في تجبير الكسور, قاضيا مهما في أمور المهور والزواج, وكل أنواع البيع والشراء, وتسويق الأيدي العاملة, بعد الانتهاء من العمل في مواسم القرية, يأخذ الشباب للعمل في حقول منطقة أخرى.. كان

يحمل كل صفات القيادي دون إعلانات, قاسيا جدا. قسوة طالت تعامله مع نفسه.. كان يقدم خدماته مجانا, في وقت كان أهل بيته يعيشون في مستوى الكفاف, أذكره بدون زوجة, لكن بعدد أولاد كبير, رجال ونساء, تجاوز أولاده سن الخمسين, ولم يجرؤ أحدهم على التدخين أمامه, أو الكلام قبله, مع أن البعض وصل إلى مراكز مرموقة.. كانت قيمه منسجمة مع مقولة أن الإنسان لا يأخذ معه شيء, وأن قيمة الإنسان بالعمل, يعيش يومه بطريقته, يكره البهرجة ويحب التقشف, علمنا أن نحب الفقر وأن نستسلم لسلطة الرجل. خشيته وتحاشيت رؤيته لي. بشكل عام كان رجال عائلتنا جيل أبي ومن هم أكبر ذوو هيبة ووقار, لم نتجرأ على مخالفتهم, بل كنا نخشى بعضهم حتى في غيابهم. اعتقدنا أنهم يرون وهم يديرون ظهورهم.. يسمعون وهم نائمون.. تم الإقرار بسلطتهم القوية, التي خفف أعباءها علينا في الأسرة: سكننا البعيد عن بيوت العائلة, والتنوع التي أعطته عائلة أمي.

إذن نشأت على حب الناس والخجل وعدم الإحساس بالثقة الكافية بالنفس, دون الوصول إلى حافة الخطر, حافة انتزاع القوة المطلوبة للتفاعل مع الحياة بشكل ايجابي, أحسست بالقوة شيئا فشيئا مع التمكن من السيطرة نوعا ما على الخجل الذي كان يضايقني, كان ذلك بعد سنوات من مغادرتي القرية, ساعدني ذلك على السباحة في النور, والتعرف على الناس, ومجادلتهم في أمور المعرفة المختلفة في البدء دون النظر في عيونهم, لاحقا بالنظر في العيون لأقيس الصدق في طرح الأفكار.. وسيلة عرفت أهميتها بعد الكثير من التجارب والإخفاقات. وسيلة مهمة لا أنتبه إلى استخدامها مع الأشخاص الذين أمنحهم ثقتي, دفعت ثمن ذلك ومازلت أدفع.. أنظر إلى لاشيء عند التكلم مع من أحب خاصة عند تناول القضايا الحساسة, تاركة مجالا لمداراة الخجل المتبقي أو للكذب الذي لا أستطيع الاستغناء عنه معهم وأسميه مجاملة. يصعب علي

مجاملة من أحب لكنني مكرهة على ذلك. وكلما غربت بنظري أدرك حجم التشوه الذي يحاصرني.

عيون الذين لم تشوههم الحياة بعد, لا تخفي شيئا, في عيني الطفل تعرف رغباته تعرف حاجاته, أما الضحية فلا تستطيع النظر في عينيها لأنك لا ترى إلا الضياع, عندما كانت ابنتي طفلة كانت عيناها أول ما جذبني إليها, سحر الحياة رأيته في عينيها في اليوم الثالث لمولدها, كانت عيناها تريد أن تقول شيئا أرغبه, حسدت نفسي على المتعة التي خلقتها تلك النظرة, ولم يخطر على بالي أنها ستتحول إلى نظرة مبهمة تعذبني أحيانا, تدفعني باتجاه مزاج مثقل بالهموم يبعد البهجة عني.. مرة أخرى ذلك الشعور بالذنب.

تبقى المشكلة في أن تدرك بعد فوات الأوان أن هناك شيئا كان يمكنك أن تفعله لتخفف الأذى, لكنك لم تفعل. تمضي في دروب لا تعرف إلى أين, لكنك تتوقع, تتغير المعطيات, وتستمر في دربك مرغما أو بإرادتك, وتكون النتائج مرعبة, وأحيانا سحرية..

قدري أن أقطف الرعب.. الرعب الذي أمقته ولا أستطيع منه الاختباء, لا أستطيع معالجته كما عالجت الخجل في يوم مضى, أين أذهب؟ الطرق كلها ملتوية وضبابية. وربما تفضي إلى رعب أكبر, لا أتحمله.

الفصل السادس

هروب.. مواجهة..مراوحة

الهروب, هرب من المسؤولية والأعباء, إلغاء للحواس لدي وأكثر, تغييب الوعي وعدم إخضاع ما أرى حولي لأي منطق.
أما المواجهة فهو طريق محفوف بالمخاطر لأنني غير مؤهلة له ولمعاركه, أقولها معارك لأنها ستكون مع من في البيت, مع أقرب الناس إلى روحي وقلبي, مع وجداني وذاكرتي, مع ماض وأصدقاء كنا معا, اليوم لا أرى مساحات الصدق الكافية لأظل منتمية إليهم.. مع عائلتي الأولى التي لا يفرقها شيء, ولكنها توزعت إلى أسر تعيش حالة أقرب إلى التقوقع على نفسها.. مع الجيران وهم آخر من أستطيع الانفتاح عليهم..
طريقان كلاهما مر, والأشد مرارة طريق المراوحة حيث أبقى كما أنا أفكر بالحلول, من دون أن أخرج جديا" مما أنا فيه, أجعل نفسي خارج نفسي, بعزف منفرد على غصة يوجهها حصادي.
حصادي: سراب هنا, سراب هناك, كنت بعيدة عن وجودي الحقيقي, ووجودي الحالي يبحث عن المكان المناسب في فسيفساء لا أعرف قراءتها, ومازالت نفسي تنتظر الانتقال, كأني أنتظر أن يمد أحد يده لي, أعترف بعجزي عن المضي بمفردي إلى مكان أكثر رحابة. كل أنواع الإعاقة في داخلي لأن من يشدني للتعب هم من أحب.. ودائما يطاردني خوف من أن أكون وصلت إليها في وقت غير مناسب.

عندما أتيت إلى دمشق للدراسة الجامعية, كنت حالمة إلى الحدود القصوى. دخلت الفرع الذي أريده وأحلم فيه, ولم آخذ بآراء المحيطين, من منا نحن أهل الريف, يستطيع اختيار الفرع الجامعي المناسب؟ من يؤهله مجموع علاماته, يختار فرعا" له سمعته, على هذا الأساس دخلت الهندسة, مهنة مميزة, وتمكنني من القبض على أحلامي في العمل مع الطبقة العاملة.. هذا ما اعتقدته.

مع الدراسة وبعد التخرج, أردت أن أبقى تلك الطالبة التي لا تمل من البحث دون الوصول, أصدقاء كثر, كل يوم أبواب جديدة لأحلام لا تنتهي, خضت معارك فكرية بمجالات شتى. معارك بعيدة عن الحوار لأنه علم صعب ويصعب علينا في جو الانغلاق والتعصب ممارسته, ما أعرفه أنه كان لي حضور مميز... علمت بذلك لاحقا, كنت مع الأصدقاء نحاول صنع البطولات, كل شيء حماسي يعيد خلقنا, يجمعنا الاهتمام, كل فرد يحاكي من معه كأنه يحاكي نفسه.. نقاتل ونتقاتل في اللحظة نفسها, في التاريخ والفلسفة ومجمل أنواع الفنون, في الراهن والماضي والمستقبل, نناقش تجارب الشعوب في كل الدنيا.. سادنا اعتقاد أننا عارفون بكل شيء, عشنا جدلا حسابيا لنهاية الكون.. ومع خروجنا عن المألوف, عن الموروث الديني, كنا بأعماقنا نصنع ديننا الخاص. احتوتنا المدينة مع أفكارنا, وشكلتنا بدون إعادة إنتاج حقيقية.. فقد بقيت مخاوف بنت القرية في داخلي, رغم ما أظهرت من تغيير, كثيرا ما هربت مع غيري للتعميم, أهملنا نقاش مواضيع خاصة كان يمكن أن تساعدنا في التخلص من التردد الذي بقي في الأعماق.. ناقشنا قضايا كانت موضع اهتمام مفكرين في مكان مختلف وزمان مختلف, ووضع اجتماعي وتاريخي مختلف.. أسمينا ذلك إعادة إنتاج الأفكار بما يتناسب مع واقعنا وزماننا, دون أن نواجه أنفسنا صراحة بمقدار انسجامنا مع ما نتوصل إليه من نتائج.

كان عندنا استعداد للقتال على جملة لا تعنينا في شيء إلا إثبات أنها صحيحة أو خاطئة. وأضعنا على أنفسنا قياس صدق ما نطرحه من أفكار بضجيج وبهدوء.. بالنتيجة كان النضج المعجون بالحياة للغالبية وأنا منهم يتوقف ويتعطل بالتعلق بأحلام لحياة لن تكون.. أحلام ضاعت منا ومازلنا نحاول التأكيد على أننا البديل.. كان كل مكان يجمعنا يمتلئ بالدفء, وكنا دائما مع هذا الدفء صادقين بقدر المستطاع.. صدق ودفء لا يؤديان بالضرورة إلى النضج, بل كانا يعززان مثاليتنا التي ستصطدم قريبا بمتطلبات الحياة ومطباتها.

اعتقدنا بنضجنا, ولم يبعدنا عن اعتقادنا ملاحظات الآخرين في محيطنا, كنا على استعداد لخوض المعركة مهما كلفنا ذلك, شعرنا أننا نحن البلاشفة وهم المناشفة, الكولاك أهلنا ومعارفنا, ومن في الحكم برجوازية بيروقراطية, وهكذا أسقطنا ما أسميناه أفكارنا ومعارفنا على محيطنا, بتبسيط وسذاجة غير مطلوبين, ولكن؟! اتخذنا المواقف بعد إطلاق الأحكام بتلك السهولة التي اعتمدناها في تبني الأفكار الجديدة. قتلنا متعة الشك في العقل مجانا وبدون مبرر وبدون مصلحة للذين تبنينا أفكارهم وشكوكهم. نسينا في زحمة أفكارنا ما قرأنا من تجارب الشعوب أن نؤسس لبناء تجربة مغروسة في الواقع, كان لدينا برنامج استراتيجي وانتقالي محبوك, تقفله معرفة اعتقدناها تكفي للسير باتجاه إنقاذ الوطن الذي بدأ يضيع في عالم غريب. كنا نشعر بالنصر القادم, أو هكذا توهمنا.. دون التفكير بقوة السلاح الذي حملنا, وبقدرتنا العملية على ممارسة قناعاتنا.. أسفنا مما يفعله الآخرون بنا, بعدم تفهمهم لنا, وقبولهم لخطئنا. نسينا أن الوطن لا ينادينا وحدنا.. ولم يحكم بأننا نحن الذين على حق, وأننا أفضل من غيرنا.. أو أن غيرنا لا يساهم في صناعة المجد الذي نسعى إليه, في فلك من بديهيات صنعناها تحولنا فخالفنا الدعوة المفتوحة للعمل في رابطة ربطت وجودها بإنعاش حوار ضروري بين

القوى الموجودة في الساحة التي اختنقت بتصلب القيادات وضعف الأفكار.. وعانى البرنامج بخطه الاستراتيجي والانتقالي من الجلوس على الرف والغبار في ظل تعطل المؤتمرات بسبب اشتداد الاستبداد.. وضع البرنامج أناس لم يكونوا ناضجين كفاية, كما وضع في ظروف تتغير تحتم النظر وإعادة النظر به. سعى لنيل تأييد الأممية الثالثة, مع الاختلاف معها في التطبيق للاشتراكية. أغمض العين عن مراهنتهم على نظام, مبرر وجودنا معارضته, ومبرر وجوده سحق كل معارضة له. بخجل طرح الأفكار على المستوى العالمي.. استقبل الحزب وعلى أرضية البرنامج لاحقا التغييرات التي جاء بها غورباتشوف بحماس ينطوي على التفاؤل بنيل الاعتراف, وبالحماس الساذج نظرنا إلى الكثير من الثورات التي تحصل في العالم. فتح ذلك الباب واسعا على تراجع سيزيد منه الوضع التنظيمي..

لست وحدي, كثيرون انتموا للحزب لا على أساس مناقشتهم العميقة للبرنامج, بل رغبة في عمل يترجم انتماء روحهم الغاضبة وحماسهم والتقاءها بالروح والشعارات التي يطرحها الحزب في كل لحظة, شعارات تتناسب والحماس الفردي. والإيمان بأن هذه التجربة الفتية يمكن أن تنتج حزبا يستجيب لمتطلبات الواقع. فدخل إلى الحزب بعض المتطفلين, الذين كان لديهم القدرة على خداع أنفسهم أكثر من اللازم, كما دخل آخرون في سن صغيرة لا تؤهلهم لحسم الخيار الذي أقدموا عليه, وآخرون حالمون أكثر مما هم فاعلون بالمعنى الايجابي وغير قادرين على تقبل التجربة بسلبياتها وإيجابياتها.. وآخرون, وآخرون.. فسيفساء مرتبطة بمجتمع يعيش على التناقضات الاجتماعية وينمو على ضعف مكوناته.. ومع ذلك كان يمكن للتجربة أن تعيش أكثر وأن تعطي أكثر لو أنه قدر للظروف الموضوعية أن تكون أقل قسوة.

لا أرغب في مناقشة الظروف الموضوعية رغم قسوتها, بقدر ما أرغب

في التلميح والدخول في الأخطاء التي كانت تبدو صغيرة لكنها كانت كافية للذهاب والتحول إلى حملة راية حمراء كنا في السر نرفعها, نعجز في العلن عن ذلك.. سأسمح لنفسي أن أشير إلى بعض الأخطاء دون أي منهجة...

كان العمل منظما قاعديا في خلايا مكونة من ثلاثة أو أربع رفاق.. لم أجد نفسي في أغلب الخلايا التي عملت فيها. كثيرا ما كنت آتي للاجتماع لتلبية الواجب, وتعليمات النظام الداخلي بالاجتماعات الدورية, اخترعنا مواضيع وأرهقنا أنفسنا بعمل, في أحيان كثيرة, كان يمكن أن يكون أفضل لو وجه باتجاه الاستفادة من الطاقات المتوفرة, نأتي ونستمع لما تم تحضيره من دراسات وتقارير, نناقشها بالكثير من التواضع والمجاملة, نرسل محضر الجلسة إلى الهيئة الأعلى, ليأتينا الرد بنفس الطريقة المدرسية التي تعيشها الأحزاب التي كنا ننتقدها بآلية عملها. أعتقد أن كفاحيتنا العالية واستعدادنا للتضحية كانا كافيين لقبول ما يجري من تدجين خفي, تدجين رغم كل ما يتطلبه برنامجنا الثوري من حيوية وديناميكية عالية.

لا ألقي اللوم على أحد بقدر ما ألوم نفسي, عندما أقول أن ارتقائي الفكري كان راكدا. فمهاراتي بقيت تقريبا كما كانت قبل أن أنتمي للحزب, تحول الكلام عندي إلى مهنة سهلة بعد التخلص النسبي من الخجل, أما الكتابة فبقيت هما ثقيلا رغم تمكني من الوصول إلى أسلوب سهل في صياغة الموضوعات السياسية المطلوب نقاشها.. كانت محاولاتي في الخروج إلى آفاق أوسع في المعرفة النظرية والعملية كمية. تشبه إلى حد كبير محاولات الحزب حيث مرت سنوات والعمل الجماعي ينتظر من ينتشله من دورانه في مستواه.. كانت القيادة مشغولة في تطوير نفسها, أو ترميمها, تستهلك نفسها بالقضايا الإجرائية التي تتحول إلى روتين.. وتتكفل بالحوار مع القوى الأخرى لتتكاتف معنا و تناصرنا فتنقذنا من

استفراد القمع بنا.. أخذت القيادة في الحزب دور المختار في القرية الصغيرة, أو الشيخ في طائفة ما... إضافة إلى التمرس بالكتابة واختراع المواضيع لإنتاج الجريدة المركزية والأدبيات المرافقة. بكلمة أخرى: تحملت القيادة مسؤولية كل شيء: الحوار مع الآخرين, الكتابة, حل مشاكل الأفراد, تأمين وضع الملاحقين الذين يتكاثرون ويرهقون جسد الحزب باستمرار, وغير ذلك من القضايا الكبيرة, دون أن يلغي ذلك دورها في التفاصيل السخيفة وحل مشاكل بيوت الرفاق والأصدقاء الذين كان يحتاجهم الحزب. طرحت مشاريع لتطوير الرفاق مثل الخلايا النوعية, وذلك لرفد الحزب بطاقات جديدة يفترض أن تكون مؤهلة ومدربة لرفد القيادة عند الحاجة.. دون أن يتمكن الجسد من لعب دوره الافتراضي في التفاعل وإغناء العمل الحزبي..بقى في مكانه إن لم أقل كان يتراجع مع النزيف إلى المعتقلات, وتزايد عدد المتمردين.. وبالنتيجة دخل بناء الحزب في أزمة بنيوية كشفت عنها الاعتقالات الأخيرة. وكمثال عما كان يجري أذكر ما حصل معي..

أتت فرصتي إلى الخلية النوعية بعد طول انتظار وقبل عام من اعتقالي, أطلقت أجنحتي وطردت ملل سنين مضت, ولما وصلت إلى الاجتماع الأول, فوجئت أنني مع رفيقين أعرفهما, أحدهما لا يحب القراءة, والآخر ليس لديه وقت للقراءة, مع أن دور الخلية الارتقاء بوضع الرفاق الفكري تحديدا, لأن الجوانب الأخرى ناضجة. أشرف على الخلية لمتابعة تطورها, أحد أعضاء المكتب السياسي. كانت الجلسة الأولى خطوة إلى الوراء ضغطت على أنفاسي, تمشيت والقيادي في طريقي للبيت, سألته, وللمرة الأولى أعبر عن عطشي لأكون في مكان يشدني للأمام.. ضقت ذرعا بالمراوحة والتراجع, سألته: ما هو مبرر هذا النشاط؟ هل هناك إمكانية للتطور في هذه الخلية؟! لم لا يوضع البرنامج في خليتي الأصلية فهي تحمل إمكانيات أفضل؟ لم؟ ولم؟ وكان جوابه: يا رفيقة بصراحة

أنت مظلومة. أرضتني تلك الجملة ومسحت كل سوء نية يمكن أن يزورني..

لحسن الحظ أو للأسف توقف العمل في الخلية في أوله, بسبب الاعتقالات.. التي حيرت الحزب وأفقدته البوصلة.. الرفاق في القيادة سرقتهم الأغلال على المواعيد, خطفتهم دون أن يساورهم أدنى شك أو خوف من المصير الذين هم ذاهبون إليه.. ابتدأ ذلك في الربع الثاني من عام 1986. ولا بد من حماية الجسد, وأحد الوسائل تخفي من يمكن أن يطاله اعتراف..

التخفي بالاحتراز, أي على سبيل الاحتياط في بيت إحدى الرفيقات, كنا أربع نساء, وكانت واحدة منا فقط تتحرك لتعود فتخبرنا بما يجري, انتظرنا التوجيهات, تغيب الرفيقة لساعات زيادة فيأكلنا القلق, تتأخر لتبلغنا أخبارا مزعجة, طبعا ليس ذنبها, ولكن تأخرها وطريقتها في إيصال الأخبار بعد كثير من اللعب بالأعصاب كانت تترك أثرا سلبيا لدينا.

احتفظت كل واحدة منا بموسيقاها الخاصة, فبدأت الخلافات الحادة معها في اليوم الثاني, وهذا لم يكن يمنع من أن تبدأ خلافات مع غيرها, وبحماس الشباب الذي كان, جلسنا جلسة نقد ووجهنا لها سيلا من النقد السلبي الذي جمعنا مواده أثناء تحرقنا لعودتها, فكل واحدة فينا يشغلها أمان الحزب بشكل عام, وأمان زوجها بشكل خاص, طبعا لم نصل إلى رفضها كرفيقة, ولكن أخرجنا ما بداخلنا من استياء.. كان الصوت قاسيا... في يوم آخر اكتشفنا وجود الطعام المميز في الثلاجة, بينما كنا نحضر العجة للغداء..(بيض مخفوق مع الطحين وبعض الخضار).. سألنا رفيقتنا صاحبة البيت عن سبب عدم تقديم ذلك الطعام لنا؟ قالت: إن هذا الطعام مرسل للشباب. ومن نحن؟! ألا يحق لنا ما يحق للشباب؟ نعاني الجوع والأكل في البيت وضحكنا.. مضت أيام التخفي الاحترازي

بمواقف نقدية وساخرة.. أيام قليلة ولكنها كافية لكشف ما نحمله من ضعف. ضعف في الأداء في الأوقات الصعبة, كان ذلك صيف 86.. عادت كل منا إلى بيتها نسيت كل التفاصيل والمواقف التي حصلت, لأنها بمعظمها كانت على أرضية الخوف والقلق الذي كنا نعيش.

كنا نعيش على مبدأ الضربة التي لا تميتنا تقوينا, قرأنا قوتنا التي ستكون.. ذكرياتي تهز الصمت الذي كان عن أخطاء أحسست بها وتجاهلتها.. ذكرياتي لو تجمعت مع الضعف الذي فيها والذي أنا فيه الآن ستكون كافية لعودة الخجل المعيب الذي نجحت في التغلب عليه. لذلك لابد من تشتيتها باللجوء إلى ما فيها من إضاءات. أو حتى إلى إضافة أنوار..

أنوار وإضاءات نصنعها لنغسل هموما أكبر منا, نخترعها لنبدد الخوف من هول النتائج.. نزين خيباتنا بما يجعل ذاكرتنا حية بآلامها تجنبا لأضرار الهزيمة.. كي لا ننسى, كما فعل غيرنا, ونمارس خيانة الخارجين للقادمين.. زينتنا نضعها لوقت محدد بحيث نتمكن من إزالتها في اللحظات التي نحتاج أن نكون نحن صورة لنحن. أو يكون كل شخص هو بغض النظر عما أراد.. وأكون أنا كما أنا.

أريد أن أكون الضمير المفرد المتكلم, ومشكلتي الأكبر أنني كلما نويت التحدث عن نفسي, حتى مع نفسي, أجدني أتكلم عن مجموعة بشكل مضخم أحيانا, مجموعة كنت معها في عمل سرق جزءا مني, وأعطاني شيئا ليس لي.. ما أخشاه أن أبقى أسيرة سجن أصنعه بنفسي, فأنا أعشق عمري الذي كان, عندما كان الحماس طريقي.. لقد بات بعيدا لكنه يسكنني فأراه بوضوح, بل أشد وضوحا مما يجري حاليا. هجرت ذلك الطريق, وبقي منه تجربة كافية لبعض دروس من أجل الطريق الجديد. أبحث عن ولادة جديدة.. لأكون أنا وليس غيري.. أريد أن أضع مشهد المفارقة بين روحي وعقلي في درج الذاكرة, وأضع بدلا عنه مشهد

الانسجام بينهما وبين سلوكي موضع التنفيذ, لأكمل ما بقي لي في الحياة من دون خوف ينهكني. أرنو إلى غسل أعصابي مما لحق بها. إلى التفاعل مع الآخرين بصدق, صدق بدأ يتحكم بي ولن أخالفه, يصل بي أحيانا لأكون جارحة.

قوتي المبالغ بها كاذبة, وضعفي الشديد طارىء.. يزعجني حالي حين تصبح شهيتي فاترة للحديث مع الناس, فأغوص في شبكة العنكبوت الخاصة بي.. أستنجد بكل قواي لأخرج.. وكل مرة أتمنى أن أكون في طريق كان يجب أن أتأمل باتجاهه قبل أكثر من عشرين سنة.. لأنال ما أستحقه وبالطريقة التي تلائمني, ولا أحتاج اليوم للبحث عن حياة جديدة أبوابها موصدة. وأكون إنسانة مختلفة عني حاليا أبحث عنها حين أعاني من التمزق. أبلورها على مزاجي , جميلة الطباع, بملفات سرية محدودة وحياة علنية تشرع أبوابها لكل جميل في الحياة, تناسب أكثر مفردات هذا العصر الذي أمقت الكثير فيه.. فربما كنت عرفت الراحة والشعور بالأمان, راحة أحتاجها الآن, وأرى فيها سعادتي.. وأمان أنشده أرى فيه سعادتي أيضا.. ربما كان تخلل ذلك منغصات أو فراغات مزعجة.. لكنني اليوم, وفي كثير من الأحيان, أرتهن إلى قصص تأكل مني الراحة والأمان, تحرمني النوم أحيانا.. تفسح مكانا للحسرة والتمنيات بدون فائدة.. وتدخلني في لعبة اختيار الطرق..

لا أحب هذه اللعبة حين تضعني بمواجهة قاسية مع الماضي الذي تشكلت فيه, الفرص التي مرت بقربي ولم أبالي.. الاحتمالات والواقع الحالي.. الآن كل شيء أمامي, وكل الأسئلة تحتاج لقبول تعطيل كل طموح لأقبل بالنتائج بدون حسرة..

بعد فتح درج الذاكرة, أثقلتني أفكاري في محاولات الولادة الجديدة, ووجدت نفسي وحيدة في مواجهة المشاكل التي عرفت أنها تنتظرني.. ليلا المخدة تدق في رأسي مسامير الخشية من الوحدة التي أضيق من

احتمال اضطراري للتعايش معها, نهارا: شعور بالحزن والعجز, شعور بالخواء دفعني لعمل أي شيء يعيدني إلى نفسي وهدوئها. حاولت الخروج.. الكتابة.. القراءة.. مشاهدة التلفاز.. التليفون.. محاولات عبثية أفضت إلى لاشيء. لا أحد يستطيع مساعدتي الآن للخروج من هذا الضيق.. الصمود لا يكفي, تعويض الذي فات غير ممكن, البداية من جديد سخرية من الماضي والحاضر معا, أصعب من المتوقع.. لقد تأذيت بما فيه الكفاية وأكثر من أصدقاء, بل من بشر بنيت استقراري النفسي عليهم.. من تجارب محبطة أوصلتني إلى هذا التعب, تعب يثقلني, يمنعني من الحركة. تجارب تحولت إلى مصادر قهر..

كنت في القاع عندما حدثني أحد الأصدقاء, على الهاتف, عن انتظاره لسهرة رأس السنة والميلاد وأنه يرغب بوجودي على نفس الطاولة حيث سنكون في ذات المكان جاملته بكلماتنا الشائعة, إنشاء الله, الحمد لله, وفي قرارة نفسي أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. قلقت بعد الحديث حيث أدركت في أقل من الثانية أنني حاصرت نفسي أكثر من أي وقت مضى.. وعرفت أنه إذا كان من الصعب مساعدة الآخرين لي فيجب أن أسعف نفسي بسرعة.. لجأت من قلة الحيلة إلى الكأس, وبدأت أحلم وأفلت قليلا من الحصار..

لخبطة المشاعر ورغبات الإنسان وهو في مرحلة عمرية تتطلب الاستقرار, انتقاله من حالة مسالمة إلى حالة مستنفرة.. يمكن أن يؤذيه.. وخوفه من تدمير كل شيء بناه, حيث رأى أنه بنى أشياء لا تناسبه يجعله يستغيث ليقاوم اتخاذ القرارات في تلك الحالة.

قبل سنوات كنت أخرج من الضيق بآمال الغد ببساطة تعاقب الزمن, اليوم أرى الغد أبعد كثيرا, أرى واقعية لست بحاجة لها, يجب أن أغيبها كي لا أغيب في توهان جديد يختلف عن التيه الذي كنت فيه منذ أعوام. تذكرت بيت شعر لمحمود درويش كنت أردده دائما في السجن" يطير

الحمام.. يحط الحمام.. أعدي لي الأرض كي أستريح.. فإنني أحبك حتى التعب " إذن يمكن للإنسان أن يحب حتى التعب.. ولست الوحيدة التي تأتيها المتاعب من الحب.. بل ربما لا يتعب المرء إلا من خيبات الحب. خذلان من نحب أصعب, ولكن أكثر صعوبة إحساسك بتعب من تحب.

أتاني التعب من: أمي أولا.. رحلت قبل الأوان. قبل أن أقُدم لها شيئا. رحلت بدون إذن هكذا حادث مروع تنتهي في ثانية وتذهب أحلامي المستمرة في التزود من حنان حضنها الدافىء, برحيلها رحلت الراحة عن أغلب بيوتنا, نحن أولادها, لم يطل الوقت ذهب الذهب من هنا, ترك مضر البيت مرغما, أخذت في التخفي اعتقلت أختي اعتقلت أنا, حتى البيت الذي حوى طفولتنا وأيامنا الحالمة أزالته البلدية. وكأنها هي من كان يحمي البيت ومن فيه.

ثانيا: من رجل أحببته في بداية خطواتي لاكتشاف الأنثى.. بذل كل جهده ليلوثني بدل أن يلونني ودون أن يقصد..

أولا": طرح علي أفكار رابطة العمل بساعات و كنت ناضجة للانتماء.

ثانيا: طرح علي ضرورة أن أكون حرة أكثر وأعطاني مثالا" واقعيا" للمرأة الجديدة عبر كتاب لألكساندرا كولنتاي يحمل نفس العنوان لأقرأه...امرأة جديدة بدون قيود العادات و التقاليد البالية و بأفكار كبيرة تحملها مسؤولية تغيير المجتمع مع الرجل.. وكنت أيضا" مستعدة و ما يعطلني هو الكثير من الخجل الذي أنا فيه.

ثالثا: طرح علي حبه مكافأة لي على استجابتي الأولى بدون تلكؤ و الثانية بقليل من الخجل و أيضا" هنا كنت جاهزة لأنسف كل ما في وجداني من بساطة وعلاقات وآمال.. بقي السؤال فقط عن علاقته السابقة التي أعرفها, فأكد لي انتهاءها..

كان شابا" يستطيع الغزل على أوتار الحماس كمعلم, فدخلت التجربة الحزبية بسرعة قياسية.. تركني بعد انتمائي أرتعش حزنا على انتهاء

علاقة, لم تكد تبدأ, بدون مقدمات بحجة أن النضال يتطلب ذلك, صدقته وهو يكذب, ساعدني أن لا أزرف الكثير من الدموع عليه استسلامي لمتطلبات النضال, في الحقيقة ساعدني على ذلك سذاجتي.. بعد فترة قصيرة أخذني وصديقته إلى زيارة أحد المناضلين في الحزب,(قمة النضال عندي كان في التخفي) كنت سعيدة بالتعرف على ذلك المناضل.. سهرنا حتى وقت متأخر, خرج وصديقته, كل شيء كان طبيعيا, إلى أن وجدت نفسي مرغمة على خوض معركة مؤلمة في رفض المضيف وبمواجهة إلحاحه الذي لم يكن له عندي أي تفسير.. معركة مؤلمة لأنها ستخدش مقدسات ومعاني كانت تشكل جزءا من أجنحتي, ولأنها ستبرز سذاجة لم أعالجها بشكل صحيح, عشت خوفا" كبيرا" ذكرني بالرعب الذي كنت أقضي به الليالي عندما كنت أزور أختي وأنا طفلة.. قاومت حتى النهاية. واستطعت لكن شيئا ما أضعت.. شيئا ما انكسر. قبل شروق الشمس أسرعت ألوذ بفرار منتصر خائف, أطلب الأمان, شعور بالأسف يشبه حالي الآن, مع فرق أنني في ذلك اليوم, قبل أكثر من ربع قرن كان الألم يزول مع بعض الأحلام دون أن يترك جروح مزمنة..

كأنه أتى ليخدش حياتي.. قلبها دون استعدادي لركوب الأمواج القادمة.. في ذلك الوقت انخرطت بكل جوارحي بالعمل الحزبي.. وأرسلت مع الريح قدرتي على الاختيار بين الطرق العديدة.. ورؤية الأمور كما هي.. حرمت نفسي من الشك بتصديقي كل كلام يقوله من يسمي نفسه ثوريا"..

عندما علمت أنه عاد و صديقته السابقة, لا أعرف سبب قبولي الأمر, ولم لم أسمي ما فعله خيانة؟! ربما لم أكن أحبه, و ربما اكتشفت في أعماقي كذبه فبررت قصر مشواري معه, وعلى الأرجح لأنني كنت أنظر له كثوري يحق له ما يشاء..

دخل المعتقل.. دخلت المعتقل.. لم نتواصل.. خرج قبلي وعندما خرجت

كان سلامه حارا" و دافئا.. كان مواظبا على التواصل.. لم يبق كذلك فقد أخذته الحياة بعيدا مع الوقت.. يقول بأني صديقة مميزة و أقول: المتبقي بيننا محدود ويقف تحت السطح بقليل... اعتقدت أنني سامحته بملء معنى الكلمة, وروحي تقول:

تحفر الآلام بالأعصاب وغالبا لن تنساها إلا وأنت تعيش سعادتك..

ثالثا... مضر الذي رحل بدون استئذان أيضا, مرة أخرى رحيل ليس من أحب فقط بل من أحتاج. بدأ رحيله منذ ذهابه إلى حلب, حيث تردت صحته إلى الحد الذي جعله لا يتحمل كل ذلك التعذيب الذي ينتظره لقاء الصمود الذي تحلى به. رحل وبرحيله تركني أقود السفينة بمفردي, إنني بحاجة للاستسلام والعواصف حولي, تركني لأقود السفينة في عتمة ليل ودون أمل بفجر قريب, تركني أسبح في العتمة والهموم الصغيرة والتافهة بتعريف الزمان الذي كان يعيش.. سلم روحه, ولم أنتبه إلا وأنا أتخبط في الحزن, قادتني السفينة إلى المكان الذي أنا فيه بالتعب والإحساس بالوحدة. ذهب وحيدا.. وحيدا بكل المعاني.. كأن به يصرخ من الألم الذي انتزع روحه وهو في أحلى سنوات عمره.. لم ينتظر حتى يكتشف إلى أين كانت تأخذنا خطواتنا, كان يعتقد أن يوما قريبا سيجمعنا في ساحة المعركة.. لم يخطر بباله أننا كنا نمسك بقوس قزح خدعة, وأنه سيذهب إلى غير رجعة بتلك العجالة التي ستغلق كثيرا من الأبواب باتجاه الأمان أمامي, لتفتح بدلا منها أبواب الخطر.. كنا بعيدين عن أحلام علت رايتنا ومازلنا نبتعد عما حلمنا به.. لم يسأل عن الأحزان التي ستغزو أجسادنا وأرواحنا وزماننا.. لم يعلم أنه اختصر طريقه ليعقد طريقي وغيري ممن يحتاجه.. ذهب ليتركني في تيه أستجمع فيه كل شجاعتي لأعبر..

رابعا... قمري, ابنتي التي لم أستطع بناء تفاعل وتواصل معها يرضيني, فارق السن ليس سببا أساسيا.. لا أستطيع فتح بوابات مغلقة بيننا.. أبحث

معها عن صداقة رغم وجودها بقيت سنوات دون ترجمة للغة مشتركة رغم كل الحب الذي يجمعنا.. أذهب إلى ذكرياتي لأبحث عن الأسباب فأتحسس تلك الدروب التائهة التي مررت بها ولم أنتبه, أرى الخريف الذي كنت أبنيه. والربيع الذي كنت أحلم فيه.. أحتاج مساعدتها لأغفر لنفسي ذنبا اقترفته.. لنعزف معا لحنا كتبته عيونها في اليوم الثالث لمولدها.. لحن مليء بالحب والحيوية..

يستطيع المحبون أن يؤلفوا السيمفونية المناسبة لأرواحهم.. ويتبادلوا ملء الفراغات التي تطرحها الحياة ماداموا لم يجرحوا بعضهم بقسوة.. ولكن عندما يخط الجرح عميقا دون معالجة فإن النوتة الموسيقية ستبلى ويبدو أي عزف لها نشاذا يضر بمن يستمع.. وستكون أغنية الحب المرافقة مختلفة عن معانيها عند كل منهم.. فيختلط الحب باللوم.. ويأخذهم اللوم إلى صمت يحول الفراغات إلى هوة يصعب ردمها.

خامسا... كذبة اخترعتها لملء العديد من الفراغات التي ملأت عواطفي.. كذبة اعتقدت أنني أستطيع أن أكلمها في كل وقت وفي أي موضوع ومهما كانت حالتي.. أتشبث بها.. ألجأ إليها لأشعر بتوازني.. كذبة بدأت تغور يفصلني عنها الضباب الكثيف.. تختفي بين الغيوم مع أفكار كثيرة أريد التخلي عنها لإتمام ولادتي..

سادسا.. أنا التي يسكنني عفريت الضياع.. عفريت الوقوع في الحفرة مرات. أنا التي لم أشعر بالحب الكافي لنفسي, لا بسبب نكران الذات الذي كنت أربي نفسي عليه, ولا بسبب دونية لم تزرني في يوم, أو تضخم ذات مستحيل مع صفاتي, بل بسبب تربية جعلت كل الدروب الصعبة تناديني, دخلت فيها بدون أسلحة, خرجت إلى زاوية أكثر ظلاما مما توقعت, أبحث عن متكأ لأسند جسدي المتعب فلا أجد.. أسعى لوصول أعرف أنه لن يكون إلا بالصدفة ورؤية ما تفتحها من إمكانيات.. وتحويل الإمكانيات إلى بناء يرتكز على خبرة السنوات التي مضت. يعود ذلك بي

مرة أخرى إلى ضرورة تناول ماضي لا كصنم للعبادة أو التحطيم, ماضي يحررني أحيانا ويقيدني أحيانا أخرى.. يدفعني إلى الأمام فيه ما صنعته بقراراتي, ويقيدني ما صنعته بواسطة عدوى الشجاعة, ألوم نفسي لأنني قبلت أن أكون في الصورة في مكان غير محدد أتطلع إلى البعيد أكثر من اللازم.. وعندما نسيت أنني هناك لأكون, التصقت في وجهي علامات الانكسار.

منذ أكثر من ربع قرن, صهرت أحلامي الصغيرة بـأحلام الكبار للرد على الظلم, وأي ظلم؟! ظلم أحس به وظلم أراه.. ظلم يفرزه الموروث الاجتماعي موجود في داخلنا.. وظلم تتغير أشكاله ودرجاته في المحيط.. غافلت الظلم الداخلي وواجهت الظلم الخارجي مع نساء ورجال جمعتنا رؤى لحياة أفضل.. لم يخرج تنظيم العمل المشترك بيننا عن أرضية التفاعل بين ضعف المرأة وقوة الرجل النسبية الذي كرسته آلاف السنوات من الاضطهاد في مجتمع ذكوري ينطق بكل ألوان الاضطهاد وخصوصا على المرأة بالرغم من المكاسب السياسية التي منحتها إياها الحكومات تقليدا أو استجابة..

تظل المرأة في كل مكان بدون الوزن المناسب لأخذها الدور الذي تستحق.. فللظلم الداخلي بصمته على دورها حتى عند مشاركتها بالنضال المنظم في أحزاب سياسية, وحتى في تنظيم عملها للنضال من أجل قضاياها.. تستهلكها التفاصيل وضغوطات الحياة المعيقة فيضر ذلك بتمكينها في الحياة العامة.. في المجتمع الأكبر يكون الوضع أشد ظلاما وظلما, خاصة, عندما تستمتع بدورها المحدود في الحياة, وتقبل بعبوديتها, وبكونها دائما في موقع منفذ الأوامر والتابع. وتظهر تبعيتها في سعيها الدائم لإرضاء ذوق الرجال, الذي هو ذوق المجتمع.. تبدأ حكاية الظلم الداخلي وهي جنين, بخوف أهلها من قدومها بغض النظر عن الأسباب, يزرعون خوفا تحصده مع الظروف المنسجمة

معاناتها بكونها امرأة, وتلتقط ثماره حين تكبر ترددا, ضعفا في اتخاذ القرار, خوفا من الغد, إحساسا بالتعب.. خوفا من المحيط.. وغير ذلك مما يكبلها.. أشياء, في سعينا للتغيير, اعتقدنا مخطئين ألا أهمية لها فتجاهلناها ثم دفعنا الثمن..

في تجربتنا, هناك رجال قضوا أكثر من خمسة عشر سنة وراء القضبان, افتخر بهم المجتمع واستقبلهم عند خروجهم استقبال الفاتحين. فتحوا أيديهم للحياة, وتمكنوا من اللحاق بجيلهم بتكاتف الجميع معهم.. بينما أربع سنوات من السجن للمرأة جعلت شروطها في العيش صعبة, قيدها إحساسها بأنها مدينة لعائلتها التي احتضنتها في حبستها.. رأت نظرة المجتمع غير المبالية بها, في أحسن الأحوال, مما جعلها تلوك أعصابها وتستنفذ جزءا" من قواها في لا شيء.. عاد جزء منهن لوضع قيود الموروث, وأخريات استسلمن لقدر أمهاتهن ففتحن أيديهن للسماء طلبا للعون.. وقلة ما زلن يحاولن الدفاع عن وجودهن الحر والمستقل.. أكدت التجربة أن المرأة هي الضحية الأولى في الشروط غير الصحية, وهي أول من يلفه النسيان عندما يتذكرون البطولات.. وأن التعليم والعمل, رغم أهميتهما, لم يمكناها بالخروج نهائيا من أزمتها, وأن المشاركة في المنظمات السياسية والاجتماعية لم تخلصها كما يجب من قيودها.. كثير من تلك القيود عشش بين ضلوعها, تخرج ما تحتاجه منها لتعيد اندماجها بالمجتمع وفق السائد الذي اعتقدت أنها رفضته. هذا لا يمنع الوجود اللامع لبعض النساء, لكنه وجود محدود ومرهون لوضع عام بائس... غالبا, تتحرك المرأة ذهابا وجيئة بين حقوق تعتقدها وهي شابة, تتنازل عنها عندما تصبح أما" على الأرجح كما فعلت قريبتي..

بعد الزواج, عبرت له أكثر من مرة عن استيائي من غروبي السريع, من تراجع حضوري في المجال الثقافي. كان يتقدم حيث أتراجع, لا لشيء إلا لأنني أخذت دوره في الواجبات الاجتماعية الثقيلة, فدخلنا في فرز جديد,

فرز من نوع مألوف, تعود عليه أهلنا, الذين لم يكن لديهم أي نوايا في التغيير, فرز يقر بتفوق الرجل على المرأة.. والموضوع في جزء أساسي منه يعود لعدم مطالبتي بحقوقي ورؤية مصلحتي فيما أقدم عليه.. لم أختلق معاناتي, بل كانت استجابة لجاذبية الفراغات التي تساهم في تشكيلي.. أصبح التقدم رغبة لا طاقة كافية لي للحاق بها.. وبات التراجع يثقل تفكيري وينتزع ما بقي من ثقة في النفس, سقط قلبي عندما تهاوت قدراتي وعرفت أنني أعيد حكاية الخضوع التي كانت تنتظرني وراء ضياع الوقت خارج رغبتي.. تلك التي انقلبت عليها قبل سنوات. وأخذت أرسم قيودا تنسيني أنني أمشي في اتجاه مختلف عما أرغب.. وبقيت أدور في دوائر كلها مرسومة في المستوي لسنوات في كل مجالات حياتي..ولسنوات بقيت في نفس المكان حزبيا, انتقلت منه في العام الأخير.. عام هلاك الحزب تحت ضربات آلة القمع..

لم أفكر حينها في حل لغز العلاقة بين نسيانهم وتذكرهم لي, ربما انتقلت إلى مكاني الصحيح.. وربما وضعي كملاحقة والنزيف إلبالمعتقل فرضني لضرورة رفد القيادة.. لا أتذكر إن كنت حية كما يجب في المكان الجديد حيث ينتظرني التجريب.. جئت بصمت, كما كنت أحتمي بالصمت.. سلوك أخال أني تخصصت به على مر الأيام كي لا أعلن وداعي للذين في المكان معي. كان مطلوبا مني أن أتابع أمن جزء من التنظيم, أن أتابع التطور الثقافي للبعض, وكان علي أن أكتشف أنا الطريقة المناسبة, سيتم ذلك في ظروف حربية مكشوفة تصل فيها مراسلاتنا بالصدف السيئة إلى من يلاحقنا.. كان يلزمني الوقت لصقل أدواتي التي استعملتها دون توجيه في ظل الظروف الاستثنائية.. انتهى الوقت دون بقية لإكمال عمل واختباره.. كانت طريقة العمل, روتينه تشل الجميع, روتين مدرسي بطيء, لا يبشر بإبداع يذكر.. بقيت هناك أشهرا لأكتشف أن العمل فوق نسخة عن العمل تحت.. وعلى هذه الأرض

الهشة اكتشفت احتمال محدودية آفاق من سبقني.
قبل ذلك بعشر سنوات أصبح الأصدقاء حياتي على حساب الأهل والقراءة وتطوري الطبيعي.. بعدها بسنتين أصبح الحزب حياتي, على حساب الأصدقاء, والأهل, والقراءة التي أرغب, والأغاني التي أحب.
بدأت أحب وأحترم أي شخص من حزب العمل ودفنت رغبتي في التعرف على الناس حين وجهتها بقسوة الجاهل لخدمة الإطار الحزبي.. بعد سنتين أصبحت حياتي محدودة, جاءت في ذات الوقت ابنتي فلونتها وقطعت الطريق على احتمال بحثي عن حل.
أشياء تحل مكان أشياء.. وبشر مكان بشر.. وانفراج يساهم في الخروج من مشكلة.. سلسلة فيها الألم وزواله, المشكلة وحلها من دون تدخل واع.. من دون تفكير بالأفضل من الحلول.
بعد سنة رحلت أمي, تغير نظام السنتين الذي كان أشبه بدورة لقبول التحولات. غزاني الضيق ولم أنتبه إلا وقد ضقت ذرعا بكثير من تفاصيل حياتي اليومية, والتي من المفترض أن تشكل أساسا" لسعادة أتمناها. جنبني التعلق بالقضايا الكبرى والهموم السامية المواجهة مع واقعي السلبي, ومع الوقت أصبحت الطرق المغلقة حالة طبيعية, وبات فتح الطريق الصحيح محفوفا" بالمخاطر, استمر ذلك حتى مررت على يوبيلي الفضي, وبدأت أميز قليلا بين الرفاق, مع احتفاظي بالحب للجميع بواسطة رسالة الغفران لمن نحب.. ليصبح نضجي الخاص وتعلمي من الحياة مجمدا".. وأصبح مسّيرة بإرادتي والشلل نصيبي.. مقسمة حياتي بنسبة بين ما أنا عليه وما أريده..
في طفولتي, كنت أهتم بجدتي المشلولة. وكنت أخشى أن أصاب بهذا المرض, دون أن يخطر ببالي أن للشلل أشكالا", إذ يمكن أن تكون مشلولا حين تركض بعيدا عن وجودك وروحك وحاجياتها.. تركض باتجاه وحدة لا تريدها ولم تتوقعها لأنك كنت تركض مع كثيرين.

يساعد العمل السري على ذلك الشلل إذ تتفاعل مع الآخرين في الحزب على المستوى السياسي فقط, وتكون النظرة إليهم مغلفة بمثالية لا تنتهي, وتصبح معرفتهم وأنت تنتمي لهم مستحيلة.. لا ترى المتناقضات التي تجتمع بالصدفة وبالضرورة وعلى مدار الزمن الذي يجمعك بهم.. تدافع عنهم إن اقتضت الحاجة دون أن تنتبه إلى احتمال انزلاقهم في الخطأ.. لا تعرف الرجوع إلى نفسك في الوقت المناسب, لا تعرف إن كنت تفعل لتصل أم تنفعل داخلا في خزان من الوهم.. تتجاوب, أم تستجيب لتعترف بقيود دفعت ثمنها وأنت تنام, تسير أو تساير متخليا عن رؤيتك, تحقق ذاتك حيث وعدت نفسك أو ترفع راية غيرك, تبحث عن الحقيقة أم تحول المجرد إلى حقائق.. تعمل على تغيير القوانين التي ترفضها أم تساهم في صنع قوانين احتراقك.. تصحو على إشراق غد أجمل أم تسكرك أحلام مستحيلة..

أحلام تفتح على جروح تشعر بها عندما تكون وحيدا.. تصل إلى نفسك, إن بقي لديك رمق, بعد فشل التجربة شاعرا بذلك الشلل.. وبشكل أشد قسوة حيث تصل وأنت في سن تتطلب النضج وترى نفسك عاريا شاردا, أضعت الطريق ووصلت إلى نهاية لم تكن في الحسبان.. تحاصرك الوحدة حيث قررت عدم الدخول من جديد بوابة الأمنيات المستحيلة متذكرا بالصدفة مقولة أن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.. تشعر بكل ذلك وأشد حين تظل مشدودا لهم, أولئك الذين مررت معهم من عنق الزجاجة.. تخشى أن يذهبوا مع الأحلام التي تغيب في عتم لا تعرف نهايته..

تقطر ألما تجربة سنين وسنين مختلفة عند تذوق مرارة الإحباط في عصر الخيبات..

كنت منسجمة مع السرية, فتعطلت عندي حاسة الفضول إلى النهاية, ومنعت نفسي من كل أشكال الشكوك حتى السليم منها, ففقدت الدور

الإيجابي في مراقبة الآخرين, وفي الطريق عطلت مراقبتي لنفسي كما يجب, فلم ألحظ التحولات التي أخذتني بعيدا عن الطمأنينة.. كنت مازلت على يقين بصلابة السرية في الحزب.. عندما جاءني قرار الرحيل عن دمشق إلى حلب لأعيش كملاحقة هناك. حينها وهناك اكتشفت خلافات الرفاق في المنظمة.. كل رفيق يجزم بأنه الأكفأ, ودائما حلب ومنذ عام 83 كانت تحتاج إلى قيادة قادمة من دمشق, المنظمة صعبة ومنتشرة في كل الشمال بتنوعه: الإثني والطائفي, والكفاءات هناك متقاربة لدرجة عدم اعتراف أحد بالآخر.. كانت المنظمة مكشوفة على بعضها أكثر من منظمة دمشق, وتنتشر بعض خلافاتها الكثيرة مع رائحة بحر هائج, رائحة تفترض الظالم والمظلوم, الكل يشتكي.. والحاجة إلى التدخل من قبل القيادة, غير المرغوب بها أصلا, لفض الخلافات دائمة. وكان السؤال عن الأسباب التي تفرز خلافات تحتاج إلى تدخل خارجي.. ربما تكون خلافات شخصية طفت على السطح زاد فيها اتساع مساحة التعارف بين الرفاق في مدينة لا تتحمل السرية, تركت باب الفضول مفتوحا" أكثر من اللازم لتفتح واسعا على تلك الخلافات.. هناك, دمشق أكثر مدينة في العالم تعرف كيف تتستر على ما يجري فيها من أخطاء.. دمشق وقوانينها الخاصة في التستر على ما تريد.. قوانين يتعلمها الغرباء فيها ويتعلمون استخدامها بسرعة..

سمعت في البداية أن الموضوع يتعلق بوجود رفاق يرفضون العمل الحزبي والانضباط المطلوب, اضطروا للتخفي, قبل أن يكونوا مؤهلين, كما كان انتماء بعضهم وتفرغهم في الحزب غير مرغوب فيه, فرضت ذلك الضرورة وأحكامها. تعقيدات فرضتها السرية على العمل الحزبي في مدينة أغلب من يتحرك فيها باتجاه القوى الديموقراطية ليقولوا لا, أولئك الذين أتوا من الأرياف والذين سيعانون دائما من فضول الفلاح وتهيؤاته فيهم..

في قمة انشغالي لاستيعاب الحقائق التي أخذت تتهاوى أمامي, وجدتني في قيادة العمل.. وفهمت أن الأمر أبعد من الرائحة التي وصلتني.. علمت أن هناك خلافات وصلت حد الاشتباك بين الملاحقين, علمت بتفاصيل تتطلب غربلة أفكاري والنظرة المقدسة إلى كل ما يتعلق بالتنظيم, ستسافر المثالية قليلا و بما يكفي لأن أتغير, وأعلم أن الصمت لن يكون حلا.. كان لي دعوة مفتوحة لكشف الكثير من المستور.. داخلي مازال ينجذب للفضائح, ومازلت مستعدة للتورط في أحاديث جانبية تتناول مصداقية الآخرين دون مواجهتهم, هناك الكثير في اللاشعور سيعبر عن نفسه, وسأعلم أنني عندما قتلت فضولي, إنما وضعته تحت ستارة سوداء, ستكون إزاحتها سهلة عندما تتغير الظروف, عرفت أنني لم أتغير كما يجب, إنما قيدت جزءا من روحي وعقلي, ولن أبدأ بالتغير الفعلي إلا بعد خمسة عشرة سنة, أرجو ألا يكون ذلك بعد فوات الأوان, كما يحدث معي في العديد من الأشياء.

كان يجب أن أعرف من البداية أنا وغيري أننا بشر, والبشر يخطئون, ولن يتعلموا من أخطائهم إلا إذا اعترفوا بذلك, بدأ عقلي يصحو, وقبل أن يكمل رحلته لاتخاذ خطوة أتت ظروف غيرت مسار رحلته. كانت هذه المرة مغايرة, مختلفة عما قبلها. وليست مفاجئة لأنها متوقعة.

كما الموت, صدفة وضرورة, جاء دوري في الذهاب في ذلك الانتقال القسري, كان انتقالا من نوع خاص, انتظرني فيه كل شيء إلا الحضن الدافيء الذي كنت بأمس الحاجة له. حدث ذلك في أواخر عام 87, بداية لدخول لا يعرف الساعة ولا أي شكل من أشكال الزمن.. سأكون في مكان لن أشعر بالألفة معه مطلقا..

مكان وزمان تمتنع فيه الصدف عن منح الفرص, موحش, يصعب فيه التفكير السليم خاصة عند وضع اليد على الجرح, قيدت أجسادنا, ولم يعد لدينا إلا الانتظار, انتظار زمن قادم, وحده كان كافيا لنعرف أننا كنا رغم

كل ما نحمله من تميز, واقعين في فخ الاعتياد وقبول عدم إشغال العقل أمام إرادة تصلبت مع الأحلام التي كنا نخشى اغتيالها..

قبيل ذلك الرحيل, كنا ثلاثة في البيت, وهو البيت الرابع لي في حلب, الثاني بعد عودة مضر إلى دمشق, يساورنا القلق والشكوك حول مصيرنا, من جهتي: تزعزع إيماني المطلق بعض الشيء,.. والوقت كان أقل من أن يعبر بي إلى النغمة المناسبة لي في مدينة خدشت مثاليتي.. إذ اعتقلت قبل أن أدخل في الخلافات والاصطفاف الذي كنت معدة له.

الفصل الثامن

سفر في ليل حالك

اعتقلنا الثلاثة من البيت, لم تنفعنا خططنا للهرب في حال المداهمة, دليلا على هشاشتها وعدم جديتها. كانت مجرد أحاديث للتسلية, كما أشياء كثيرة شغلت تفكيرنا عن الأهم في ظروف العيش على الأعصاب.
المداهمون للبيت, وكانوا كثرا" حملوا علينا حقدا غير مبرر, لم ينتظروا أن أغير ملابسي وكنت في ثياب النوم إلا بشق النفس, اضطررت للبس تنورة لأن كل ثيابي كانت مغسولة, ربما لم يكن لدي الكثير من الثياب ولا من البنطلونات بسبب التمويه الذي كان يشغلنا وبالإمكانيات الضعيفة المتاحة, كان التمويه مضحكا, الآن أراه كذلك.. سابقا كان قمة ما توصلنا إليه بالتفكير.. بعض التعديلات على الملابس. بالنسبة لي كان قمة الاحتراز الاعتماد عل لبس التنورة.. التي اعتقدنا أنها كافية لإعطاء صفة عدم التمرد على المجتمع.. حيث لم يكن البنطال سائدا كلباس عند فتيات جيلنا على خلاف هذه الأيام..
استأجرنا بيتا مستقلا بعد قدوم القيادي الجديد إلى حلب, حيث كنا نسكن عند امرأة طريفة كبرت وظلت تعيش كأنها قبل أربعين عاما, علقت صورتها وهي تعزف على العود عندما كانت صبية. كانت تغير البياضات كل يوم أربعاء, الحمام الرسمي يوم الخميس ورش العطر في كل جوانب غرفة النوم وخاصة في السرير, كنا نسخر من هذه الأشياء ونحن نجاملها, أما الآن فأرى أنها كانت تحافظ على سلوك وعادة تمنحها

القوة لتقبل شيخوختها. تحافظ على عادة تربطها بالحياة اعتادت عليها لزمن.. ألفت عاداتها وربما تشتاق حقيقة إلى العودة لذلك الزمن. اعتقلنا في أكثر أيام الشتاء بردا في 2-12, كان رئيس الدورية قد زارنا في اليوم الذي سبق بحجة الكشف على تمديدات الهاتف عند الجيران للتأكد من وجودنا على ما يبدو.. كنا مراقبين بدقة عالية, وبعدم انتباه عال من قبلنا, رغم كل الحذر الذي تعلمنا إياه وتدربنا عليه, ورغم كل التمويه الذي قمت به, عبر عناصر الأمن عن افتقادهم لي في الشوارع لمدة أسبوع, أشار أحد العناصر فرحا: إنها أم الزهري, إشارة إلى لون ملابسي في تلك الأيام..

شغل القهر مساحة أكبر لدي في السنة الأخيرة قبل الاعتقال.. قيدني.. رماني لاختيارات كانت مستحيلة.. بدأت أمل الشعارات العريضة, أنفر من التفاؤل بدون مقومات, شعرت بالعزلة والوحدة وسط المنظمة التي تدعوني للاصطفاف بمعايير اعتقدت أنني تجاوزتها, لم أفكر بالهرب أو التغيير, حيث لم يكن هناك متسع للتفكير بذلك كما أنني لم أكن أشعر بالعطش لأجد نفسي كما أريد.. لم أبحث عن نفسي خارج المجموع.. حولني ذلك مع التناقضات التي عشتها إلى شتات يصعب علي جمعه.. أن تنتمي إلى جمع يبحث عن باب للدخول في جنة التغيير. تمسك بأسلحتك الخاصة في المعرفة والوجود.. وحدها ستحميك عندما تختفي الأيدي التي افترضت أنها ويديك متشابكة في رحلة تصل بكم إلى بر الأمان, وحدها تفيدك في إعداد نفسك جيدا" لكل الاحتمالات. وحدها مع مساحة الحرية التي انطلقت بها إليهم تسمح بتأسيس قانون عادل يربطك بهم وبغيرهم.. حين تتركها تترك وغيرك كل الحريات, في لعبة الخائف الذي لا يعترف بخوفه والمخيف الذي لا يعترف باستبداده.

عاما 86-87 حملا من الغموض بقدر ما حملا من آلام أصابتنا, الكل مهدد بالاعتقال.. بالعزلة عن ساحة النشاط السياسي. في الشهر التاسع

من العام الأخير, طالت الاعتقالات معظم الجسد في حلب والمناطق الأخرى. وكان السبب الأهم للغموض في أن معظم البريد الحزبي يصل إلى الأجهزة المكلفة بالقضاء علينا..

في فرع التحقيق العسكري في حلب تعاملوا معنا, كما تعاملوا مع الأخوان المسلمين قبل سبع سنوات, لم يأخذوا بالاعتبار أننا لم نكن مسلحين, وأننا لسنا بأصحاب خطط للهرب, أقصى ما يمكننا فعله أن نأخذ حذرنا, ولا ندخل بيت سبقنا إليه عناصر الأمن.

خلال دقائق كنا في الفرع, كانت رفيقتي تناقشهم في سيارة الاعتقال حول عدالة قضيتنا, بشعارات كبيرة, شعرت في تلك اللحظة مقدار تشبثها بالصياغات الجاهزة التي سبق وأن نشرت في أحد البيانات الحزبية, لا أعرف إن كانوا يسمعونها, مع شكي بذلك, الآن تيقنت, لأن تلك الشعارات لا يمكن لغير الذين في الحزب أو المهيئين لأن يكونوا في الحزب, أن يقتنعوا بها بهذه السرعة, فكيف إذا كانوا بشرا قبلوا عبوديتهم وهربوا من البحث عن دنيا أوسع. كرهونا قبل رؤيتنا, بذهنهم أننا بديل سيخرب مملكة أسيادهم, وهم لا يفصلون وجودهم عنها, لم يكن سهلا أن نعلمهم معنى الحرية في ثوان. ربما كان بعضهم يفعل ما فعل بنا رغما عنه, ولكن واضح من أشكالهم أنهم لن يأخذوا بطريقة الكلام التي تعودنا إياها مع المثقفين أو الرافضين. الجهل والخوف كان كافيا عند البعض ليكرهونا, طبعا ليس بالضرورة أن يكونوا معنا إن لم يخافوا منا, أفكارنا تحتاج للنقاش, تحتمل الخطأ والصواب..

هذه هي الحياة: بشر تظل شهيتهم مفتوحة على الكلام في الآمال العريضة.. وآخرون يحملون الراية نفسها بصمت المتفرج والمرتبك, وبشر رضوا بكل أشكال الخنوع على استعداد للدفاع عن السلطة أكثر من أصحابها.. كانت تتكلم وكنت أستمع وأقول اخترت لروحي هذا الطريق بالحرية الكافية للانتماء, ولم أكن بالحرية الكافية للاختيار..

تسلحت بالصبر.. تقبلت الأفكار كما هي غالبا.. لم أعرف نفسي كما يجب.. هجرني القلق عند الحاجة وأغلقت الشجاعة الباب في وجهي عند الحاجة.. تأملت لدقائق خفت من نفسي, صمت وفي جعبتي كلام أكبر من الصفحات التي ألونها الآن...ماذا لو كانت الدنيا التي أنا فيها خالية من الفقر والفساد فأستغني عن هذا الموقف؟ ماذا لو كان فيها مساحة أكبر من الحرية للبشر؟ ماذا لو لم يكن فيها الخوف الذي يحاصرنا؟ ماذا لو كان فيها حقوق للمواطن يتناسب والعصر الذي نعيش؟.. ماذا وماذا لو كان عملنا علنيا؟ السرية غطت الكثير صعبت علينا الاعتراف بالخير والشر الذي فينا ومنحتنا القوة الخارقة في تسمية الأشياء بالطريقة التي نحب.. أعطتنا الأجنحة والخفة للصعود إلى النجوم بنشوة من يصل إلى أحلامه. كنت ومازلت طيرا ساذجا في دنيا لا تحتاجني بالقدر الذي توقعت, أقول طير للتعبير عن الخفة التي أنا فيها حتى الآن.. وأقول لا تحتاجني لأنني لم أستطع أن أجد الحيز الكافي لامتحان قدراتي مع الذين رفعت رايتهم ولم أمتلك الرؤية الواضحة لذلك..

طريقنا كان أشد وعورة مما اعتقدنا, كان طريقا يحتمل الوصول, وما وصلنا..

عندما أدخلونا باحة التعذيب, فوجئت أن كل المنظمة تقريبا في تلك البقعة التي تضج بالظلم. سبقونا لاستقبالنا, نحن قيادة المنظمة هناك. ثلاثة هي وهو وأنا, ثلاثة ضمائر اثنان منها غائب المفرد وثالث مفرد المتكلم الذي سينعقد لسانه أمام هول ما يجري, وكنا الثلاثة في غياب, لن يعترف به صراحة أحد قبلي بحسب اعتقادي.. وأقصد بذلك الإعلان الذي أتقدم به الآن.

شباب عراة من الثياب الخارجية في جو الصقيع, كانوا يرتجفون ربما من البرد وربما من الخوف, وربما كنت أنا من ترتجف.. ومن الممكن أن يجتمع الخوف والبرد والشجاعة في لحظة خاصة في مثل تلك اللحظة.

في الطريق إلى هذه الباحة كان ذهني شاردا بالكلام الذي أسمع, وهي تلقي بمحاضرتها على الذين يقودوننا إلى المنفى. بينما تتحطم كلماتي وتتجمد, أذهب بعيدا وعيني على الشوارع التي لم أعد أتذكر منها شيئا, كانت قواي العقلية مجتمعة تغيب في لحظة لأسأل: عن المسئول عن كل هذا اللحم المصلوب؟ لماذا فرحوا عندما وجدوني في البيت الرابع لي هناك؟! هل لخطورة لي يتوهمون بوجودها؟ أم لإثبات صدقهم في نقل ما كانوا يشاهدون لأسيادهم؟ كنا تحت سيطرتهم ونظرهم ونحن ننعم بالأمان المرتكز على ضعف المعلومات .

أتساءل لم كانت كل هذه المواعيد في الشوارع المكشوفة ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا؟ كنت غريبة عن حلب وألف الشوارع الرئيسية أحيانا مرتين في اليوم ولم يكن أسهل من رؤيتي ومراقبتي وغيري.. تتالت الأسئلة في ذلك المكان الذي لا يتسع لنبض القلوب, كانت تتولد أسئلة أكثر واقعية وإحراجا من السابق. هذا إن كان في السابق أسئلة ذات معنى عملي.. كانت الأسئلة الجديدة تخرج من الأعماق ولن تجد مجالا للتفاعل, ستتحطم أو تحترق أو أحترق أنا قبل أن تصل, أسئلة بدت في البداية خائفة وخجولة, ولن تنتهي لأنه لم يعد هناك مجال للهرب منها, إنها تلح في البحث عن الثغرات التي رافقت المطر الذي تنبأنا قدومه.

مع القلق السابق والخشية على مصير الحزب وبعد وصول بعض المعلومات اختصرنا ما وصلنا إليه بخائن باع, وبحملة شرسة؟! في باحة الفرع تساءلت هل يكفي وجود خائن وبعض المنهارين لكل هذه النتائج؟ لم نكن أول زرع ولن نكون آخره, لن نكون خالدين في بلاد أبناءها عبء عليها.. اختار بعضهم درب البطولة.. سعوا للأفضل المتخيل.. بصفاء قلوبهم لم يروا ظلام الليل وقوة الوحوش الذين يزيدون من ظلامه ولم ينتبهوا إلى النقص في الرؤيا والمقدرات. صحيح أنهم رفضوا التعمية التي كانت تسمى قدرا, ولكنهم صنعوا قدرا لن يكون له وجود.

عرفوا باحتمال الهاوية في نهاية الطريق.. لكنهم أصروا على فتح ساحة لأداء النشيد.. بحدس جمعهم في السر لن يستطيعوا الدفاع عنه اليوم.. كان معاذ, هو أول من سمعته يتحدى الجلاد, لا يريد أن يعترف بشيء، أنكر ملفه كله, فيه أسماء حركية, سفر إلى العاصمة, مهام أخرى. بقي مصرا على الإنكار, هذا من البديهيات التي تعلمها. لم يتعلم كيف يتعامل مع مجريات التحقيق. أنقذه من مزيد من التعذيب بدون طائل تدخل الرفيق القيادي الذي لم يمض على وجوده في حلب شهران. فلا معنى لكل ذلك الإنكار الجميع هنا. استبدلنا ساحة النشيد بساحة الأنين.. لماذا تنكر معرفتك بألوان النور التي أتت معك أو قبلك. بالمختصر: المنظمة تغيب فلا داعي لغيابك بدون عودة, أنت العنصر البشري الذي يسير في قافلة ذاهبة إلى الهزيمة, يجب أن تحافظ على روحك في زمن تشتد خيانته لأحلامك التي رسمتها مع الآخرين. المعلومات موثقة, هنا لا مكان للعدل والآن لا مكان للاختباء وراء المثاليات.. ما لا يعرفه مع الكثيرين, تحويل البريد الحزبي مساره, وهروب المعلومات إلى المكان الخطأ بالنسبة إلينا..

مازال صمود فرج الله الحلو منارة لنا, ولكن ماذا نفعل إن أصبحنا صفحة مقروءة أمام عدونا وليس في الخارج من ينظر إلينا كأبطال؟ كنا في باحة السجن أكثر عددا من أعضاء المنظمة, لأن أصدقاء ليس لهم علاقة مباشرة بالحزب, دخلوا موكب الحزن الذي كنا نتوقعه, لم يطل بقاءهم, عادوا إلى بيوتهم قبل أن يبتلعهم الغول..

نلت النصيب الأكبر في التحقيق, لأن معلوماتهم من المراقبة تؤكد عزلة الرفيقة الأخرى, كما أقنعتهم بأنها لا تعرف شيئا. بينما حركتي التي كانت تحت أنظارهم لفترة قبل اعتقالنا, أكدت أنه يجب أن أعطيهم المعلومات التي كانت ناقصة وهي قليلة طبعا, مواعيدي مع عدد من الرفيقات اللواتي بقين في ظروف الملاحقة.

أسئلة المحققين في حلب خلت من الذكاء, كان من السهل أن تعطيهم المعلومة كما تريد, تترجم الرسائل التي وصلت إلى أيديهم كما تريد, في نفس الوقت لم يكونوا بحاجة لذكاء أكبر, أنقذتهم خطة المراقبة المحكمة, ومحاصرتنا جميعا في نفس اللحظة.

سألوني عن رسائل من دمشق احتفظت بها, عن الرموز التي فيها, أجبتهم بصدق, كانوا جميعا في المعتقل.. في اليوم التالي كانت جولة تعذيب مميزة لأنهم اعتقدوا أنني راوغت, وأنني أعطيتهم أسماء مغايرة أعرف أن أصحابها في المعتقل.. الحق أنني أجبتهم بدقة وسهولة وبدون تأنيب لضمير لأنني أعلم أنهم دخلوا قبلي في الحصار. جولة تعذيب تناوب الضباط على إتمام الفلقة وأنا مفتحة العينين, بدون طميشة, كنت أخالهم وحوشا في كابوس سينتهي, وأريد النجدة من قدرتي على التحمل. فعلا انتهى الكابوس من دون نتائج. وأي نتائج؟ كنت من الأخيرين.. لم يتبق شيئا أخبئه إلا ما في النوايا, الجميع هنا والقليل الباقي لن تصلوا إليهم إلا إذا أرادوا ذلك, هم أبناء حلب وسيعرفون كيف يحمون أنفسهم مؤقتا, وسيعرفون كيف يتصلوا بالحزب إن أرادوا.. انتهى الكابوس, نهاية مأساوية فقد خرج ما في جوفي في ثيابي, حصل ذلك, منظر مخجل عادة, ولكنه هناك كان أمرا" طبيعيا" في وجه وحشية ليس لها مبرر.. نزلت إلى الحمام وبالماء البارد نظفت نفسي وأنا أرتجف بردا وغضبا وكراهية.. يدي و قدمي تبدلتا بدلتهم الجروح والأوتار المشدودة. لا أعرف كيف أمنت البديل من ثياب نظيفة, ربما كانت بعض الثياب وصلتنا عن طريق زيارة إحدى الأمهات حيث سمحوا لها بإحضار بعض الأغراض.. بل ذلك هو الأرجح.

في الأيام الأولى للتحقيق كنت في زنزانة منفردة, في الأسبوع الثاني جمعونا كل البنات في غرفة صغيرة, وصل عددنا إلى ثلاثة عشر, في حيز ضيق حصة الواحدة لا يتجاوز المتر المربع, لذلك كنا مضطرين

للتناوب في النوم, يشترط على الساهرات الهدوء التام.. جمعتنا سهرات جميلة رغم القهر, بل ربما لمحاربة الضيق ومنعه من السيطرة على أرواحنا, كانت معنا صاحبة صوت جميل, وجميعنا على استعداد للغناء, كانت نفوسنا مفتوحة للغناء ولاستنهاض الطريف في حياة كل واحدة, ناهيك عن النكات التي كنا نحفظها..

كانت أيام مفارقة للمنطق: أقسى الظروف, أكثر الأماكن ضيقا, وأكثر الصدور رحابة ومرحا.

لا أعتقد أنني عشت بالصدق يغمر مجموعة بقدر الذي جمعنا في تلك الأيام القليلة.. أيام كانت انتقالية بين الحياة السرية التي كانت تجمعنا.. إلى حياة علنية ستعرينا.. حملت الكثير من الدهشة والرغبة في الوجود.. قبل الجفاف القادم.

مع اللعب والتسالي والضحك أتى رأس السنة, والمكان مازال فرع التحقيق في حلب.. كانت سهرة استثنائية, قال السجان مستغربا: إن أصواتكم وصلت إلى ساحة السريان. وهي من ساحات حلب المهمة. كان الحفل بهيجا, الحياة تنساب من بين ضلوعنا متناسين ما ينقصنا, كنا بشكل عام طيبين ورءوفين بأحوال بعضنا.. كان لتجمّعنا حسناته بالتلوين الذي تحقق.. أسوأ ما في المكان ضيقه والحمام الخارجي بمياهه الباردة جدا ونحن في أيام أقرب إلى الصقيع.

حسن النية, بل التفكير الساذج ظلا ملازمين لي, دفعت ثمن ذلك جولة تعذيب مجانية.. فقد صدقت أحد عملاء الأمن عندما أقنعني بأنه من المعارضة وأنه كان في جولة تعذيب بالدولاب, طبعا تحمست له وبصقت ما في جعبتي على من ينتهكون حرمات الوطن, قلت له: هذا شرف لك, والضربة التي... واختتمت الحديث بحكمة كنت أحبها:" ضرط الزمان على الأندال علاّها". كانت المكافأة بعد أقل من نصف ساعة. وكان حديثي معه منقول بدقة متناهية.

في الغرفة الصغيرة وعندما لا نجد لعبة نتسلى فيها, أو حديثا جادا أو تافها نقطع فيه الوقت, تأخذ دورها رفيقتنا التي تم الإفراج عنها في دمشق بعد شهرين من اعتقالها نتيجة وضعها الصحي, واعتقادهم أنها لا تنتمي للحزب أو أنها أخذت درسا كافيا.. وربما لأسباب أخرى.. إلا أن إقامتها في الحرية كانت قصيرة جدا, لأن رسالة كنا بعثناها من حلب إلى المركز نخبرهم فيها عن حالها وعن لسانها, وصلت للأمن قبل أن تصل إلى الشباب, والمقصود بالشباب هنا القيادة في دمشق, كان ذلك كافيا لتأكيد علاقتها بالحزب وضرورة التغاضي عن وضعها المرضي, لتشاركنا حياتنا, وتزيد بالحديث عن الرعب الذي اسمه فرع فلسطين في دمشق حيث ننتظر أن نرحل إليه, كانت تحدثنا بإسهاب عن ويلات التعذيب والقهر فيه, تقول مازحة هنا لعب وهناك الرعب, هناك يضعون الطميشة على العيون من لحظة الوصول ويبدأ الركل والضرب.. ينبت الخوف في صدورنا ونحن ننتظر المر القادم. أتى المر الذي لابد منه, هذه هي ساعته.

بعد يومين من رأس السنة خرجنا إلى الباحة التي دخلنا منها إلى هذا النفق, خرجنا بقصد إكمال المعاني والانضمام إلى من سبقونا في دمشق, كانت الباحة مزينة بالورود احتفالا بالمناسبة.. مناسبة ترقية أحد قادة الحملة ضدنا. استحق مكافأة من أسياده فهو مثلهم أحسن تمثيل في معاقبة من سولت لهم أنفسهم استشراف تغيير في بلدنا..

كيف للورود أن تأتي إلى هنا؟! ولم لا تأت, وكل هذه الورود البرية أتت ونالت من ألوان التعذيب ما يزيد معرفتها؟ خرجنا بقصد تسليمنا أغراضنا وكانوا بنية سرقة طوق الذهب الذي أخذوه كأمانات قبل وضعي في الزنزانة, أعادوا القلادة بعد طول ترجي, أعادوا لي أيضا الساعة والنظارة.. وذهبت السلسلة.

صعب جدا أن تعود للتحقيق بعد الانتهاء منه, هذا ما كنت أقوله لنفسي

وأنا أتطلع من نافذة الباص مغلولة اليدين. كنا شبابا وصبايا نتسلح بالأغاني الوطنية التي تذكرنا أن بلادنا تستحق التضحيات فنقوى على الخوف أو نتحايل عليه. أحبك دمشق أحب أحياءك القديمة أحب شوارعك الدافئة, أحب رائحة الياسمين, أحب ذكرياتي فيك.. هواءك ينعشني يعطيني دفئا.. مع الشوق الذي انتعش بمواجهة الكآبة التي كنت فيها في حلب, لم أتذكر إلا الجمال في دمشق, مع أنني ذاهبة إلى أقبح مكان في الدنيا.. هكذا يلتف المرء على عذابات تنتظره وخوف يزوره.. يشحن نفسه بالقوة اللازمة ليتجاوز هوة تنتظره " جئت في زمن الجزر.. جئت في عز التعب.. رشاش عنف وغضب.." عنف وغضب سيدخل إطار الماضي..

جرت الأمور بطريقة أخرى, بدت رحيمة جدا.. رحب بي أحد المحققين ذكرني بمكان للعزلة قريب (فرع التحقيق حيث يفصله جدار عن فرع فلسطين), كنت قد استدعيت إليه قبل أكثر من سنتين للمساومة من أجل عودة مضر للحياة الطبيعية, قالوا لي: ساعديه بأن ينهي حياة الفئران (كما أسموها لي بدلا من التخفي) مقابل التعامل معهم طبعا.. قبل سنتين بحثت أجهزة المخابرات عن ثغرة للدخول على الحزب, اتبعوا أسلوب تسوية أوضاع الملاحقين مراهنين في ذلك على ضعف يصيب بعضهم ويدفعهم للقبول, ويجدون ضالتهم للعبور على جسدنا في قبول أحدهم.. بعد سنة تغيرت حاجاتهم وأنجزوا عبورهم..

انشغلت طوال الطريق بلقائي الافتراضي مع مضر: إمكانيته كانت لهفتي لرؤيته كبيرة.. فالمشاعر في ظروف التعذيب وفي الأماكن المعزولة تأخذ بعيدا في الشوق, ولهفتي لرؤيته فضحت خوفا بدأ عليه.. فقد كان من الطبيعي أن يأخذوه إلى حلب لاستكمال التحقيق, حيث كان قائد المنظمة هناك, ولم يحصل ذلك.. من الطبيعي ولكن لماذا يأتون به وقد أمسكوا بجسد المنظمة؟! ولم يتبق ما يضمن استمراريتها.. مونولوج بين

لماذا؟ ولماذا التي تجيب.. أسئلة في غير أوانها, تنتهي بالاحتمال الأكيد حول رؤيته ومواجهته من أجل استكمال التحقيق في دمشق. سيطلبونني لمواجهته.. صبر لساعات يحتمل لكل الأسئلة والتساؤلات.. لم يواجهوني به.. فقدمت المخاوف أجوبتها.. تجاهلت تلك الأجوبة لأعد نفسي لتقبل الأمر.

لم أمش خلف النعش, فبقي لدي الأمل بأنه يتنفس في مكان ما, يشرب قهوته.. ينتظر موعده.. يهم في إرسال وردة لي. كل حديث ونوبة أسئلة أقول لنفسي: مستحيل, لو كان فارق الحياة لسلموا جثمانه!!.. لم يحدث من قبل أن استشهد مناضل من القوى الديموقراطية دون أن يسلموا جثته لأهله, كان ذلك فقط مصير الذين حصدت أرواحهم المجازر أو التعذيب من الإخوان. حيث ضاعت الجثث بين الشوارع والبيوت والسجون.

ثمانية بنات بأحلامنا التي بقيت, أتوا بنا من حلب, رفيقتي في المنزل وأنا إلى المزدوجة رقم 2 كانت المزدوجة رقم 1 للرجال, الباقي إلى المهجع السادس.. هكذا هي التسميات في فرع فلسطين المزدوجة أصغر من المهجع وهي عبارة عن ثلاث زنازين ومدخل عند الباب وحمام وسقيفة, المفترض أن تتسع لستة أشخاص, وصل أحيانا عددنا فيها إلى واحد وعشرين. المهجع أكبر يتسع للباقي.. فالنوم تسييف (لا يسمح بالنوم على الظهر يسمح به فقط على جنب, ورأس وعقب), لجأنا غالبا إلى المناوبات في النوم, وسائل وطرق تساعد على توسيع المكان الضيق. بصراحة لم نكن نطالب بالأوسع, لأننا نعرف أننا هناك لزمن مؤقت, وأننا نشد أزر بعضنا البعض بالزحمة فالمكان أكثر من موحش, أما عن الفرز بين المزدوجة و المهجع فحكمه حسب تحليلات الصبايا في المزدوجة أننا الأخطر, وأننا ربما سنبقى مدة أطول.. في المزدوجة كانت علاقتنا المباشرة بالحزب واضحة.. في المهجع بعضهن كن رهائن عن أزواجهن, وأخريات صديقات, حسدناهن بالطبع دون أن يمنع ذلك من

الفرح مسبقا لحريتهن القريبة.. نحب الخير للآخرين حتى ولو كنا نحن في سوء.

رحب المعتقلون بنا في الفرع رغم أسفهم علينا, كانت الكتابة بالنقر على الجدران, بتشكيل الكلمات من كل حرف على حدة نصل إليه بالعد, هي وسيلة الاتصال مع الشباب في الزنازين والمهاجع, تطورت مستقبلا بعد نقلنا إلى سجن دوما, إلى استخدام البلاليع والأنابيب الواصلة بينها بتوصيل الرسائل المكتوبة والأطعمة المعلبة.

عندما أتيت إلى فرع فلسطين, بادرني الشباب في المزدوجة المقابلة لنا بالسؤال عن مضر, كانوا يعتقدون أنه في حلب.. بذلك فسروا غيابه عن الفرع بعد اعتقاله بأيام. لم يواجهوا به أحدا من الذين رأيتهم وهذا ليس له تفسير إن لم يكن ترحيله إلا رحيله.. عندما سألت عنه مدير السجن, أبدى استغرابه بحركة تمثيلية تؤكد قدرته على تغليف كلماته بالكذب مجيبا بأنهم يبحثون عنه..

قلت لنفسي: لم لا؟! ربما فقد اتصاله بالحزب وهرب إلى الخارج. أي خارج الأسوار أو خارج البلاد.. لقد استطاع العديد من الرفاق السفر إلى خارج البلاد في زمن ملاحقتهم.. وكما يتعلق الغريق بحبال العرمط تعلقت بوهم وجوده. وكان الوهم يكبر كلما ازدادت معرفتي بالرفاق, واشتدت حاجتي لمناقشته بل مواجهته.. هو الوحيد الذي يمكنني أن أفتح معه المواضيع حتى آخرها.. احتجت لوجوده, بقدر ما أدركت أنه يحتاج لمزيد من الوقت ليتخلص من أوهام حملها..

أيها أفضل أن نرحل سعداء بوهمنا. أم أن نعيش معذبين بالحقيقة؟!

في فرع فلسطين لم نتعرض للتعذيب.. لم نصرخ منه.. توقعات رفيقتنا التي زارتنا في حلب والتي عادت معنا إلى المهجع لم تنطبق علينا..

عندما أتوا بهم من حلب في المرة الأولى, اصفرت وجوههم من هول ما رأوا, حينها كانت حملة الاعتقالات في ذروتها.. والغل في أوجه. أتينا

في نهايتها.. ودائما في النهاية تكون الأوراق كلها مكشوفة.. واللعب على المكشوف أسهل خاصة إذا كان الطرفان في ميزان قوى مختل بشدة.. تعرضنا لبعض الاستجوابات لإقفال ملفاتنا التي أغلقتها المعلومات التي كانت بين أيديهم..

في المزدوجة, عشنا أياما زودتنا بمعارف ناتجة عن المفارقات الواسعة بين المعتقلات, كنا من مشارب سياسية متعددة: عرفاتيات (من فتح), توحيد إسلامي (من لبنان). وبعث عراق (من مناطق متعددة), ونحن من حزب العمل الشيوعي (من كافة أنحاء سوريا).. وغيرنا من نساء قضائيات.. ومن بنى اجتماعية مختلفة وغريبة عن بعضها.. وحدتنا الآلام فنقلنا خبراتنا في العيش..

القمل أول ضيف عرفته هناك, سمعت عنه في الساعة الأولى لوصولي.. هناك خبرات واسعة في التخلص منه, بمهارة عالية يتم انتزاع خيط من الغطاء العجيب الذي يوزع علينا, القطعة الأهم في المفروشات هناك, تلفه إحداهن على المشط العادي ليتحول إلى مشط خاص بالقمل, يوجه الشعر من أمام الوجه فوق خرقة بيضاء.. يتم التمشيط وتسقط القملات السوداء تبحث عن حتفها حيث تنتظرها أيدي الجريئات.. لم نعد بحاجة إلا إلى الكيروسين لمعالجة المشكلة.. قملة كانت في اليوم التالي لوجودي في رأسي, لم أكن أتوقع ذلك كنت أمشط شعري من باب الاحتياط فسقطت وسقط معها قلبي , نسيت كل شيء وعدت بذاكرتي أكثر من عشرين سنة حيث تعرضنا في البيت لغزو القمل بسبب الجيران, كنت طفلة حينها ولكنني أبقيت في ذاكرتي على مشاهد العمل على التخلص منه.. تولدت لدي مشاعر من الأسى الذي يشوبه الخجل.. أكره الحشرات وأخشاها, الجميع انتبه أن ردة فعلي كانت غير طبيعية.. مع مرور الأيام نسيت القمل حيث رأيت الصرصور في قصعة العدس, مادة العشاء الذي أعده مع رفيقة لي, طلبت مني ألا أخبر أحدا كي لا نحرمهن العشاء, هي

متأكدة أن كل الطعام الذي يوزع على الآلاف يتم سكبه من نفس الوعاء الكبير, وكل أوعية الطعام الكبيرة فيها حشرات, مرة تزورنا ومرة عند غيرنا, لذا سترميه ببساطة ونعد العشاء اللذيذ بالعدس.
هذه الفلسفة كان لابد منها لكي تتقبل الطعام في فرع فلسطين, مثلنا مثل المجندين في الجيش.. تذكرت زميلة لي في العمل كان يوكل لها مهمة مراقبة أداء معامل الصناعات التحويلية, منها الأغذية المعلبة, من الناحية الصحية, وكانت كلما زارت معملا تمتنع عن أكل منتجاته من سمنة وسكر وباقي المعلبات حتى وصل بها الأمر إلى الطحين فعجزت عن الامتناع عن الخبز وعادت لتناول كل شيء.. بعد سنوات كان علي أن أنسى وجود الصرصور لنأكل..
كان الجديد في فرع فلسطين شامبو الحمام إضافة إلى بعض الماء الساخن, كان الحمام داخل المزدوجة, لهذا محاسنه ولكن سنتحمل بالمقابل سلبياته من الرائحة, خاصة إذا خرجت أوساخه منه إلى المكان المحيط الذي يحتوينا.. وهذا حدث أثناء وجودنا.
كان التعرف على بعضنا البعض اجتماعيا بالتفصيل الممل, وسرد حكاياتنا أحد وسائل تقطيع الوقت, أما شراسة بعض السجانين فقد كانت من عوامل حك الذهن بالأسئلة التي لا تحتاج أجوبة, لا يقل عن شراسة بعضهم غرابة سذاجة آخرين.. شهد باب المزدوجة علاقة غريبة بين امرأة في الخمسين من عمرها(سجينة عرفاتية قادمة من لبنان) مع أحد السجانين.. استغلت طيبته وجوعه الجنسي لتثيره وتحصل بالمقابل على نشوتها, تذرعت عند المواجهة مع البعض أنها تريد خدماته فأولادها أيضا في السجن, في الحقيقة لم تكن تأخذ أهمية لوجودنا.. كنا ضد تلك الحركات بأحرف كبيرة لا يمكن مناقشتها تحت أي ظرف, مرة أخرى العمل الفدائي وضرائبه. لم نعترف بحاجات الجسد أو كنا نتحايل عليها, غطيناها بمسحة من التطهر الغريب.. بينما جسدها قال ما يريد.. حالة

غريبة أفرزها الوضع الغريب, الأغرب كان النقاش الذي تم فتحه معها. مرت الأيام أحاديث وسير عن الخارج وعن التفاصيل نتناولها سرا بين بعضنا..عن الطعام والحياة على الملأ.. حافظنا على أسرارنا أحيانا خجلا وأحيانا خوفا..

هناك, في المزدوجة, قابلت نساء من الحزب كانوا مع مضر في نفس البيت, لّمحت لي إحداهن أنها تعرف أسرارا عن الجميع وبالأسماء, تعرف قصص الجنس التي جمعت شبابا وصبايا بالسر.. أخبرتها أن لدي فضول كبير لمعرفة الشخص الذي ذهبت بصحبتها وصديقها إليه في تلك السهرة قبل تسع سنوات من ذلك الوقت, عندما كنت صغيرة على العبث.. وخفت من سلوكه الذي أجبرني على رمي ثيابي في القمامة.. قالت لي اسمه, في نفس اللحظة عاد لي الشعور بالتقيؤ.. كنت مازلت متحمسة, وكان هو قد أعلن ترك الحزب بمبادرة في المعتقل قبل أربع سنوات.

كان سماع قصص التعذيب والإهانات التي حصلت في فرع فلسطين أشد وطأة من التعذيب نفسه الذي وقع علينا, احتفظ جسد إحدى الرفيقات بازرقاقه بعد أكثر من أسبوع من استباحته بالكرباج, عذبوها بعد أشهر من اعتقالها لا من أجل معلومات فهذا انتهت منه, بل لتغذية سادية محقق, استغل أقوال أحد الرفاق عند تبرير حصوله على جريدة الحزب المركزية بالوصول إلى علاقة جنسية معها. كان ذلك يثير غضبنا ولا نجد له أي مبرر.. خاصة أنه فقد فعاليته في الحصول على الإفراج.. وتم استغلاله من قبل الأجهزة الأمنية على أكمل وجه.. فقد كان يحلو لهم, مواجهة الرفيقة بعلاقتها غير المقبولة اجتماعيا وهي معصبة العينين أمام والدها لإثارته ضدها وكسر عنفوانها.. كان يسهل عليهم جرجرة آباء المعتقلات لزرع قلق موحش في نفوسهم والأهم زعزعة ثقة الفتاة بنفسها..

كثير من الأسرار صنعناها رغما عنا. عجزنا عن التصريح برغبات طبيعية.. فالحب مسألة عادية لا يحتاج إعلانه إلى شجاعة كبيرة.. لكنه كان سرا أمام وضع الشباب في التخفي وشروط الحياة الاستثنائية التي أدت إلى ارتباط بطريقة تخالف العادات والتقاليد وتؤذي مشاعر الأهل بالتالي. كانت علاقات صادقة في معظمها بين شباب في عمر الزواج.
أحقاد وأمراض وعقد جعلت التحقيق يأخذ هذا المسار المعقد في قضية أشواكها صناعة بالية عندنا, ذات قيمة كبيرة عندهم, حاولوا استغلالها لصنع مزيد من العراقيل أمامنا.. حاولوا جعلنا عبرة لمن يريد أن يعتبر في بلدنا لكل من تساوره نفسه في أن ينتمي إلى حزب معارض أو يعلن رأيه بحرية.. فاستخدموا كل الوسائل..
اعتدنا على رتابة الحياة في المزدوجة, وكنا نقوم بأدوارنا كما تتطلب الحياة البسيطة التي نعيش... لا يوجد شيء من المفروض أن نختلف عليه. هي مسؤوليات توزعت, الوجبات وتوزيع الشامبو. وانتظار الانتقال إلى السجن المركزي للنساء. حين طرحت فكرة قيادة المعتقل, سننقل تجربة القيادة في سجن تدمر(سجن ضم مئات المعتقلين) بغض النظر عن تعقيدات حياتهم هناك.. وبساطة حياتنا هنا..
التقديس للشعارات ينتج قوانين بدون مبرر, لم يكن هناك هدفا لقيادة المعتقل.. تم الترشيح وجرت الانتخابات في دقائق, أسوا ممارسة للانتخابات قمنا بها وكانت للأسف للأخيرة.. جاءت القرارات لإرساء ما هو قائم.. ليس هناك أفكارا" تبدع جديدا, فلانة للحديث مع السجان الفلاني, أصلا هذا السجان لا يستمع إلا لها.. تنظيم العمل كل يوم اثنتين وهذا أيضا من الحياة اليومية السابقة.. على كل مرت أيام قليلة على هذا القرار لم يصادفنا أي مشكلة سوى مشكلة الصرصور في الشوربة الذي حللناه بدون القيادة.. مرت الأيام على ذات النسق, استمرت بأقصى درجات التشابه, دون أن يشوبها أي تغير بفعل وجود القيادة.. طعام قذر

ومتدني المستوى.. زين حياتنا وجود الشباب في المزدوجة المقابلة نتكلم بدون صوت وبالإشارة.. ومع ما يجمعنا نحن شباب وصبايا من الخوف والقلق على مصير الحزب. جاءتنا صديقة من اللاذقية كان زوجها ما يزال في الخارج.. أتت بمعنويات عالية فوق قدرتنا على التحمل, طمأنتنا أن الدنيا ما تزال بخير وأن الذين بقوا في الخارج هم الأهم.. كنا نعلم أنه لم يبق إلا القليل, وهم ليسوا الأكثر كفاءة, ولكننا سعداء ببقائهم.. مساء صعدت السلم, لتحيي الشباب في المزدوجة المقابلة.. رفعت يديها بإشارة النصر, كل ذلك لم يجد معنا فقد كان الخوف على مصير الحزب يحتل حيزا هاما في أذهاننا, نعرف أنه إن استمر سيكون ذلك على حساب الأداء, الذي كان ضعيفا بالأساس. النزيف أكبر من احتمال التجدد, والمراهنات المتفائلة بدت مجرد أوهام. شعوري آنذاك امتلأ بالتهكم والشفقة, خبأت ذلك الشعور حتى يمحوه الزمن, كما سيمحو الكثير من الحكايات بغض النظر عما حفرته في الأعماق..

تسلل العجز وسيطر على تفكيري بينما أتساءل.. كيف لكلمة الحق أن تصل إلى البيوت التي أغلقت أبوابها؟! كيف لها أن تدخل كما فعلت وتفعل الأغنية الصادقة والجميلة.. فالسعي إلى التغيير غالبا ما يكون طريقا للجمال.. من هذا الجانب يمكن أن يجتمع العمل السياسي بالفن.. لكن ما هي الوسائل لإيصاله في ظروف كلها تعاندنا.. الأغنية الجميلة حفرت سكتها رغم كل الضجيج المرافق.. لكن صياغة العمل شديدة التعقيد وتنطوي على الانعطافات والانزلاقات التي تبتعد به عن مساره.. ويزداد ابتعاده كلما انخرط بالعمل بشر غير مؤهلين له..

الصوت الجميل والموهبة الكبيرة توحد السجناء مع الأحرار.. الصغار مع الكبار, بينما عجزت الأحزاب حتى الآن عن مخاطبة الوجدان واكتشاف طرق الوصول.. وكانت تلك الهوة التي عجزنا عن ردمها لألف سبب.. كنا نعتقد أن الحياة قادرة دائما أن تفرز الصوت الذي يعبر

بها إلى الأمام.. وأننا نحمل هذا الصوت.. بعد سنتين من الاعتقال تضاءل شعوري بذلك الاعتقاد. دون أن أتخلى عن فكرة حاجة المجتمع الدائمة للصوت المعبر الذي لن يستطيع القمع مهما اشتد أن يخرسه, يمكن أن يشله لفترة لكنه سيعود للحضور إن كان يحمل مقومات الحياة..

في اليوم الثاني لي في فرع فلسطين, أي في أول صباح لي هناك, وقبل أن أعرف بالقملة في رأسي صحوت أغني طلع الصباح فتاح يا عليم.. أخرج مع صوتي البائس كل مشاعر الحب التي تسكنني.. وإذ بأشكال الحرمان كلها تضع بصمتها على باب المزدوجة الحديدي, ومع صراخه وتهديده المباشر تحولت في ثانية إلى كتلة من الألم والخوف.. كنت مازلت سعيدة بلقاء من أعرف, ومن تعرفت عليهن البارحة في دمشق فلماذا كل هذا الأذى؟ لا أعتقد أن صوتي هو السبب, أعتقد أنهم يريدون منع الحياة بكل أشكالها.. إنها استمرار لتعذيب لن ينتهي إلا بالخلاص.. والابتعاد عن حاملي عناوين الموت..

بعد أيام من ذلك, فاض الحمام بالقذارة, وخرجت بدون إذن من أحد إلى الحيز الذي نعيش فيه.. صعدنا السلم إلى السقيفة وكانت فرصة لعدم الخوف من رؤية الشباب في المزدوجة المقابلة. حيث كان ممنوعا علينا صعود السلم في الأوقات العادية. صعدت معنا الرائحة.. هذا استكمال لأذى لن ينتهي, هل يجب أن يمتنع الإنسان عن التبرز في المزدوجات؟! هل يعقل أن سجنا معدا لاستقبال المئات مصمم على مجارير تافهة؟ أم أنه لم يكن ببال المهندس المصمم هذا العدد من النزلاء.. في هذا القرف حسدنا رفيقتنا التي لم تعرف حاسة الشم في حياتها. دون أن ننسى تعاطفنا معها في اليوم الذي سبق وتنبيهها إلى ضرورة معالجة الموضوع لتشم العطور ورائحة الياسمين وأول المطر.. ورائحة الخطر.. تغيرت أفكارنا.

من الطبيعي أن تتغير الأفكار عندما تتغير الظروف.

الحياة هناك تعتمد على الذاكرة, مسلية أحيانا, ومؤلمة أحيانا أخرى. ومملة في بعض الأوقات تتغير قليلا عندما يأتينا ضيف بالإكراه.. طبعا كلنا كنا مكرهين على هجر بيوتنا من أجل تلك الإقامة عند الوحوش, الذين لم يتركوا الحلم ليكتمل, أدخلونا في علاقة جديدة مع الزمن, لا نعرف فيه اليوم فكيف بمعرفة الساعة.. يأتينا المتفائل والمتشائم وحامل بيارق النجاة.. ساد اعتقاد أن النساء لن يطول بقاءهن في المعتقل..وضعنا هذا الشعار في برنامجنا, رددناه يوميا وفي كل لحظة تسمح بذلك, شعار ستمحوه الأيام القادمة مثل العديد من الشعارات التي شدتنا للعمل السياسي.

الطبيب هناك يعتمد على إرضاء الجلادين أولا.. لا أعرف إن كان يتعرف على مهنته في مكان كهذا. لا أعرف إن كان يسهر على راحة المرضى, أم كان دوره إنقاذيا فقط وبأوامر من المسؤولين هناك. ترى لماذا لم يساعده للبقاء على قيد الحياة.. لماذا لم يساعده ليرفع كأسه في خريف العمر..

لم يطل بقاؤنا في فرع فلسطين. كان مصيري دوما مرتبطا" بمصيرها, رفيقتي في منازل التخفي, تم نقلنا معا إلى فرع التحقيق العسكري ليتم تحويلنا إلى سجن النساء المركزي. دخلنا في أول زنزانة معدة لاثنين, سمعنا سجان يقول لآخر هذه الزنزانة فيها جرب, هبط المتبقي من قلبي إلى أسفل الأسفلين.. مازال خوفي من القمل مرافقا لي, ولا ينقصني الجرب, نقلونا على الفور إلى زنزانة أخرى للأسف نسيت رقمها, لكن في هذه الزنزانة كانت تنتظرنا شموع وحكايات تتجاوز قوانين تلك الأيام مع منغصات لابد منها.

أول مكان أشعر معه بالألفة منذ اعتقالي, بل منذ بدء التخفي, رغم أن وجداني في تلك المرحلة كان يثقله لغز اختفائه, ويرفض رفيقتي وسلوكها التسلطي, وصلت بعد خمسة أيام إلى حد التكلف بالكلام معها.

أتجنب النظر في وجهها.. أما الميزات فكانت جيرتنا مع سجين فلسطيني من جماعة عرفات(أبو هند) سبقنا إلى ذلك المكان بأعوام, هناك مكان إقامته, نسج علاقة حياة مع السجانة: بابه مفتوح, عنده راديو يأتوه بالطعام من أي مكان يريد.. لديه ما يكفي من المال ليحقق بعض رغباته.. أحب التعرف علينا بعث لنا بورقة وقلم, باعتقادها أنها كانت هي المعنية بالرد أخذت القلم مني, وكتبت كل ما تحفظه من شعارات وأهداف, لن أنسى طريقة أخذها للقلم من يدي, طريقة جعلت تلك المسافة بيننا تكبر, استمعت إلى الأخبار منه, علمنا أن الكثير من الرفاق جاوروه في زنزانته, كان كريما معنا, سمعنا الأغاني الفلسطينية وفيروز في الصباح, كما فاجأنا بالحديث عن الانتفاضة الأولى.

الحياة تسير, ونحن هنا أي هناك خارج الزمان والمكان.. الإحساس بالزمن مليء بالمخاطر.. جلست في وحدتي التي ابتدأت بمفارقة من معي في قراءة الحياة التي على الجدران, من هنا مرت رفيقتنا قبل أربع سنوات, هذا توقيعها وهذا حزنها.. غاب نهار آخر.. أصبح للجدار رائحة جميلة, رائحة الانتظار الجميل, اقتربت عودتنا نهار.. فلسفة التعب والغربة.. نفرح بمرور يوم إضافي لأنه على حساب ما تبقى, بغض النظر عن كم يوم سيمر وكم يوم سيبقى.. ستمر أيام كثيرة.. اليوم هنا بسنة, لا تعرف الليل من النهار. ازدادت قدرتي في تشغيل مكنة خيالي, أتتني بكل الصور التي ساعدتني في تخفيف ثقل الأيام. ضيق سيزول..

هنا في تلك الظروف, غير العادية, بدأت أتحسس الدرب للتعبير عن نفسي, واتخاذ مواقف مبنية على بعض الحسابات, لكن الخطوات كانت بدائية و سيري محفوف بالصعاب, كنت أحاسب نفسي كثيرا, عزائي كان ذاكرة بدأت تأخذ تكوينها الخاص, أحسست بقوة حاجتي لأراه, أراه لأعاتبه.. وأحاسبه إن كان يعرف أننا كنا نمد أيادينا كتابعين, ويشد أيادينا من يستطيع جعل غيره تابعا؟ ما الفرق بيني وبين السجان؟ هو بدون

حقوق تنازل عنها لسادته, وأنا لم أمنح نفسي حرية الدفاع عن حقوقي, كلانا لا يطلق العنان لتفكيره, كلانا سلم بأمور عديدة. سهل ذلك, نشأتنا وتربيتنا في البيت والمدرسة. التي كونت أو سحقت ميزاتنا الفردية التي كان لها أن تضع المرء في المكان الذي يستحقه إن بذل الجهد اللازم.. سأسأله من المستفيد من تسويق فلان ومحاصرة فلان؟ من؟ ومن؟ وأقول له من المؤكد أن الحزب لم يكن مستفيدا, وأن الأفراد بالمحصلة خسروا, وسينتج بعد حين حالات متقرحة, وتبدو أسطورة العمل الجماعي والعقل الجمعي وهما آخر سيضاف إلى أوهام لها مساحة في الذاكرة... كل ذلك وغيره رأيته وأنا أدفن رأسي في الغطاء..

الفصل التاسع

الحياة في القفص

بعد خمسة أيام تم نقلنا, هذه المرة إلى دوما, إلى سجن دوما المركزي للنساء, كنت أنتظر هذا اليوم, أنتظر لقائي بمن سبقت جميع نساء حزبنا في رحلة حرق الأعصاب, والتي تعززت مكانتها عندما تابعت أيامها التي تغيب على الجدران, وبأخرى كان مضر ينوي أن يكتب عنها رواية جعلتها في ذهني رمزا, أم كرم أكبر رفيقة والتي سبقت أولادها إلى أيام العزلة.. والتي غابت كليا عن الحياة بعد حين من خروجنا إثر المرض.. لكل موقعها ومكانتها.. أنتظر التعرف على أقدم معتقلة سياسية من جيلنا, من منظمة الشيوعيين العرب التي أعدم خمسة من رفاقها وحكم على الباقي بالمؤبدات. جاءت من القدس لتدرس في جامعة دمشق تحمل أحلامها في محاربة الامبريالية والصهيونية فانتمت ودفعت الثمن.. أتشوق فعلا إلى هذه الرحلة أسميتها رحلة لأنني ركبت الباص نهارا, وامتلأت عيوني بمناظر اشتقت إليها, مررت من دوار كفرسوسة هذه المنطقة التي تذكرني بأجمل أيام حياتي.. أيام الجامعة وما حملته من أحلام وآمال و خيبات.. مررت وعيوني مفتوحة تغرف من الشوارع والبشر علّي أجد أحدا أعرفه من أهلي أو من أصدقائي.. كان الجميع خارج الحاضر كانوا في الذاكرة هنا مع فلان وهناك و.. في هذا الترقب دخلت في منطقة لا أعرف عنها شيئا, ومازلت لا أعرف, عشت أربع

سنوات هناك رغما عني ولا أعرف عن المكان شيئا, مكان لم أعرف الوفاء له.. استغنيت عن أشيائي الخاصة, عند الإفراج عنا, كي لا أعود.. كن في دوما بانتظارنا لأسباب عديدة, انتظرننا وقد كن, اللاتي أحلم بلقائهن, على خلاف وصل حد التشنج.. كن في استقبالنا بلهفة, حجزن لنا دورا في الحمام المخصص لمائتي سجينة.. وفي أقل من دقيقة كانت رائحة القهوة التي أثارت شجوني, والمفاجأة كان فنجان القهوة الساخن, هذا الفنجان الذي كنت أنتظره لحظة اعتقالي.. أموت في الطعام الساخن والشراب الذي يغلي.. وداعا لكار الشاي البارد في الفرع.. لم يمنع اشتياقهن لنا عيون كل منهن في إفشاء اتهامها للأخريات والدفاع عن نفسها.. يصعب انتظار زمن الكلام المسموع على الملأ.. ويستحيل انتظار اكتشاف القادمات بأنفسهن حقيقة الخلافات القائمة. هكذا كما نحن دائما أعصاب محروقة وتحرق للهجوم الدفاعي..

المكان سجن دوما 1988/2/28 باحة واسعة مرصوفة تتوسطها بركة ماء كبيرة, اعتمدناها مسبحا في بعض أيام الصيف.. جنائن صغيرة ستتلون بحب المهندسات الزراعيات وعيون الباقي. شجرة حور طويلة تعانق السماء وشجرة كينا قصيرة ترسل أغصانها عرضيا لتمنحنا الظل في النهار.. تشكيلة تعطي المكان اسم حياة, سأسميها في القفص...

والقفص مكان واسع موزع على غرف تمتد على محيط مربع الباحة, كل غرفة لفئة منحرفة وغرفتان لمن كانوا يناضلون بنية القضاء على الانحراف.. غرف للواتي هجرن مجتمعهن ملفوظات.. وغرف للواتي هجرن مجتمعهن مكرهات وهن يحلمن بإصلاحه.. كان دليلي السياحي للتعريف بمكونات السجن أقدم رفيقة لنا هناك.

الغرفة الأولى إلى يمين باب القفص: غرفة كبيرة بمصطبة واحدة وممر ضيق, متعارف عليها باسم غرفة الدعارة, شملت كل الأعمار من تحت السادسة عشرة وما فوق. في الغرفة العجب: نساء يوهمنك أنهن من

شريفات مكة أتين بالخطأ إلى هذا المكان, ونساء رافعات الرأس يعملن في هذه المهنة دون خجل, البعض دخلن هذا الكار- المهنة- في سن مبكر بمباركة من الوالد أو الأخ, من تأخر قليلا دخل بمباركة الزوج, وهي تعمل لحسابه. ومنهن من تعمل بالصدفة ومن أجل لقمة العيش.. تمتلىء الغرفة بحسب السوق, وهمة فرق المداهمة الأخلاقية, إنه عرض وطلب وفضائح.. شكلت نزيلات هذه الغرفة سوقا لتجارتنا وصناعاتنا اليدوية.. شباك هذه الغرفة متعامد تماما مع الباب الرئيسي, يكفي أن يمد الشرطي يده لتصل إلى ما يريد في الشباك. الشباك يستوعب جلوس امرأة بارتياح, فجدران الغرف بسماكات تسمح بذلك, كما شبابيك بيتنا في القرية الذي أزالته البلدية لتوسيع الشارع..

كان السجن المدني مكانا مصغرا لكل أشكال الفساد في المجتمع, والرد على هذا الفساد, هناك يتم إذلال المحتاج من قبل أشد الناس انحطاطا, أمام الغرفة الأولى(الدعارة): منظر لا يمكنك عدم الانتباه إليه مهما تكرر, بترونة(من تروج لمهنة الدعارة) شكلها منفر للغاية, تجلس بين غرفتها وغرفة القتل, ازدوجت تهمتها بين قتل وترويج دعارة, تتربع على كرسي, أمام غاز دائم الاشتعال فوقه إما طنجرة لإعداد الطعام أو إبريق, يعمل بخدمتها الفقيرات من الدعارة, اللاتي يبعن أجسادهن من أجل لقمة العيش في الخارج وجهدهن العضلي في السجن, أيضا هنا مراتب, يعملن عندها مقابل بقايا طعام, أو أملا في عمل منظم في هذا الاتجاه في الخارج.

مرّ على تلك الغرفة مومسات, أتين لمرة واحدة, وخرجن منذ اليوم الأول, علمنا أن أولئك مدعومات.. يختلط الدعم بين مسئول وصاحب مال, لا فرق. ومرّ عليها مومسات يعملن بأجر بخس في الزوايا المظلمة, ربما مقابل سندويشة فلافل, تدخل إحداهن ويطول بقاؤها, تخرج لتدخل مرّة أخرى, أعتقد أن السجن كان أرحم بالنسبة لها حيث يقدم لها الطعام

والمنامة مجانا.

عمل الدعارة والتسول في بلدنا عمل سري أيضا, يمكن أن يجذب كل الشرائح من فقراء وأغنياء, شابات صغيرات وناضجات, يحتاج إلى خبرة وحنكة من أجل التمويه, والمحافظة على السرية.

صدقنا ادعاءات بعضهن أنهن دخلن بالخطأ, فتلك كانت في زيارة صديقتها, وتلك عند جارتها, واحدة أخطأت العنوان, بعضهن ادعين عملهن بالسياسة, كنا نصدق الكثير من الكذب, فنحتضن ونعطي إن كان هناك إمكانية, نعطي الاهتمام لمن لا يستحق ذلك, لم يكن مهتمات بمواعظنا, بالمقابل اكتفينا نحن بتفريغ حاجتنا إلى طرح الأفكار الكبيرة, التي كانت بحد ذاتها غاية نرجوها. اكتفينا بتأكيد تحليلنا أن البغاء قضية اجتماعية وليدة ظروف محددة واضعين لها المبررات الكافية لإرواء عطشنا في التحليل, كنا نساعدهن على طرح مشكلتهن كما نريد نحن. لنؤكد معارفنا التي نحملها ونرمي بعض الهموم التي يولدها العجز عن كاهلنا..

الغرفة الثانية غرفة القتل.. وهنا لكل واحدة قصتها قصة تبكيك وقصة تثير قرفك. منهن من قتلت زوجها لأنه كان يشغلها بالدعارة لحسابه, حتى اختلفت معه على الأجر والحصة بعد أن عرفت قيمة ما تملك وتنجز وتحصل له, وبرفضه محاصصتها أنهت حياته باتفاقها مع أحد الزبائن. أخرى قتلت زوجها بالاتفاق مع ضرتها وعشيقها, لأنه شاذ ويمارس شذوذه مع ولدهما, هي تعرف بشذوذه لأنهم يعيشون في مجتمع يسمح بذلك, كانوا يعيشون في المجر, لكن أن يخطئ مع ولدهما, فهذا ما لم تتحمله. ساهم الولد في القتل وقضى سجنه في الأحداث, قتلوه في شقة مؤجرة في حلب.. أذابوه بالأسيد ثم هربوا, بعد شكوى الجيران من الرائحة. أمسكت بهم الشرطة على الحدود التركية. أخرى ساعدتها أمها وخادم عشيقها.. قتلت زوجها الذي أتت به من فنزويلا بعد هجرة طويلة,

لتعاشر رجالا" مرموقين.. قتلته طمعا في ماله.. ووفاءا لانحلالها.. تركت أولادها أيتاما".. كان السجن يحميها من موت ينتظرها فور خروجها. وأخريات لكل قصتها يجمعهن غباء مطلق ورغبة في حياة عابثة.. هذا لا يمنع وجود نساء طيبات بينهن, قتلن بالفعل لحماية الأولاد.. كنا نتسلى معهن ونستفيد من العابثات في التسلية نوزع عليهن دهشتنا عند فهم تلون المرأة في التعرف على جسدها.. كن لا يصدقن عيشنا بدون رجال.. لم يستوعبن انتظار الشابة زوجها خمسة عشر عاما بإرادتها. كنا نحيط الانتظار بقدسية تحمينا.. إحساسنا بالكرامة سجن حاجاتنا بعيدا عنا.. اكتشفنا أننا متأخرات عن غيرنا بفهم حاجاتنا.. في الوقت الذي أصيب جزء من أهلنا بالذعر عند اكتشاف علاقة لابنتهن بشاب. سنكتشف متأخرات, نحن النساء في الحزب, أننا نحسب حساب المجتمع وتقاليده أكثر من اللازم, في وقت يسمح رجالنا لأنفسهم بالتجاوزات مثلهم مثل الآخرين.

يطلب عندنا من المرأة العفة ويترك للرجل الحرية ونحن النساء نساهم في صنع هذه الأخلاق.

بعد الغرفة الثانية, كانت الندوة والتي هي دكان صغير, تشرف عليه امرأة تهمتها بعث عراق, اتفق كل السجن على كرهها, كانت تشعر أنها زعيمة تمتلك, رغم حصارها, أسلحة تهديد(تعاملها مع قيادات السلطة المختلفة).

بجانب الندوة في الركن الثاني, كان المطبخ (الأروانة) له باب بعرض الواجهة فيه ثلاثة غازات للطبخ. الغاز بدون ساعة على أسطوانة الغاز كي تبقى ناره في أقصى حالاتها.. وطناجر كبيرة من الألمنيوم تتسع لستين ليترا كما يخيل إلي. كنا نطبخ فيه كل أنواع الطعام تقريبا, كل يوم طبخة تقوم بها شاغلات إحدى الغرف.. يوم الأربعاء, يوم زيارة القضائيات يتم الطبخ من قبل غرفة المخدرات, الطبخة لكل السجينات

اللاتي يتجاوزن المائتين أحيانا. غرفة الدعارة لا يطلب منها الطبخ ولا المساعدة به, ليس لأحد ثقة بهن. كما أن من في الغرفة يتغيرن باستمرار..

في صدر القفص وبجانب المطبخ, يوجد الحمام, وهو عبارة عن ثلاث فراغات معزولة يجمعها ممر, وفي كل فراغ دوش. أيضا لكل غرفة يوم فيه, والغرفة التي يشغلها حوالي خمس وثلاثون امرأة تحتاج لحساب وترتيب الدقائق كحصة للسجينة بالحمام, طبعا دائما نجد طرق للاستحمام في يوم آخر.

بجانب الحمام, منفردة بباب شبك حديد لمعاقبة أو لعزل المريضات نفسيا أو الحاملة لمرض معد. ونادرا ما كانت تستخدم.

بعد ذلك, الغرفتين الثالثة والرابعة: وهما بمواجهة باب السجن, في صدر القفص, وتتألف كل غرفة من مصطبتين بينهما ممر, تحت المصاطب فراغات للمونة, وفوق الرؤوس رفوف لوضع الثياب. بعض المعتقلات كن يمتلكن خزن ثياب صغيرة..

شغل الغرفتين سياسيات من كل الأعمار من تحت 16 إلى أكثر من ستين. ينتمين إلى مشارب سياسية مختلفة في سوريا ولبنان, أصغرنا طفلة توفى رجال عائلتها في الأحداث التي جرت في مدينتها, ابنة لإحدى نساء الأخوان الحمويات, لم يكن بيد أهلها إرسالها لتكبر خارج الأسوار, كان هذا الخراب حاضنة لها, حاولت أمها وجدتها وخالتها, إعطاءها الحماية الكافية وتحميلها قيمهن, لكن لم يستطعن مواكبتها بأطفال جيلها وإدخالها المدرسة, كان همهن حمايتها من مدرسة السجن المدني. مدرسة الفلتان العلني.

بعد أشهر من وجودنا, أتت الغلال بفتاة إلى الغرفة الثالثة, تهمتها كتابة تعليق بدون تفكير على كتاب القومية للصف العاشر.. باعت الكتاب لتستفيد من ثمنه, فاستفادت بواسطة أستاذ القومية وأفكاره الأمنية بأن

ضاقت بها المدرسة لتدخل مدرسة غريبة من نوعها تصيب العيون بالحزن وتكسر القلوب الصغيرة, لم نصدق الحكاية في أول الأمر, وأعتقد أن البعض بقي على قناعة أنها كانت جاسوسة للأمن. طفلة جاؤوا بها إلى دوما من قريتها التابعة لمحافظة حماه, نسيت كنيتها لأننا هناك دائما نتعامل فقط مع الاسم الأول فقط نسينا أن هناك صورا ستكون في الذاكرة تحتاج الاسم الكامل للبحث عنها, لم تكن ماركسية ولا أخوان مسلمين, لم تكن تقرأ إلا كتبها المدرسية. أمسكوا بها وهي في لباس الفتوة, وألقوها هناك معنا.. لم تستطع الدفاع عن نفسها, ولا أهلها استطاعوا أن ينقذوها, كانت تحت سن السابعة عشرة حين أتت, مندهشة أو مصدومة على طريقة الفلاح الذي يذهب موسمه.. ظهرت متماسكة وأظنها باردة تخفي غليانا في داخلها, برودتها جعلت البعض يشكك بها, عندما أتينا إلى الغرفة الثالثة كانت هناك.. تشارك في العمل والمجاملات حين يسمح لها.. كانت تبحث فينا عن سند, أكيد أنه من حسن حظها أنها وجدتنا, لكننا لم نساعدها في إبراز ضعفها الذي خبأته في صدرها.. ربما خجلا. صمتت كثيرا, لا زلت أذكر ضحكتها المرتبكة, أحزن أنني لا أعرف عنها الآن شيئا.. خرجت معنا بعد أن أخذت حصتها من الأحكام العرفية.. لم أودعها وداع الأحبة والأصدقاء, كان وداعا باردا لا يتناسب مع ما عاشته أرواحنا في ذلك القفص, ربما اعتقدنا أننا سنتقابل بعد قليل.. خرجنا معا بقرار إفراج عن جميع النساء, ماعدا التجسس.. لم تذكر مدرستها يوما, لم تحضر للشهادة الثانوية في السجن, لأنها لم تكن تعرف موعد الحرية. ترى هل دخلت كلية الحقوق بعد عناقها حريتها؟.. أصبح عمرها الآن حوالي 34 سنة, لم تعد صغيرة أصبحت امرأة.. ربما أصبحت أما تنبه أبناءها من التهور, وابنتها من العبث مع قوانين المجتمع والعرف فيه, إنها في عمر يمكن أن نكون به أصدقاء, لكن المسافات والجهل بالمكان لا يسمحان بذلك.. هناك أعاق هذه

الصداقة فارق العمر, وتوزع الروح في أيام الغضب المدفون..
كما أشياء كثيرة تختلط عليك بين الوهم والواقع, نسجت بعض العلاقات هناك.. سيأتي يوم ومن غير تفكير نقطة في الذاكرة تتمنى أن تتسع لتصبح واقعا لتعيد صياغة ماض امتلأ بفراغات اعتقدت بعدم أهميتها.. تشتهي ملئها عندما تبدأ بالتعرف على نفسك جيدا.
كان في غرف السياسيات مكانا لفتيات من الجنوب السوري أتين بتهمة كتابة شعارات معارضة ليس على الكتب بل على الجدران.. كن أكبر من ثمانية عشرة عاما بقليل.
تهمة أكبر السجينات السياسيات تجسس لإسرائيل اعتقلت مع أختها وصهرها, كانوا في سجن المزة. أتت بدون أختها إلى سجن قطنا للنساء, ثم إلى سجن دوما عندما نقلوا جميع السجينات النساء إليه. على الأرجح أن أختها أعدمت, وأنها لم تكن على علاقة بأكثر من أنها أخت لجاسوسة. أو على الأقل, هكذا وصل لي الأمر.
الأقدم في السجن كانت فتاة من عمرنا, دخلت المعتقل عمرها 19 سنة تنتمي إلى المنظمة الشيوعية العربية, كانت المنظمة ترفع شعار الكفاح المسلح لضرب مرتكزات الإمبريالية الأمريكية وحليفتها إسرائيل, كانت فلسطين تسري في عروقهم, وفي أرواحهم علقوا راية الكفاح, لم تسلم أيضا من الاتهام بالعمالة من قبل بعضنا, كأن بنا نؤجر عقولنا للخداع, لنضع سلاحنا في وجه من يجب أن تكون أحلامنا معهم, أو نسندهم.. الكتلتان الكبيرتان, الأولى, من حزب الأخوان المسلمين يعود اعتقالهن إلى 1980, والثانية من حزبنا حزب العمل الشيوعي. ابتدأنا الدخول إلى المعتقل في عام 1984, وأخذنا بالازدياد حتى أصبح عددنا هو الأكبر في نهاية 1988 لكن المكان المخصص لنا كان أصغر بحكم وجودهن قبلنا وتمسكهن بأماكنهن قدر الإمكان. وأمام أي شكوى لنا كان مدير السجن يشكو الزحمة التي لم تكن على باله, كما يشكو ضعف حيلته في

إيجاد الحل..

على الجدار الشمالي, بداية كانت منفردة للعقاب,عرفت إقامة قصيرة لإحدى الممثلات المصريات دخلت السجن بتهمة نقل المخدرات كانت زائرة من نوع خاص, أدخلت السعادة إلى قلوب الجميع, قمنا بواجبنا حيالها على أتم وجه, أطعمناها الجبنة التي كنا نستخدمها بتقنين, صحا السجن كله في اليوم الأول لوجودها فقد استطاعت أن تعمم اليقظة على الأغلبية في الغرف المختلفة بحركات وضجيج فنان محبوب..

تلا المنفردة غرفة صغيرة سميت مكتبة, فيها مكتبة لا تعرف التجدد, كانت مقرا لحافظ وأمه, تقول أن زوجها كان طبيبا, وقيل أن ابنها غير معروف الأب, وأنها أسمته كذلك بقصد, ويقال أنها كانت مدرسة لكن مصابة بداء طول اليد, بكل الأحوال كانت مصابة بجنون العظمة, تعتني بشكلها الجميل دائما, وكان سلوكها المتحدي مسرحية كوميدية جلبت لنا الكثير من الضحك, وللشرطة الكثير من التراجع عن قرارات بعقابها, استضافت المكتبة أيضا أم(جدة) وابنتها(أم) بهيئة محترمة. متهمات بسرقة الأطفال وإرسالهن إلى أحد شيوخ الخليج, تم إسقاط التهمة عنهن بعد عودة المخطوفات ببعض المال. وتراجع الأهالي المسحوقين أمام المال عن القضية.. شكلن مع غيرهن شبكة عملت في أكثر من قطر عربي, الابنة تنتظر أمام أحد المشافي الحكومية لرصد أم تحترق من أجل ابنها المريض تذهب لعلاجه مجانا بسبب ضيق الحال, تتقدم امرأة العصابة بحجة تقديم المساعدة ونتيجة الحاجة المادية تتم العملية ببساطة.. تأخذ الطفلة وتعطي المال للأم من أجل الذهاب إلى الصيدلية لشراء الدواء, تركب في سيارة الأجرة التي تنتظرها.. وامرأة أخرى تسجل الأطفال لتسافر بهم, تنقلهم إلى الخارج بجواز سفر مزوّر.. دخلت الشبكة نساء ورجالا السجن. النساء صاحبات جوازات السفر المزورة أقمن في غرفة الدعارة..

بجانب المكتبة, الغرفة السابعة المخصصة للاقتصاديات, من جامعات العملة, والاختلاس بدوائر الدولة, تحولت مع ضغط السياسيات العددي, إلى غرفة للسياسيات, مع عدد محدود من الاقتصاديات.
بعد الغرفة السابعة, غرفة واسعة بدون مصاطب, سميت مدرسة لأنها كانت مخصصة لمحو الأمية عند نقل السجينات إلى دوما, حيث كان عددهن قليل.. بعد ذلك ومع تزايد العدد أصبحت مخصصة لكل التهم غير الواضحة, الخطيرة والخفيفة.. فيها القاتلة غريبة الشخصية, فيها العجوز أم بسام, أم النقيب الذي هرب بطائرته إلى إسرائيل. يقال أنها تعرف بخطط ابنها التجسسية لأنها الوحيدة من عائلته قد تمّ اعتقالها.. فيها الدعارة والمخدرات وحائزات العملة الصعبة حيث كانت حيازة العملة الصعبة تهمة كبيرة, فيها التشرد والتسول, السكر والعربدة, فيها كل ما يخطر على بالك إلا النظام والنظافة والهدوء. النزيلات فيها أتحفونا بكل أنواع الغضب والضحك بعد إغلاق الأبواب في الثامنة مساء.
الغرفة الأخيرة كانت غرفة المخدرات, ليس للمتهمات بالتعاطي بل النقل والحيازة, التعاطي كن في المدرسة.. تعتبر سوريا من مناطق عبور المخدرات الهامة في العالم.. في تلك الغرفة ترى ثقافات من الحياة متنوعة, أجنبيات وعربيات وسوريات قادمات من سجون في الغرب لإتمام عقوبتهن. كان عدد السوريات قليل, اللبنانيات أكثرية. غرفة ملفتة للنظر كل واحدة فيها على درجة كبيرة من التفرد, أغلبهن شخصيات ذوات حضور مميز.. قلن أن بينهن لبنانية متحدة مع الجن, لذلك يأتي أهلها ويزورونها مهما كانت الظروف ورغم كل المعوقات.. كان لبعضهن علاقات مثيرة مع الرجال في سجن عدرا, قصص تتكون عبر المقابلات التي كانت تتم عند زيارة طبيب الأسنان هناك وتستمر عبر الرسائل التي ينقلها أحيانا شرطي.. كانت رسائل تضج بالكلام الفاحش

الذي كنا نخجل من سماعه عندما تقرأ إحداهن رسالة منها أو إليها..
انتهت الجدران التي تمتلىء بأبواب ونوافذ الغرف.. عن الجدار الأخير كان جدارا من البلوك حتى الصدر بعدها يتحول إلى عازل من شبك معدني. يطل على ممر بطول السجن يأتي الزوار إليه كل يوم أربعاء..
في زاوية هذا الجدار اليسرى للداخل باب القفص.. وهو عبارة عن باب كبير من شبك معدني يسمح بمرور عربة كبيرة عند فتحه.. يتوسطه باب صغير يسمح بمرور رجل.. يعبره يوميا رجال ونساء الشرطة ومتعهد الخضار وأم عبدو التي تأتي للسجينات بالأغراض الخاصة بالنساء.
في زاوية السجن بين المطبخ والحمام ومقابل باب السجن باب أصبح يفضي إلى عيادة السجن التي تفتح يومين في الأسبوع.
لكل غرفة باب وشباك أو أكثر, الأبواب والشبابيك من الحديد الأسود, والباب مضاعف باب مصمت وآخر شبك, كان الشرطة عند التأمين وإغلاق الأبواب, يقفلون باب الشبك.
هذا هو المكان: سقف البناء العالي يمنع أي اتصال مع الخارج, يمنع الضجيج, يمنع حتى الأذان من الوصول, لكنه لا يمنع تيار الكهرباء ولا المياه من الانقطاع, كان قبل تحويله إلى سجن للنساء, سجنا مدنيا للرجال ولم يعاقب فيه السياسيون, لأن سوريا فيها العديد من الأماكن الكافية لحجز حريات السياسيين: من سجون وقلاع وفروع أمنية. قبل ذلك, قبل التأميم, بيت لأحد الأغوات.
كان ضجيج المكان من داخله, الزحمة في الغرف, الزحمة في الباحة, مناظر بشر يؤذيك رؤيتهن في الشوارع, يأتين إلينا بتهمة التشرد والتسول. كان بديلا في بعض الحالات عن مشفى الأمراض العقلية.. فيه كذب واستغلال لجهود الآخرين, احتمل ترف البعض, و فقر أخريات, فيه قصص خيالية من مشاركة الجان إلى تحضير الأرواح. فيه نماذج لكل ما تطرحه الحياة.. فيه نحن.

في هذا المكان المحدد اجتمع المجتمع بأكمله, واختصرت المسافات لنتعرف على بعض بدون تكاليف, وبدون مواصلات. تعرفنا على قصص مدهشة, قصص نعرفها من الكتب, لكن سنكتشف أن الواقع يختلف عن كل النظريات.. كان الدخول في قصص القضائيات يدخل إلى أرواحنا الدهشة, مع أن قصدنا هو الهرب من الدخول في الشائك الحساس, من قصتنا ومشاكلنا, معاركنا أصبحت في مرحلة كمون, تنتظر الإفراج كي لا تنفجر, وأغلبنا يقاوم تفجرها.

بعد أن حصلنا على مكان جديد في الغرفة السابعة, بدأ الضيق من منع الزيارات وسوء الطعام يرخي بثقله علينا.. هكذا هو الإنسان حاجاته ترتب أولوياته, في البدء انشغلنا بالحصول على مكان أوسع, الآن بعد توسع المكان, اكتشفنا عمق حاجتنا لرؤية الأهل.. عندما نتكلم مع مدير السجن الذي كنا نراه باستمرار, كان يؤكد لنا أنه كان يتمنى لو بإمكانه فعل شيء, فنحن لسنا أكثر من أمانة عنده. نحن سجينات سياسيات في سجن مدني وهذه هي حدوده, كان يؤلمه أننا بدون زيارات, بل كان يخشى من وجودنا, خاصة أن ربع المعتقلات الشيوعيات كن من بلدته.

وجودنا في السجن المدني, له محاسنه ومساوئه كما كل الأشياء في الحياة: شكل المكان الطبيعي الذي يقترب من شكل بيوت أهالينا القديمة, مع الاختلاف في ارتفاع الجدران إلى الحد الأقصى بما يوحي أنها تصل إلى السماء, وإغلاق الأبواب في كل الأوقات. الإنارة الطبيعية وأشعة الشمس التي حافظنا بها على لون بشرتنا الذي طعمته الحياة.. كنا نتنفس هواء متجددا, ونجد متسعا من المكان للانفراد مع النفس عند الحاجة.

ومن مساوئه الهرب من حل المشاكل, ومواجهة الغير, أو الذات بشكل هادئ, وهروب الوقت بشكل مرعب.. مرت أربع سنوات في القفص اعتمدت الحياة فيها على ردود الأفعال وإغماض العين, مما فسح المجال واسعا لظهور تكتلات على أساس نفسي.. إحدانا, وبذريعة ثوريتها

العالية, استطاعت جمع خمسة من ذوات الخبرة القليلة, اعتمدتهن في ترويج أفكارها, وجمع المعلومات لها, ومحاصرة من لا تروق لها.. وبحسابات سخيفة أصبحت فلانة عميلة.. فلانة متخاذلة.. فلانة أنانية.. فلانة متعالية تسمع على ذوقها وتميز نفسها عن الأخريات بجلوسها في الزاوية.. كل صفاتها الأخرى لا ترى.. فالمراقبة من زاوية معينة وبطريقة معينة تظهرها وغيرها هكذا..

مع الوقت, أصبح لدينا أجهزة تشكيك ومراقبة تختلف مع بعضها بدون إعلان وسلطة, ثم وصلنا إلى الخوف من إبداء الرأي في الأمور الهامة والحساسة, لجأنا إلى تنظيم سري داخل الأسوار, ليحتضننا مجتمع متهالك بنيناه بأيدينا تعبيرا آخر عن فشلنا في إجراء التغيير اللازم على أنفسنا..

بقينا أبناء أوفياء للمظاهر التي صنعها أو استسلم لها أهالينا والتي ناضلنا ضدها, بل انتعشت صفات لم نتلمسها في أهالينا في مجتمع العزلة والقهر الذي تحكمه التفاصيل. أفقنا على أمراض الأقدم منا, على الأحكام الجائرة التي تقتضي أن الصواب عندي والآخر على خطأ.. عملنا على إنعاش تفاصيل اعتقدنا بحاجتها فجهزنا لعيش لا ننتمي إليه.. قضينا وقتا طويلا في نقاش التافه.. نقاش الأمور التافهة يستطيعه كل البشر, ليس عيبا أن تدخل فيه ولكن عندما يمشي بنا وقبلنا ويحيط بنا, سيأخذنا بعيدا عن أنفسنا, عن إنجازنا لقضايا مهمة اعتقدنا أننا نذرنا أنفسنا لها. احتمينا بقصص غير ضرورية, كانت تتلاءم وضعف نضجنا وقدرتنا على التكيف.. تاركين الباب مفتوحا لتفاصيل مميتة أو تكاد.. وتعبيرا عن الرفض بدأ البعض يتسرب خارج السرب, بمقاصد في أحسن الأحوال كانت الراحة الآنية.. بالنتيجة أخذ التفكك دوره.. ولم يعد يجمعنا ككتلة إلا رسائل الشباب القادمة من سجني صيدنايا و عدرا, وزيارات الأهل.. ما يؤكد أن المنقذ لنا سيكون من الخارج.. أو الخروج إليه.. معظم البنات

كن على علاقات مع الشباب في معتقلاتهم حبيب, أخ, زوج.. أنا فقدته وافتقدته.. أجمل الرسائل كانت من شباب عدرا أشاروا فيها تلميحا إلى حاجتهم للأنثى, عن طريق إيناس الفأرة لهم. أمتعتنا حكايتهم مع الفأرة وقرأنا فيها الذي بين السطور من عذابات الحرمان. كانت رسالة عامة وتحمل طرائف تنغم على وتر جمال الأنثى بالنسبة للرجل في الحياة..

في وقت لم يكن يجري بيننا نحن النساء حديث عن الحرمان من الجنس على الملأ, كنا نتحدث عن خوفنا على أطفالنا, عن قلقنا على ما يجري في المجتمع.. لكن لم تجر أحاديث جريئة في هذا الموضوع, تناولنا الأمر مواربة وبالعام, وكأنه يعيبنا أن تحكي واحدة عما يعانيه جسدها وهي في عز شبابها بعد وضعه في القفص.. عشنا عالم رهبنة بالإكراه امتثلنا لشروطه بإرادتنا, لم يكن بيننا من يخدش كل ذلك الحياء حتى بالكلام.. أحلامنا التي تذكرنا بأنوثتنا خبأناها في جيوبنا المغلقة, وتحكمنا بعيوننا كي لا تفضحنا, إحدانا فقط تجرأت حين تصحو, أحيانا, أن تفتح باب حكايتها مع جسدها, تتحدث عن حلم غريب, وبطريقة تخدش حياءنا, مع أنها حكاية طبيعية بين بشر في تجمع من نوع واحد. لقد كلفها ذلك مواقف تطهرية من قبل البعض.. لقد خدشت الحياء بمجرد عرض حلم!!.. كنا نكتفي بالاستمتاع بأحاديث القضائيات ومغامراتهن, وكأننا نحن أكثر رفعة من ذلك.. إنها حالة التطهر التي تلتصق بنا.. أما موضوع الشذوذ الذي يجري الحديث عنه في السجن, فقد اكتفينا بإبداء الكثير من القرف والاستهجان..

خدعة أسطورتنا مكنتنا من إدارة الظهر لحكايات القلب.. غيبنا أحاسيسنا, استسلمنا للحسابات في كل شيء, والحسابات هناك تختلف قد تكلفك جزءا" من روحك لأنها حسابات محاطة بالخوف بل بالرعب, وبالنتيجة رمينا الأحجار داخل القفص لإغلاق طريق المكاشفة في وقتها..

ماذا يبقى للمرء عندما يحاصره التعب بين الجدران التي تحتبسه.. ماذا

يبقى عندما تأتيه الخدوش من أقرب الناس إليه, ماذا يبقى عندما يصرخ فلا يرد عليه غير الصدى؟.. شيء واحد يبقى يجب ألا يسهو عنه وهو: أن يصنع توازنه في ذلك الوضع الاستثنائي. يحتاج إلى كل روحه ليتقدم ويقاوم ما يجري, يحتاج إلى أسلحة.. أسلحة ما امتلكناها بعد. التجربة الحزبية لم تكن كافية, ومدرسة المجتمع والجامعة لم تؤهلنا لذلك, والالتصاق بالشعارات الكبيرة والأماني زاد الطين بله...

في البدء كان للشعارات التي أتينا محملين بها دورها في تجميعنا, لم يكن هناك نوايا في ابتعاد أي منا عن الجميع, وكان الجميع ملتزما بالحياة المشتركة من صندوق مشترك, ووجبات مشتركة ودخان.. بدت الحياة سهلة ورصينة, مع الزمن أخذ الحنين إلى الفردية دوره مع الإمكانات المفتوحة له من: ضيق الحال الذي سيطر على الجماعة, ومنافذ الرخاء النسبي التي حملها من تنادي من القضائيات لعلاقات مع بعض منا..

واتجه اجتماع الواحدة بالكل إلى الاشتراك في تنظيم الحفلات, والسهرات الجميلة بجانب البحرة أو في الغرف.. كان لدينا كل شيء لننظم سهرتنا لدينا المواهب لدينا الأصوات الجميلة, لدينا الروح المرحة, لدينا بعض المتاعب, لدينا باحة نتحرك بها بشكل مشترك من الثامنة صباحا وحتى الثامنة مساء, لدينا الأمطار والشمس والثلج, وأكثر لدينا كل شيء لنعيش بشكل مريح نسبيا. أمامنا حياة تتطلب أن نتفاعل مع بعضنا البعض فيها لننجز بناءها.. أمامنا مسؤوليات كبيرة اعتقدنا بسهولتها أكثر من اللازم فضاعت علينا بعض الفرص..

في الظروف الاستثنائية تأتي الفرصة استثنائيا و ضياعها سيولد غرقا في تصرفات تبعدنا عن حاجاتنا الحقيقية..

قبل أن تنخرب الحياة الجماعية, وكنا في يوم الأربعاء, يوم زيارات القضائيات. وقد جرت العادة في هذا اليوم, أن تقوم الشرطة بقفل الأبواب على السياسيات من الساعة الحادية عشرة وحتى الثانية من بعد الظهر

في غرفتيهن الرابعة والثالثة. كان ذلك يزعجنا ولكننا نعرف أن هذا الإجراء يتم بطلب من قبل فرع الأمن, أو على الأقل استجابة للمتطلبات الأمنية السافرة التي تحرمنا من زيارة الأهل, لأننا إن بقينا في الباحة سنتمكن من الحديث مع الزوار على الشبك, والزوار يمكن أن يكونوا من أهالينا, وهذا ممنوع.

في ذلك اليوم ونحن نخلي الباحة بناء على الطلب, سمعنا صراخا,عرفنا بعده أن هناك مشادة حصلت بين إحدى الرفيقات ومدير السجن, كان نتيجتها أن رفعت يدها عليه, أخاف ذلك التصرف مدير السجن, لكنه ربما تفهم حالة المرأة تحت الحصار. فلم يكبر الموضوع هدد بلسانه فقط. أما نحن, وعلى مبدأ قبل ما يتغدا فينا نتعشى فيه, أي قبل أن يحدث انفجارا متوقعا خرج الغليان الذي كان بداخلنا, وأعلنا إضرابا مفتوحا أهدافه:

- الزيارات المنتظمة التي كانت ممنوعة من قبل الأمن وليس الشرطة.
- تخصيص مكان للشيوعيات في الغرفة الرابعة وهذا من اختصاص الشرطة.
- تحسين نوعية الطعام وهذا غير ممكن إلا إذا تحسن الأكل لكل الشرطة.
- تحسين الطبابة وهذا أيضا بيد الشرطة. وأقول تحسين لأنها كانت مؤمنة بشروط متدنية.

بند الزيارات كان بيد الفروع الأمنية التي أرسلتنا, وكان أهم بند بالنسبة لنا. فقد بتنا نشعر أن الزيارة أصبحت الحلم الذي سينقذنا من التعب, خاصة أن زيارة الأقدم منا أصبحت أكثر صعوبة, بعد أن كانت زياراتهن أسبوعية ولمن يشاء من المجتمع, مثلهن في ذلك مثل القضائيات, كانت الزيارة لهن لا تحتاج إلى موافقة أمنية ويمكن لأي

شخص أن يتواصل معهن عبر الشبك, تلك الميزات لم يكن من السهل الاستغناء عنها.. وجودنا هو الذي نبه الشرطة إلى خطورتنا والقديمات معنا, لتصبح لجميع السياسيات شروطا خاصة في الزيارة تتطلب الموافقة الأمنية أولا. وهكذا أصبحت زيارة القديمات مرة كل شهر وفي غرفة منفصلة خارج القفص, وبموافقة أمنية, أما نحن فزيارتنا في حيز المجهول.. وكان مضى على وجود الأغلبية في دوما ثلاثة أشهر..

أما البنود الأخرى فيمكن أن تحققها الشرطة رغم صعوبة ذلك, فحصتنا من الطعام كانت معادلة لحصة من يخدم في الشرطة. وحصة الشرطي تعادل بضع ليرات سورية في اليوم.. كذلك ضيق المكان..

أخاف إضرابنا رجال الشرطة. لم يعتادوا على إضراب جماعي في سجن مدني, الشيوعيات جميعا دخلن في الإضراب, إضافة إلى عدد من الأخوان المسلمين, إضراب مفتوح على الماء فقط دون إضافة السكر أوالملح.. بعد يومين بدأت قوانا تضعف, وبدأت من تعاني من وضع صحي سيء بالأساس بالانهيار, وتناولنا تردي وضعها الصحي بالنقاش, كان رد فعل البعض أن ذلك سيسهل الأمر, ويجعل أجهزة المخابرات يردون علينا, وعندما تردى وضعها أكثر نقلوها إلى المشفى, نوقش الموضوع وكان رأي البعض أنه يجب أن ترفض السيروم استكمالا للإضراب.

مرة أخرى أتأكد أن الشعارات والأهداف الكبيرة تجعلنا قساة حتى الظلم. لا يهم حتى إن فقدت روحها, المهم أن ينجح الإضراب.

جاء قائد الشرطة ومدير السجن بعد ثلاثة أيام, أخبرونا أنهم أعلموا الجهات المعنية ووعدونا بتحسين كل ما هو بحدود صلاحيتهم. اللجنة المكلفة بالرد من قبلنا, أبدت التصلب المطلوب, بل الأكثر من المطلوب.. "على جثتنا سنكمل الإضراب أو تحقيق كل مطالبنا".. مازلنا أقوياء.. بعد يومين اقترح البعض إضافة السكر للماء, وجاء الاقتراح من

الإخوان, أيضا تم الرفض. في اليوم الرابع, لم يعد لدى الأغلبية القدرة على الوقوف.. أصبحنا نحتاج إلى من يرافقنا إلى الحمام والجو صيف. ومن أجل زيادة القهر أتتنا زيارات وطعام على مبدأ الجكر الذي يرافق المسكين, وضعناه في البراد الصغير خاصتنا, نحلم بأكله عندما تتحقق مطالبنا, في اليوم الخامس, بدأت مع البعض من الرفيقات نقبل بتهريب بعض السكر مع الماء سرا, تحسن الوضع تماما من جهة استعادة بعض الطاقة التي تمكننا من قليل من التفكير والحركة.. هناك من بقي لديهن هذه القدرة ولا أعرف إن كن يتناولن ذلك أم لا. أعرف أن قدرات البشر تتفاوت وأعتقد أن الأغلبية قد لجأن إلى إضافة بعض السكر.. ما أسهل الخيانة عندما تهتز قناعتك.

قال البعض نرد على الشرطة, قال أصحاب الفصل في الأمر لا.. إضراب مفتوح. كيف يكون إضرابا مفتوحا؟! ونحن محكومات من قبل رجال بدون قلوب.. وبعهدة رجال ليسوا بأصحاب قرار. ولا أحد يسأل عنا, إلا من يشاركنا السجن.. كنا نثير شفقة الكثيرات.. قمنا بالإضراب استجابة لشعارات تسكننا, لم نخبر حتى أهالينا بنيتنا, بل هم لم يسمعوا بالإضراب إلا لاحقا.

بدأ التفكك يلوح لنا. بعد اليوم الخامس أصبح تفكيرنا كله في حاسة التذوق والشم أصبحنا نشم رائحة الطعام في نومنا وكيفما تحركنا, أصبحنا نعتقد أن كل من تأكل أمامنا عدوة لنا, خاصة إذا تلذذت بالطعام. كان يسلينا شيئان: الحديث عن الطعام, وقراءة المجلات التافهة التي كان يعيبنا قراءتها قبل ذلك. جمعنا المجلات من جميع السجينات.. مرت الأيام.. اثنا عشرة يوما ولا من سائل يستطيع مساعدتنا, حتى بوعد, كانت بقربي صديقتي التي أصبحت أقرب لي من نفسي, وبهمس الصوت وكيلا نتعرض للاصطياد قلنا: ليتنا أنهينا الإضراب عندما جاؤوا في اليوم الثالث, ربما غيرنا همس بذلك قبلنا, لم يعد لدينا أمل أن يأتي قائد

الشرطة.. قلنا: لو أن مدير السجن يأتي!! لقد تعب الجميع.. كان يجب وضع خطة قبل بدء الإضراب, يجب أن ننسق مع الأهل القادمين في الزيارات, يجب القبول بوضع قليل من السكر, لم يكن وضعنا بالمأساوية التي تستدعي كل تلك الشدة..

عندما أتى مسئولون من الشرطة في اليوم الثالث, كان واضحا أن الأمن لن يرد. راهنّا على أنهم سيردون عندما تتردى أوضاعنا الصحية أو عندما نفقد واحدة, نسينا من يتحكم فينا, إنهم أصحاب عقيدة تدمير لكل من يخالفهم الرأي. وأصبح واضحا أيضا" أن خوف الشرطة بدأ يخف, ولم يبق من أمل لنا إلا تعاطفهم الإنساني معنا.. أخذ أنيننا يعلو. أنيننا وصل إليهم.. إلى من بقي فيه شيء من ضمير.. في اليوم التالي, اليوم الثالث عشر من الإضراب, جاء ضباط السجن, وعدونا ذات الوعود التي كانت في اليوم الثالث.. هذه المرة بغياب قائد الشرطة. من شدة التعب تعطلت الشعارات, أطلقت الحياة حكمها: أهلا بالطعام.. لعن الله كل أشكال الظلم.. تحول الخروف الذي كان يسكن دماغنا قبيل فك الإضراب(حيث تحول حنيننا كله باتجاه الأطيب من الطعام أحدها كان الخروف المكتف), إلى فروج مشوي لكل واحدة كانت قدمته جمعية خيرية, اعتادت أن تقدم للسجن معونات طعام في العديد من المناسبات, الدينية منها خاصة. لم تستطع أي واحدة منا إنهاء وجبتها..

غمرت السعادة الشرطة بإنهاء الإضراب, أما فروع المخابرات فلا أعرف إن كان هزهم الموضوع من الأساس, إن وصلهم صراخنا الذي مزق الهواء, أم كنا مازلنا في نظرهم مجرد أرقام يمكن الاستغناء عنها. في البدء, ودائما أحتاج إلى هذا البدء وقبله لتفسير بعض ما جرى, أو لقراءة سريعة في تحولات لم يكن يخطر في بالنا أنها ستكون هي حياتنا.. حياة مملوءة بالشك في كل شيء وترقب بعضنا بمنظار الخيبة الذي سيزيد قلقنا درجات.. إذن في البدء, كنا متحمسات للعمل الحزبي, نظمنا

أنفسنا في حلقات ثقافية للقراءة والنقاش, الجميع سيلتزم بالبرنامج, سيتذكر البعض البرنامج الانتقالي لنقاشه, هناك بنات لم يسمعن بالبرنامج سيتعرفون عليه, هناك بنات لا يحبذن قراءة الكتب المتوفرة في مكتبة السجن, هناك من لا تحب القراءة في الجو النفسي الذي كانت فيه, الأسوأ أن هناك من لا تحب القراءة أساسا.. سيكون هناك مجلة "الجرح المكابر" لنشر المواضيع الثقافية والآراء بدون أية قيود.. ولن تمنعنا السلبيات التي فتحت فجوات في حياتنا من فعلها كأشياء تذكرنا بانتمائنا وسبب حجز حرياتنا..

الحلقات لم تؤد دورها.. هناك من انسحبت مبكرا, هناك من استمرّت على مضض, خلافات في مواضيع الذاكرة, وصلت إلى حد إثارة الغضب وتعطيل التفاعل الذي نحتاجه أكثر من كل شيْ, لولا الخجل لانسحب الأغلبية بعد قليل من الوقت. بالنتيجة لم نستطع ترتيب المكان كما نرغب, عملنا حلقات فاشلة لتعلم اللغات, النزق وقلة الحيلة التي تضيع بين اتساع غير ظاهر وضيق واضح, الدوافع تضعف بسرعة أمام إغراءات استهلاك الوقت في التسالي العديدة.. والانشغال بالحالات الصحية المتعبة, بدءا برفيقتنا التي كانت مصابة بالفصام.. ضللنا عن الهدف عندما تقدمت المتاعب من: خوف وقلق وحرمان وحيرة.. على الرغبات وبدأ الوقت يهرب دون أن نلاحظ مروره, في زحمة المشاكل التي أثقلتنا.

يقولون عن السجن, الداخل مفقود والخارج مولود, والمفقود أشكال, مفقود يرحل ولا يعود أبدا حال مضر.. وآخرين, مفقود يفقد نفسه أو عقله, حال رفيقتنا وغيرها.. ومفقود بشكل مؤقت ينتظر خروجه. وطالما المفقود غير مفارق للحياة والإرادة سيبحث عن الأهم وهو توازنه, كانت المحاولة عبر بناء حياة مشتركة فقدت ألقها مع الزمن, وانتقلت العديدات من التفاعل مع المجموع إلى مجموع أقل أو الانفراد, في كل الحالات

كانت أجنحتنا تساعدنا على الخروج من أشد العذابات. لكنه خروج إلى السطح الذي تكسوه الأشواك ويغطيه الغبار.. بات على كل واحدة أن تقلع شوكها بيديها.. كانت محظوظة من تعرف استخدامهما.. أحيانا تتعطل يد وأحيانا تتعطل الاثنتان..

مضت الشهور في السجن, لم نخضع لمحكمة ولم نعرف مدة حجزنا. هزت أرواحنا كل إشاعة بشأن الإفراج على اعتقاد أن مدة سجن النساء قصيرة. وبذلك سمحنا لمزيد من الوقت المأسوف عليه, احتل العمل اليدوي حيزا هاما من حياتنا, إضافة إلى لعب الورق والثرثرة, وأصبح مرور الأيام أسرع رغم ثقل الساعات.

ما أصعب الحساب الزمني حين تمر به الساعات بطيئة والأيام سريعة.. يحصل ذلك في الحرية أيضا حين تتماثل الأيام.. وتصبح نسخة عن بعضها, نستهلك فيها الكثير من الوقت في زخرفة الرمادي. زخرفة نلهو بها, تتوقف أقلامنا عنها عندما يأتي الإفراج عن إحدى المعتقلات.. حينها كانت أغنية طلعنا على الشمس.. طلعنا على الحرية تتفجر في حناجرنا أنينا" يمزج بين الفرح لمن تخرج والتحرق للخروج لمن بقي.. لم يعد المكان الذي يحصرنا مناسبا لأرواحنا التي اشتاقت رائحة العيش في أمكنة تواجد الأهل.. نترقب رسول الحظ على أحر من الجمر.. لقد أمسكنا بعد سنوات قليلة من الحصار بتذكرة رحلتنا إلى النضج في مكان غير استثنائي.

حقوق كثيرة نتخلى عنها لضعفنا, أو لعدم انتباه.. بإرادة واعية أو بغير, وفي كل الحالات هناك المبررات الكافية لهذا التخلي ونمتلك القدرة على تعزيز هذه المبررات طالما القناعة لم تخدشها الأسئلة..

في مجتمعنا الفرد مسحوق أمام الكل المسحوق بدوره أمام السلطات, مسحوق في التربية الأسرية والمدرسية, وهو مسحوق أمام السلطة الدينية, والشعارات في الأحزاب السياسية.. شعرت بذلك الضعف بعد أن

وجدت نفسي راجعة أشعر بعدم الرغبة في اللحاق بأحلامنا.. مع حصولي على تذكرة العودة رأيت كيف حولنا الضعف مع الزمن إلى لون واحد غريب عن كل واحدة فينا. لون باهت عاند الشمس والهواء..
إنها أصباغ السجن..
بينما نساء الإخوان ظللن بألوان مختلفة, لكل لونها.. ربما كان ذلك مجرد إحساس سببه الرفض لما ذهبنا فيه.. وربما أن استسلامهن للقدر هوّن عليهن قسوة الحبس..
في الأشهر الأولى لحبستنا, وفي الغرفة الرابعة كنا فسيفساء غريبة من كل الأطياف السياسية. كانت حقوقنا نحن الشيوعيات هي الأضعف. خمس شيوعيات مع أغلبية من الأخوان, و معتقلات من باقي التهم في السجن: توحيد, قوات, تجسس.
كن الأقدم, عندما جئنا.. أخفناهن.. ذكرناهن بالصهيونية هكذا أتى التعبير على لسان البعض.. لقد أتينا لنحتل جزءا من المكان المخصص لهن.. فنحن أعداد مفتوحة وهن بعد عشر سنوات من الاعتقال, يصعب عليهن التخلي حتى عن فراغ عشر سنتيمترات تركوه بين الواحدة والأخرى..
بعد وعود الشرطة بأننا لن نصبح أكثر من خمسة وجهود من الترجي, استغنين عن الفراغات ليصبح لنا ثلاثة أماكن, المكان هو عرض 70 سم والذي هو عرض الفراش, وأربع فرشات لننام, رتبنا الفرش ثلاثة توازي فرش الأخريات ينام عليها أربعة وواحدة عمودية في الأعلى أنام عليها باتجاه متعامد وبشكل مخالف للجميع اللاتي ينمن باتجاه شرق غرب..
أعطونا أسوأ مكان في الغرفة, بجانب الحمام ورفوف المونة.. وجود نساء متشددات من الأخوان, لم يمنع وجود أخريات لطيفات يعرفن تقدير الصداقة مع الآخر, جمعتنا بهن علاقات حميمة. كانت أقرب صديقة إلى نفسي واحدة منهن, استوعب باقي الأخوانيات علاقتها بي على أرضية الضرورات تبيح المحظورات, كنت أكلمها في كل شيء ولا أستطيع أن

أكذب عليها.. كلمتها عن أهلي عن خيبتي, عن مغامراتي, أجمل الكلام كان عن بناتنا, حلمنا.. كنا نستطيع الكلام معا في أي وقت, لأننا في نفس الغرفة وبنفس المزاج.. نلتقي بعد إطفاء النور في الثانية عشرة على شبك باب الغرفة, نطير بأجنحتنا ونتأمل السماء حالمات بغد أفضل, كنت أحب النجوم, وأكره القمر بدرا, حيث كان في السماء (التي تبدو كسقف عال جدا نتيجة علو الجدران) أشبه بالأضواء الكاشفة الموزعة على زوايا السجن لمراقبتنا, دائرة كبيرة ومضيئة.. مازلت حتى الآن لا أحبه بدرا.. يتغير عقل المرء ووجدانه بتغير الشروط.. كنت أعشق القمر بدرا, كان رفيقنا في السهرات قبل أن تضاء قريتنا بالكهرباء وكان عمري خمسة عشرة عاما, كانت أمي ككل أهل القرية, ترى فيه رسم الإمام آغا خان على فرسه, كنا صغارا نصدق, لأنها معتقدات راسخة لديهم, يتحدثون بها بملء جوارحهم, فتصبح لدينا حقائق نتأملها بدون تفكير.. ونبقى على ذات الارتباط حتى عندما تتغير القناعات.. استبدلت حبي للبدر هناك بحبي للهلال.. لا بد أن يبقى للقمر مكانة خاصة, كانت أمي تدعو لله موجهة نظرها للقمر وهو هلال. دعوات تحمينا من الشرور, دعوات لزيادة المال. غابت أمي وغابت دعواتها, ودخلت أنا في امتحانات صعبة بعد ذلك وتبدل حبي للقمر.

نحن الخمسة في الغرفة الرابعة لم يكن بيننا مشكلة تذكر, كما لم يكن هناك علاقات حميمة خاصة. كنا ندخل مرغمات للغرفة عند التأمين أي عند إغلاق أبواب الغرف في الثامنة مساء".. نتحايل على الشرطة لترك الأبواب مفتوحة وقتا إضافيا, نخرج منها فور فتح الباب في الثامنة صباحا, كل الواجبات نقوم بها في الغرفة الثالثة.. طعام وشراب وتحضير للحفلات إضافة إلى النميمة التي أصبحت جزءا من حياتنا. كان بيننا الشاعرة خفيفة الظل التي تعرف الفرح في كل وقت ومكان. وما يوجعني أكثر من غيره أنها كانت هناك في ذلك المكان القاسي,

صبية تضج حيوية عرفت كيف تداري همها بضحكة أحيانا ليست لها, كانت صاحبة موهبة حقيقية.. رغم صغر سنها وتجربتها المحدودة في الحياة.. أكثرنا قدرة على التعبير عن أحاسيس الأخريات وفي كل وقت.. حدسها الصادق جعلها تتجاوزنا. خففت الكثير من الألم عنا في الوقت الذي لم يكن لدينا مكان محدد في الغرفة, أول أيام وجودنا, أيام ترحالنا بين أماكن السجينات الأخريات, كانت مهرجا عندما نحتاج, وكما الرسام دائما معها الورقة والقلم تكتب.. تصور ما تراه.. ترى أشياء لا نراها, تقرأنا, وتكتبنا.. وتسلينا.. تكشف هروبنا في لعب الشدة للخروج من شدة. تكشف ما يفعله ذلك الحبس الكريه في أجسادنا, تقرأ عيوننا التي تفضحنا.. تكتب الرسائل الشعرية لمناسباتنا تلخص فيها ما نحمله من آمال وآلام.. آلام الشوق والحرمان وآمال مستقبل تسعى إليه.. تلخص بإبداع حقيقي آلام من أرادوا أن يتركوا أثرا" في ظروف معقدة تمحي كل أثر..

نالت نصيبا وافرا من مواقف أهلها المجحفة, تعبت ولم تتعب موهبتها. انتظرت إبداعا أدبيا لها, الكنز الذي تحمله والتجربة التي عاشتها تكفيها زوادة لإبداع تستحقه ونستحقه.. للأسف مرت كل هذه السنين واستمر الانتظار.. كأن ذلك سيطول أكثر.. علها تنتظر الظروف المساعدة ولا تستطيع خلقها للتعبير الجميل عن ذلك الصمت وذاك الضجيج.. عن ساحات الألم وساعات الفرح التي قطفنا, تخرج ما خبأته أدراجها من تفسير وتعريف لكل إحساس في كل لحظة مرت, انتبهنا له أو لم ننتبه.. لم يكن إبداعها يقتصر على الكتابة بل كانت متحدثة جميلة, تعرف كيف تجذبك لحكاية من خيالها على أنها حقيقة تمعن في الوصف الذي يأخذك كلك لتكتشف في النهاية أنها مجرد حكاية بمغزى بسيط أنساك نفسك وهي نسيت نفسها, تسعفها لغتها في الوصول لما يريد الجميع. كان معنا في الرابعة أيضا, المجبولة بالبراءة, حيث تدهشها الأمور التي

تعرفها, يستوي عندها الصعب والسهل, حساسة.. المعقول عندها ضيق جدا.. فكل شيء غير معقول, مع أنها تصدق كل حكاية تسمعها, دهشتها الدائمة تجتمع مع حسن نيتها.. إيمانها بالحتمية التاريخية والجدل الماركسي لم يطرد من براءتها ما يكفيها لاستيعاب الواقع بتشعباته. والطبيبة التي تحب فلسفة الأشياء لتزيدها غموضا.. وجدت نفسها في الخدمات الطبية على مدار الساعة. دائما هناك من يريد أن يعرف ضغطه.. أذكرها دائما ومقياس الضغط في يدها, الجميع 9\5 حالة الهمود النفسي والفقر الغذائي واضحة ولكن؟! لا تكل ولا تمل.. تعطي بلا حدود.. تسمح لنفسها بقول نصف الحقيقة للخروج من مأزق تضع نفسها فيه.. كانت قد سبقتني إلى دوما.. صوتها عال, نبرتها حادة عندما تكون غير راضية.. كانت طبيبتنا في السجن لفترة أشهر, تحولت إلى طبيبة ثانية (بقدوم طبيبة متخرجة) في اليوم الذي عرفت باستشهاد مضر, لم نتباعد كثيرا عن بعضنا.. يمكن أن أثق بها, ويمكن ألا أتعامل معها.. كانت علاقتنا بين الحميمة وشبه الخصومة.. الحالة الوسط بيننا صعبة. تحسنت علاقتي معها بعد السجن.

لونت الغرفة الرابعة أيضا, الإعلامية التي يعمل ذهنها باستمرار في التذكر والتساؤل بحماس.. تضع يدها على الجرح بعصبية, لا تنام بدون الهواء النقي فوق رأسها, وكان ذلك مستحيلا بدون شباك قريب, فكيف ونحن بجانب الحمام.. تطلب الهدوء, وهذا مستحيل في المكان والزحمة التي نعيش وسطها.. أي كانت عصبيتها حاضرة بسبب قلة النوم, وبسبب قلة النوم كانت تسمع شخير النائمات, ترى وتسمع الكثير.. وتضطر لإيقاظ جارتها أملا بالنوم أو بتقطيع الوقت.

كنت بين تلك الأقمار, أجيد التعامل مع كل سكان الغرفة, أحيانا أكسر الحدود في غير الوقت.. كان لإحدى البنات ملاحظة عني أن "أسلوبي ساخر وجارح".. أعتقد أن صدري كان يضيق من تبسيط الأشياء

واستغراب كل شيء.. عيب لم أتمكن من التخلص منه, كنت أخرج المواقف بشكل ساخر لأنني غير معتادة على المواجهة.. أحيانا تكون السخرية اللطيفة أخف الأشكال في المواجهة.. خاصة إذا كان إخفاء ردود الفعل الغاضبة غير ممكن.. اليوم أتجنب التعامل مع البسيطين المحسوبين على المثقفين لأترك خنجري في غمده. عشنا بحب مع بعضنا ومع الأخريات في الغرفة بدون منغصات في إطار وجودنا خلال ساعات التأمين فقط ومشاركتنا الكلية في الغرفة الثالثة..

في الثالثة, كان العمل والتسلية والخدمات, في الباحة كانت النزهة.. في الليل إذا لم يكن هناك سهرة على البركة تتمشى كل واحدة مع من تريد, أو مع من تطلبها لعتاب أو نميمة دسمة. حين يكون المزاج معكرا" ولا أرغب بالكلام أتطفل على إحدى الرفيقات لتترك لي مسجلتها, وأسمع في الظلام شريطي المفضل الأوديسا, فيأتي صوت إيرين باباس ليصنع لي أجنحة فعلا, أذهب معه وابنتي والذين أحبهم أو بمفردي إلى الغابة, أو البحر, أو شوارع دمشق.. أحلم بالطرق الممتدة وأسمع صوت البحر, أسافر بعقلي خارج المكان الذي لا يمكنني الخروج منه بإرادتي.. كان طقسا جميلا أنتهي منه فأكون مشتاقة للأخريات وساعة التأمين حانت.

نزيلات الغرفة الثالثة كن أكثر تفاعلا وحركة, فيها أغلبية شيوعية والباقي إخوان, واحدة بتهمة بعث عراق تعيش بين الشيوعيات كأنها منهن, لا تعرف عن العراق شيئا إلا اسمه, ولا تعرف عن البعث أي شيء. الحركة في الغرفة تجعل الحياة تعبر عن نفسها بشكل صاخب, والتحول باتجاه مشكلة بين الطرفين سهل.. أغلبيتهن ذوات أصوات عالية. إذا حصلت خناقة سمع بها جميع من في السجن شرطة وسجينات, الشتائم تتناول المقدسات للطرفين, وأكبر مشادة كانت تحتاج وقتا أقل من المطلوب لتطييب الخواطر, وتعود الأطراف للتعامل وكأن شيئا لم يكن. يشبه ذلك ما يحصل في البيوت, بين الأهل..

الغرفة الثالثة, ضمت الزعامات, وأطلقت الاتهامات الكبيرة, فلانة عميلة للأمن السياسي, أخرى للعسكري, الدلائل طبعا غير موجودة! ولم تكن مطلوبة أصلا.. إن دل ذلك على شيء فهو يدل على التفكير الأمني الذي يغزو عقل من يعمل في السياسة في أجواء الاستبداد..

هناك, كانت رفيقتنا المريضة التي فقدت أعصابها.. من المسافة بين رغبتها في صنع البطولات من قبلها وأهلها, وواقع الانهيار الذي أصاب عائلة انتمت بمعظمها إلى حزب العمل الشيوعي.. شعورها بالإهانة أفقدها قدرتها على حماية نفسها..

هناك, انتظرتنا أقدم رفيقة لنا في المعتقل, وكنت أتلهف للقائها, انتظرتنا وفي داخلها ثورة دفاع وهجوم على أخرى انتظرتنا مسلحة بهجوم شديد اللهجة, كانتا بأمزجة متعارضة, بفهم متناقض للحياة وبالتالي سلوك مفارق. كل واحدة تعتقد أن الأخرى مليئة بالأخطاء ويجب إدانتها, كنت بداية في موقع المتفرج, مع شيء من الانحياز للأولى.. بعد زمن قصير دخلنا جميعا في الخلافات على التفاصيل وبمبررات السجن فقط, لا أعرف إن كان هناك شيء من العدوى قد أصابنا, أو أننا كنا نحمل استعدادا للنفخ في الخلافات الصغيرة بالرغم من إيماننا أننا أصحاب نفوس كبيرة لاتهمها الأمور التافهة.. لا يهم إن كنا علامة أن الحياة مازالت بخير في مجتمعنا بعد أن استسلمنا لأسباب النزق, وعدم قبول كل منا للآخر, لنعجز في النهاية على إنهاء رسالتنا بالشكر للقدر الذي جمعنا..

عشنا بأغلفة الخوف فلم نتمكن من أن نكون عائلة واحدة, عشنا متحدات غالبا في خلافاتنا مع الآخرين, فمرت الأيام من وراءنا بمزيد من السرعة, ودفعنا فاتورة تعب على حساب تفاعل ممكن.. كثرة التجاوزات في السر وعدم المواجهة الموضوعية والمجاملات, أضاعت مع الغصة المرافقة شيئا مهما من الحب الذي كان موجودا, وليس من سبب لذلك

أكبر من التربية القاصرة, التي أبقت على عيوب المجتمع فينا. معجونا بمتاعب الأيام المتماثلة والمرتبكة, متاعب من الخارج من أهل البعض, أدانوا ابنتهم خوفا من المجتمع والاستبداد.. متاعب من ضيق المكان, من مساحات الهيمنة التي شغلتها بعض ضيقات الأفق.. تلاشت قدرتنا على لعب دور السند والمسنود, وقصرنا في حماية أحلامنا من التكسر على أحجار الظلم التي أحاطتنا.. للأسف كنا صنعنا قيودا ستترافق بعضنا إلى اللحظة الأخيرة.

بقي لنا الصراخ في أغلب الأحيان عند تناول الحساس في حياتنا, لم يمنع ذلك لوصول إلى نتائج مهمة في بعض المواضيع من مثل سد جزء من تكاليف حياتنا عن طريق العمل في السجن لاستغلال وجود السوق(الذي ستموله بنات الدعارة). حجة الرافضات وكن قلة, أنه يعيبنا العمل عند الدعارة, أما الأكثرية.. فقد وجدنا ضرورة العمل للمساهمة في مصروف نحتاجه, هذا إضافة إلى أن العمل اليدوي سيشغل الوقت الضائع في السجن ويخفف وطأة الملل.. اتخذ القرار بالأغلبية بإقرار العمل, مع الزمن وبعد تنظيمنا للعمل وفق القدرات علمنا أن التي قاتلت ضد العمل كانت ذريعتها التسامي على الزبائن بينما هي في الحقيقة تكره العمل اليدوي ولا تجيده.. كما أنها تجد واجب دعمنا من الخارج في كل ما نحتاجه, مازالت ترى أننا وعد الناس للوصول إلى زمن أقرب إلى زماننا.. وواجبهم سد كل احتياجاتنا.

كل تفصيل في الحياة, يكشف عن سلوك يدل على ما تحمله النفس من ضعف وقوة, أحيانا قوة تحول الضعف إلى قوة, وهذا أقصى ما يطمح له الإنسان في الظروف المعاندة.. يتطلب ذلك مزيد من الصدق مع النفس ومع الآخرين وتحديد الحاجات والقدرات والعمل على توجيهها بما يخدم وصولنا.. أحيانا نخسر قوتنا عندما نتوقف عن اكتشاف حاجاتنا فعلا, قناعاتنا فعلا, لنتمثل من حيث لا ندري معايير ليست لنا..

كان علينا أن نعرف قدرات أهالينا في دعمنا ولزمن غير محدد.. كلنا حلمنا بدعم أكبر, ولكن مع الزمن تعلمنا أن من في الخارج ليس باستطاعتهم سد حاجياتنا.. لذلك أخذت رغباتنا مسار الخضوع للمتاح بعيدا عن المراوغة. لم يعد هناك مجال للأحلام, هناك واقع وهناك طرق مفتوحة لنا سنجتازها مع التغيير المرافق على أرواحنا.. مع شعار مجتمعي التجارة لا تعرف التطهر. بل سنجد في العمل لاحقا فرصة لتخفيف التوتر.

عندما تكون حرا تساعد نفسك على الخروج من التوتر بحركة, بصنع أطعمة تحبها, بالخروج في نزهة ترغبها.. في عمل منزلي أجلته.. في فعل شيء من أشياء عديدة متاحة تحت سيطرتك.. بينما في السجن أنت والوقت.. ستتحول المشكلة أحيانا إلى نار يمكن أن تحرقك, أمامك قليل يمكنك فعله.. هناك التظاهر بالنوم, ودموع تنقل إليك آلامك إلى جانبك, تحتضنها وتحاورها لتنبش أملا..

كان العمل استجابة للواقع في نفس الوقت شكل نقلة ايجابية في حياتنا, دواء من التوتر الذي بدأ يشتد. فرصة لصنع ملابس وهدايا لمن نحب, تشكلت لدي مهارات مازلت أستمتع بالعمل فيها.. صنعنا هدايا من الخشب وبذور التمر.. حكنا الصوف, فساتين وكنزات, اشتغلنا في البرق والخرز, خطت بالخيط والإبرة فساتين لحبيبة قلبي ابنتي وغيرها من اللواتي أحبهن.. ابنتي كانت ترافقني في كل غرزة صوف وفي كل غزة إبرة. كنت أنهي العمل بقطعة لها بمتعة حقيقية.. بينما بقي العمل للسوق بدافع الواجب وغالبا بغير رغبة. خضع العمل للسوق للغيرة والجدل الدائم حين تعمل واحدة أكثر من الأخرى دون النظر لتفاوت المهارات, وكان لذلك سلبياته في مساحة مردود العمل فيها للكل والكل لم يتخلص تماما من الأنانية..

شهور قليلة مرت على وجود الأغلبية في دوما. وبعد الإضراب بشهرين

تقريبا, جاءتنا رفيقتان واحدة أعرفها كنا معا في حلب, أخذت مكانا في الثالثة, والثانية أسمع عنها, أصبح مكانها في السابعة, اتضح أن شيئا رهيبا يسكن من أعرفها, لا تستطيع الانتظار.. فتحت باتجاهي النار التي في داخلها فورا, فرأينا حزنها عليه, أخبرت عن رحيله. تجمد الدم في عروقي.. نسيت رغبتي في سماع الأخبار عن البنات اللواتي بقين في الفرع.. لقد وصلهم في فرع فلسطين خبر: أن الشباب في سجن صيدنايا فتحوا إضرابا ثلاثة أيام لمعرفة حقيقة وضعه, وإلا سيعتبرونه شهيدا. كانت واثقة من قوتي.. أما أنا فتركت لخيالي عمله في تلقي الضربة بهدوء, أخبرتني أن مضر أضيف إلى قافلة الشهداء, كأنها لا تعرف قسوة الخبر, أو ربما كانت فخورة بذلك, أو ربما قرأت في عيني بتلك السرعة التي تحتاج إلى ذكاء إضافي, أنني أقاوم حقيقة واضحة, لأصطف مع بشر يهربون من دموعهم بصمتهم, لكن الحياة ستنفجر بما تخبئه في يوم لن يكون لي فيه قدرة على التحمل.

بقيت بين مصدقة وغير.. حاولت بذلك أن أكذب على نفسي, ساعد التجمد في عروقي على تيبس مشاعري لزمن مر على أعصابي بسهامه الطائشة.. أدركت ذلك في الأيام التي تلت, عندما تحولت أحلامي إلى كوابيس منعتني من الهروب, وأفقدتني القدرة على التشبث بصلابة ضعضعتها الآلام مع لا أمل.. ليال من الكوابيس المرهقة, بعدها عودت نفسي على نسيان أحلامي, بكيت سندا لي في حياة أنتظر الشاق منها. بكيت ابنتي التي لا أعرف كيف ستتعامل مع غياب والدها, بكيت أمه التي كانت تنتظره أمانا للشيخوخة.

عريسنا أزاح عن كاهله تعبا" قادما" وغاب, لم تسعفه قوته على مقاومة العواصف, فنسي دوره في حماية الأهل من غصة لن تفارقهم ..

بكيت ليلا وداريت البكاء نهارا, دخل الظلام قلبي, ذبت بين الدمع والآه, خبأت حزني, كنت أخشى أن يؤثر ضعفي على صغار التجربة من

رفيقاتنا, وكان هذا هو الخطأ الأكبر, لأنه كان علي الخشية من ذوات التجربة الواسعة, فهذا الضعف ربما يتحول سلاحا ضدي. اكتشفت متأخرة أن الإنسان الكبير لا يخشى ضعفه ودموعه.. فالضعف من صفات البشر الذين يعيشون الحياة كما هي, بحلوها ومرها.. ليس ذنبي أنني أبكي عندما أتألم بسبب من أحب. الرفيقة القادمة لم تقصد إغراقي بالهم لكنها أزاحت عن كتفها حملا ثقيلا, فهي كانت تحبه.

مازلنا في العام الأول للاعتقال, كنا قد خرجنا للتو من الإضراب وما أفرزه, أغلبنا قبلته الحياة الجماعية والعمل على حمايتها, بت أكثر تشتتا بسبب مداراة حزني الذي عشته وحيدة تقريبا.. استجبت لتربيتي الحزبية التي لا تقف عند المعاناة الفردية.. بل تطلبت إنسانا" يقوى على ظروفه, امتثلت لتأهيل الأسرة والمدرسة في إلغاء الفرد أو إهماله أمام المجموع.

كل الثقافات التي شربت منها لم تعلمني الدفاع عن نفسي والبوح بمشاعري بغض النظر عن رأي الآخرين.. وكما أغلبنا خشيت مناقشة مشاعر الضعف التي انتابتني بمحاولة عدم كسر قانون صاغه المجموع..

مقابل الأغلب هناك الأقل, كن يتفرجن على جبل الغضب الذي كونته مشكلة خروج إحدانا على نظام المجموع في المساء, استيقظن صباحا ليعلن عن حاجتهن لتشكيل كتلة منفردة, قررن ذلك بوضوح, ثلاث نساء, لم يكن راغبات بإثارة أي مواجهة مع الباقي.. بدون خوف, توّنسن ببعضهن, وطرحن المبرر في حاجتهن لإعفاء أهاليهن من تكاليف الزيارات, والاكتفاء الذاتي عن طريق العمل مع التقنين في المصروف.. انفصلت أخرى لتعيش بمفردها, وأخرى لتعيش مع صديقتها القضائية.. مشين في طريقهن الجديد مع احتفاظنا بالود.

الانفصال في البداية جرح بالتكاتف الذي كان شعارنا, مع الوقت أصبح عاديا.. ومع مرور الوقت تغيرنا جميعا, أظهرت الحياة ما بداخلها من

عيوب.. أصبح بعضنا أكثر جرأة.. وبقي المجموع.. استمرت المراقبة لصنع الحكايات.. حكايات منعتنا من الاستمتاع باجتماعنا.
هكذا بدأت الأقمار تتحرك منفردة, بشكل معلن أو مستور, مع بقاء قانون الجاذبية يحمي التواصل الهام, بقي يجمعنا الكثير إلا الحوار الذي يخفف من عتمة الليل وظلام السجن.. الحوار الذي ينبهنا إلى تقديم الشكر لمن يصنع معروفا مهما كان حجمه.. يوصلنا إلى الجرأة في طرح أخطائنا.. يرشدنا إلى توجيه حدسنا عندما يخطيء بمسار جديد ينقذنا من خيبات الأمل... حوار يستطيع إنقاذنا من التافه قبل أن نغرق فيه.. حوار كلما زادت حرارته زاد عدد المشاركين فيه.. حوار يلغي الكثير من مبررات الانفصال.. إنه الحوار الذي لم يعلمنا إياه أحد.. اعتقدوا في الحزب أنهم أسسوا له.. أسسوا لأبجديته بفتح صفحات المجلة الداخلية لتيارات الحزب المختلفة ولملاحظاتهم.. تكلم رفاق بظلم لحق بهم, وأخطاء ارتكبت بحقهم, دون أن يطالبوا بحقوقهم..
بدأت الزيارات لكن بالواسطة, أي ليس استجابة سريعة للإضراب, جاءت زيارة أهلي الأولى, لم أر فيها إلا ابنتي, أختي, وكنا معا في السجن, تولت مقابلة الأهل, حدثتهم عن وضعنا, سناي كانت على العضم, وكان كلامها رخوا مثل أهل المنطقة التي كانت تعيش فيها, كانت في نهاية عام الصف الأول أي كان مرّ حوالي الثلاث سنوات من الحرمان من الغروب التي لم تخفق في إصابتي بحزن أمسك بكل خلية, قبل ذلك بسنة وصلتني صورتها المدرسية وكانت تبدو في صحة أفضل, في الصورة لها خدود, هي في قلبي وصورتها فوق رأسي حمتني من آلامي.. أو اعتقدت ذلك. اختنقت من شدة نحافتها.. خرجت للزيارة في أبهى صورة ممكنة, عرس في كل خلية يستجيب طبيعيا لكل الأشواق التي أحملها.. ساعة الزيارة كانت فسحة إلى الحياة, صحا قلبي النائم على أحزانه, وكمن يرقص على الجمر صحوت بعده على حزن من نوع

جديد, ابنتي في حضني, كانت زودتني بطاقة تكفيني للزيارة المقبلة لو لا كل ذلك النحف, تمنيت أن يسمحوا بدخولها معي في الصيف, رغم كل ما يحتويه المكان من قذارات يصعب أن تجنب الطفل التأثر بها. عندما انتهت الزيارة ودعت الأهل كما استقبلتهم, ودعوني بكثير من الألم, دخلت إلى القفص انفجرت باكية.. كنت أحتضنها وأحتضر, عدت من غرفة الزيارة ودموعي تسبقني.. اعتليت قمة حزني, لا أعرف إن كان بسبب الكثير من الشوق الذي لم أستطع تفريغه, أم بسبب آخر!! رنت في أذني جملة ستزيد من إحساسي بالذنب, رصاصة في قلب صافي النية مليء بالود والحنان أيقظتني:" معلوم تريدون إنجاب الأطفال والعمل بالنار" عرفت سبب بكائي, كما عرفت.. ربما كانت حزينة مثلي, تحتاج في تلك اللحظة أن تكون أما تحتضن أطفالها.

نحيفة, تتكلم بسرعة وبلهجة بعيدة عن لهجتي.. حدثتني عن مدرستها عن دفاترها.. لم تسألني أسئلة الأولاد عن أسباب ابتعادنا ولا عن المستقبل.. لم تكن تريد إحراجي.. احتفظت بمرارة الفراق ولازمتني الغصة منذ تلك اللحظة, ولازمني الخوف عليها.

اللعنة على الخوف.. الخوف من شيء يأتي به أحيانا, كان يجب أن أكون أكثر قوة في التعامل مع المسائل العاطفية, بل بعض من الشجاعة التي اعتقدتها كانت سلاحا كافيا لفتح طرق أقل إيلاما.

أجل خفت وتألمت للحدود القصوى, لم يكن خبر استشهاد والدها أقسى من خوفي من القادم على نور عيوني.

كان لكل من الأخريات معاناتها أيضا, واحدة أكلها الخوف.. جاءت في آخر القافلة تحمل أثقالا فوق كتفيها.. وجنينا في رحمها بدون زواج رسمي.. حاولت الكثير من أجل الهرب من مواجهة ستكون صعبة.. بقي الجنين رغم التعذيب, وكل وسائل الإجهاض المتخلفة.. ولدت في المعتقل, زينت حياتنا بقدومها, رفعت يدها ضد كل أشكال الجهل التي

كانت تحكمنا, أزاحت أعشاش العنكبوت من فوق الجدران, سابقة عصرها, كانت أمها تعتقد, كما نحن, أن نهاية الأخلاق سيكون بكشف هذا الحمل, لكن الأمر رغم قسوته على الأهل لم يكن بحد ذاته جريمة لا تغتفر. جميعنا كنا أمام ضرورة تقبل الحقيقة, وأول الجميع صاحبة العلاقة.. تم إعلان سر لم يكن كذلك لو كانت حياتنا طبيعية و قد أراح إعلانه الجميع, كان والد الجنين (الطفلة لاحقا) في وضع التخفي.... بكل الأحوال كشفت المتناقضات كيفية انكماشنا عند بعض المواجهات في قضايا تخدش البنية الأخلاقية لمجتمعنا..

كانت الأم تعتقد بعد أن استسلمت للحمل أنها ستنجب صبيا وهي العاشقة للبحر, اقترحت عليها أن تسميه, بحر, أعجبها الاسم, وعندما جاءت بنت, كان لها اسم مرتبط بالبحر, حاملته سوسحت قبطانه وبحريته. ظهرت مشاعر الأمومة عند كل الرفيقات, كلهن في عمر الإنجاب, وكل واحدة ترغب بأن يكون لها ولد.

في السجن حبك لشيء يعني العشق له, ينتظر مناسبة لتتغنى به. في غرفة المدرسة, كانت ابنة الستة أشهر والتي نقلت أمها بحفوضتها المخدرات, تركض من الصباح لتزور إحدى رفيقاتنا شديدة التعلق بها.. كنت أستغرب تلك العلاقة التي يرسمها الحب الأمومي بين رفيقتنا والطفلة القادمة من غرفة لا يسمح لشاغلاتها المساهمة في تحضير الطعام.. تهرب من إهمال أمها, مستجيبة للحب والرعاية عند رفيقتنا.. لقد أزاح شعور الأمومة الطبيعي الستار عن فراغ الساحات العاطفية من زادها.. والتي لم تستطع الزيارات الرسمية لأهالينا معالجتها.

الزيارة لا نحتاجها عندما ننام ونصحو على كتاب اسمه الملل.. أبجديته الخوف والقلق والخواء أحيانا, نحتاج في الزيارة إلى خبر إفراج, أكده لأحدهم أحد المسئولين في البلد.. الخروج سيعيد الهواء إلى صدورنا.. والنشاط لجسدنا.. والأمل لعقلنا..

ضمن هذه المشاعر وبعد مضي ثلاث سنوات على اعتقال الأغلبية, جاءت تباشير المصالحة مع الزمن بقدوم لجنة أمنية إلى السجن. جاءت بعد الإضراب بأكثر من سنتين. حينها كان مطلبنا زيارات رسمية للأهالي, أما الآن فقلوبنا مليئة بالدموع والخشية من استمرار الحال بهذا الشكل مدة أطول. في هذه الأجواء النفسية أتت زيارة اللجنة لتصعد الآمال بالإفراج..

طلبوا عددا من البنات إلى غرفة الزيارة, كانت المشاعر والاستنتاجات كلها تقول باقتراب الإفراج, جرى ذلك في عام 1990 اثر الإفراج عن عدد من الشباب.. كل الحوار (حسب تسميتنا آنذاك) يؤكد أن نظرة من يحجز حياتنا لنا ايجابية, فهم يحترمون مشاعرنا تجاه الوطن, ويعرفون أننا يمكن أن نساهم في بنائه جيدا. على عكس نظرتهم للإخوان.. وصل تفاؤلنا إلى أقصاه, رأينا التماع الشمس على جبيننا, رأينا القمر يغمز لنا طربا.

في غمرة تفاؤلنا بالخروج كان لي أن أشهد, وهنا أضطر إلى دمج التاريخ القمري بالميلادي, إذ أتذكر العام بالميلادي واليوم بالقمري.. العام, 1990 اليوم 12 ربيع الأول, الوقت مساء, الجو صحو, والقمر قبل البدر بقليل يضيع في الهالات التي حوله, قوس قزح يحيط به دائريا, قوس قزح في الليل أعطى للمنظر سحرا زاده فرادة.. ألوان السماء من كثرة بهائها, شكلت لوحة أعتقد أن تكررها بهذا البهاء صعبا و أصعب بمعاندته القفص.. لم أر هكذا منظر من قبل ولا بعد..

هي الطبيعة عندما تريد أن تخبر شيئا, أحيانا تطلق حكمتها في زرع القوة فينا لتشد من أزرنا, كنت أتأمل السماء, وتلك أحد المتع النادرة التي كنا نمارسها في السجن.. وأسأل كم من البشر توحدهم الرؤية الآن.. قطع تأملي جمهرة من النساء حول امرأة, من ذوات القصص الغريبة التي لا تتناسب مع شكلها. امرأة وصلت بتهمة قتل رجل في بيتها, قتلته وغطته

وبقيت هي وابنتها ابنة الثالثة عشر في البيت, لم يستطع الغطاء أن يغطي قدمه, بقيت عقدة عندها أن ترى أي قدم مكشوفة, طبعا إلى جانب عقد كثيرة يفرزها غياب وعي لم يستطع زيارتها لا في النهار ولا في الليل, قصتها كما كثير من القصص هناك غامضة.. ربما قتلته لأنه حاول التحرش بابنتها وهي التي اعتبرته عونا لها للزمن القادم.. ربما استغلها أكثر من اللزوم. حكايتها الغريبة أقل غرابة مما فعلت في ذلك اليوم بعد أعوام من الصمت البليد.. سحر الدنيا غير اتجاهه أمام قرع الطبول, الذي اختصرته تلك المرأة بالضرب على برميل غسيل بعصا ثخينة, اعتقادا منها في رد الخطر الذي ينبىء به القمر وهالاته.. شكل هذا الطرق موسيقى تصويرية لاحتفال نساء الأخوان بعيد المولد النبوي في الغرفة الرابعة.. كان الاحتفال قد بدأ قبل ظهور الهالة.. وسط تحضيرات له على أصولها جرت بينهن, نساء الأخوان, من الضيافة والأغاني الدينية والأناشيد, أدت الأغاني واحدة منهن كانت فقدت صوتها مع الذاكرة لمدة 6 أشهر إثر اعتقالها, بسبب ما مورس عليها من صنوف تعذيب وصلت إلى خرق المقدسات والمحرمات.. يقال أنهم حاولوا اغتصابها.

القرع على البرميل من امرأة غريبة سرق الأضواء من كل شيء, لم يترك شيء مع نفسه, بل ربما قرب الأشياء, وعاش السجن حياة منسجمة مع الجنون.. كنت أقول آخرون في الدنيا الواسعة يرون معي ذات المنظر للسماء, بعدها قلت آخرون في الدنيا, تجمعهم نفس ثقافة الخوف المترافقة مع ظواهر الطبيعة, يقومون بهذا الطقس في الخارج على طبول حقيقية.. هاجت النساء حولها.. فهم ينتظرن ما يسليهم في هذا الحصار, انتهى العرض. وعاد كل شيء إلى ما كان عليه مع أثر يختلف حجمه في روح كل منا.

كما انتهى الاحتفال في الغرفة الرابعة بعيد المولد النبوي, دخلنا الغرف

للنوم من غير شهية كالعادة وأكثر.. حدس الغريبة أتى في مكانه, إذ تغيرت روح السجن.. نحن الخمسة في ركن الحمام, غادرنا الغرفة بعد قرار الإفراج عن الإخوان الذي كان في اليوم التالي, وما تلاه من ترتيب جديد للسجن.. هربت المعتقلة الأقدم بأحمالها التي جمعتها على مدار ستة عشرة عاما إلى الغرفة السابعة, ما عادت تحتمل نظرات التخوين في عيون البعض في الغرفة الثالثة..

ودعناهن, ولم يكن بيننا أحقاد, كنت أعتقد ذلك, حتى قرأت ما كتبته إحداهن من مهاترات على الشيوعيات بعد أعوام من الخروج, جردتهن من الأخلاق والقيم, لتكشف ما تحمله في ثقافتها ما ساعدها على خيانة الموضوعية المطلوبة وهي تنشر ألمها وألم الجميع.. ثقافتها حرمتها من الفصل بين الشيوعية والإلحاد, ومشاعرها ضد الإلحاد ساقتها إلى خلق أفعال لم تكن موجودة في حياتنا, وتفسير أفعال أخرى بعيدا عن سياقها.. اضطرت لخلق أحداث تفسر مخاوفها التي لم تعلنها في يوم غمسنا فيه طعامنا بالألم وتمزقت أرواحنا بالقلق..

أربع سنوات من الحياة المشتركة لم تساعدها لترى كيف أن أغلبنا كان يحترم معتقداتهن, لأنها بالأساس معتقدات أهالينا, عشنا عليها, وترسخ احترامها في وجداننا حتى لو عارضناها, كان هناك أخطاء, منها جزء خلقته الحياة اليومية داخل الأسوار. أخطاء لم نسلم منها كما الآخرين..

جمعنا الحصار في الغرفة الرابعة و كانت صديقتها التي كانت توأمها هناك, تطلب دائما لي ألا أموت إلا وأنا متدينة, لأن الله يضاعف حسنات المؤمن بعشرة.. اعترافا منها بسلوكي الجيد, وكذلك كثيرات غيري من الشيوعيات.. لكن العصابة كانت على الذاكرة التي احتفظت بالسلبيات وضخمتها وأضافت لها, ورمت الإيجابيات دون خشية على الإيمان.. اعتقدت, مخطئة, أن الخلافات لم تمنع جوهرنا من الظهور.. وأن الكثير من الأحكام المسبقة نطقت الحياة بنقاشها ودحضها.. كل من عاش الحياة

عرف أن رفيقاتنا الطبيبات لم تمنعهن الإيديولوجيات من القيام بواجبهن الإنساني تجاه الجميع, بغض النظر عن الانتماء..
نساء من جنسيات مختلفة على تماس مع بعضهن طوال النهار, في باحة واسعة, بعضهن في الظل وأخريات في الضوء, بعضهن يفكر بالعقل والحدس وأخريات بالغرائز, وقليل بدون تفكير.. بعضهن كان لهن رسالة للحياة بحروف كبيرة, وأخريات يعشن للآخرة.. وبعضهن يعيش اللحظة.. تنوع كاف لإنجاز دراسة أحوال الناس في القرية الكونية.. روح الباحث الجاد كانت ستساعد في حال توفرها على تقديم دراسة عن بشر عاشوا نفس الظروف اكتفى كل منهم بسلوك مرتبط بثقافته اعتاده بعيدا.. ترى ذلك في طريقة أكله.. تعامله مع الآخرين, في تعامله مع جسده.. ستكتشف تفاصيل الحياة اليومية مقدار تأثير البيئة والتاريخ على سلوك البشر.. الأجنبيات كن يصنعن الحواجز في الباحة بواسطة الشراشف والحرامات للتخلص من أعين رجال الشرطة.. ثم تتخلصن من ثيابهن الخارجية, يستمتعن بالشمس على كامل أجسادهن, بكل الحرية التي يمنحها مجتمع النساء المفصول, وأخريات يبقين في الحجاب حتى في الغرف, وفي درجات الحرارة التي تدعو الجسد للخروج.
نساء متحررات من القيود.. مع نساء يرون في القيود حياتهن.. وسط نساء يعتقدن بالتحرر وهن أكثر تشددا عندما يذهبن في مراعاة المجتمع إلى أبعد من المطلوب.. مع ظلال نساء لا يعرفن الفرق بين الحرية والانحلال بأنواعه.
بعد ساعات من ذلك الاحتفال الغريب لتلك المرأة الغريبة.. واحتفال الأخوان بعيد المولد النبوي.. أخذوا نساء الإخوان إلى فرع التحقيق العسكري, انتظروهن ليستيقظن في اليوم التالي للاحتفال.. عقدت أرواحنا الدهشة.. كيف ذلك؟ لقد حاورونا فكيف يفرجون عن الإخوان ونحن لا؟! هناك خطأ ما.. كان ذلك لا يصدق.. مفارقة لم تدخل في

عقولنا. ألم يدخل في وجدانهم أن قلوبنا الصغيرة لا تحتمل كل ذلك الخداع, بدأنا بإخراج أجنحتنا من الجيوب لنخفي بها الصدمة.. نساء الأخوان اعتقدن بخروجنا أيضا, ربما كن يحسدننا, وحصل العكس.. كيف حمينا أنفسنا عند انكسار أحلام رسمناها وتمسكنا بها أكثر من اللازم لشعورنا باقترابها؟! لم يكن أمامنا أكثر من استيعاب مقولة ها الخد تعلم على اللطمات..

غابت نسوة الإخوان أيام قليلة, وعدن ليأخذن أغراضهن التي جمعنها في سجنهن الطويل, ويودعن السجن إلى الأبد, ودعناهن بالحزن على حالنا, وبالفرح لهن.

كنا قد التقطنا صورا" في الغرفتين الثالثة والسابعة سرا", بكاميرا لواحدة منهن. صور تشهد على أعمالنا في المسرح وحيويتنا. كما تشهد طفولة طفلة الجميع هناك.. كان وجود الكاميرا سريا لذلك هربنا الأفلام إلى الخارج, ولن نرى تلك الصور حتى الانتهاء من الاحتفال بخروجنا.. بدموع الفرح ودعت أعز صديقة لدي في ذلك المكان, والتي كانت من الأخوان.. ودعتها لألقاها حين أخرج بنفس اللهفة التي توقعتها, لكن لتتلاشى أواصر الصداقة مع الزمن بدون سبب, إلا قناعتها بأن الضرورة لعلاقتنا انتهت.

وبحناجر تملؤها الثورة غنينا لهن أغنية فيروز "طلعنا على الشمس طلعنا على الحرية". رأينا الدموع المحبوسة في عيون الشرطة, كانوا متأكدين أكثر من غيرهم أن هذا المكان اكتفى من ظلمنا. وكانوا مثلنا صدقوا كلام اللجنة الأمنية بحقنا في الخروج وضرورته واقترابه.

بعد خروج نساء الأخوان وافتقادي لأقرب صديقة إلى روحي, بعدما تنحى العقل وانخفض معيار الايديولوجيا, غادرنا نحن الخمسة الغرفة الرابعة إلى حيث كنا نرغب بالبقاء عندما أتوا بنا قبل ثلاث سنوات, كنا كمن يعود بعد فترة من العيش في الغربة, عدنا وسنفاجأ لاحقا بمتاعب لم

تكن على البال, مرة أخرى تنطفئ شمعة الفرح باللقاء.. أعيد تشكيل مجموعات الخدمة.. وبسبب معاناتي من آلام في ظهري لتشنج أمسك به فقد تخصصت بالجلي, وصديقتي استلمت باقي الخدمات.. يتم العمل على أنغام أشرطة التسجيل, يتحكم بها القائمات في الخدمة, كنت أتبع فيروز بعبد الحليم ثم علي الحجار.. أمنح نفسي ميزة مرافقة الأشرطة بالغناء, بغض النظر عن قبول الأخريات, كانت الأدوار تتكرر كل تسعة أيام, أي كنا ثمانية عشرة امرأة في الحياة المشتركة.. هناك نساء خارج الخدمة لأنهن خارج المجموع, وقلة بسبب المرض, عند الانتهاء من العمل نستحم ونعود للحياة مع الأخريات.

إضافة إلى أدوار خدمة المجموع في الغرفة, كان هناك مجموعات العمل في الغسيل للمجموع, والذي كان بحد ذاته مهرجانا, البنات الأكثر طولا والأقل خبرة في العمل يقمن بنشر الغسيل, كانت الحبال عالية تناسب طول الرجال, فرضها ما يحتويه القفص من أماكن لتثبيتها.. وكانت تلك من المهام الصعبة جدا في الصيف, حيث يمكن أن يعرض صاحبته لضربة شمس. تذكرت أمي رحمها الله كيف كانت تقلق من نشر الغسيل في وقت متأخر من النهار, لذا تنهي الغسيل في الصباح الباكر.. في السجن يبدأ تنظيف الثياب وستائر النوم بعد فتح الأبواب يمتد على مدار اليوم.. لذلك لابد من رعاية الشمس للعملية.. وكان علينا الاحتياط بالبشكير المبلول على الرأس. لم يمنع الاحتياط من الإصابة في أحد الأيام بضربة شمس..

وكان للطبخ ثنائياته, سواء عند دور الغرفة في إعداد الطعام لكل السجينات مرة في الأسبوع, أو للطبخ الخاص الذي نقوم به يوم عطلة المطبخ– الجمعة– كنا نأخذ في توزيع الثنائيات: الخبرة والحالة الصحية بالاعتبار.

عندما أتيت إلى السجن, أضع تاج المجموع على رأسي, لفت نظري

كيف أن نساء الإخوان: يعشن كل اثنتين أو كل واحدة بمفردها, كما كن يزرن بعضهن في نفس الغرفة بمواعيد, تعد الداعية نفسها لاستقبال المدعوة جارتها, تستقبلها بالمصافحة كأنها أتت من بعيد, حاملة أشواقها إلى السير في الشوارع والحارات, لعبة بيت بيوت, فرضها عليهن الزمن ليلونّ الحياة القاسية.. كن يختلفن بصمت, و كانت عداوتهن صامتة, نظام صارم من الانضباط جعل حياتهن أقل توترا في السطح على الأقل, واحدة منهن في الغرفة الرابعة فقط كانت دائمة الكلام بصوت عال, كانت تتكلم عوضا عن الجميع, حديث منفرد, لكنه يحمل الألم الذي في صدرها عما شاهدت وتشاهد, وربما الألم الذي في صدور الأغلبية, كانت,إضافة إلى الكلام الدائر في الليل والنهار, ذات أفعال غريبة تشبه السحر, مكوناتها رائحة حلب وخضرة الموسم الذي نكون فيه. كانت دائما بحاجة لتؤكد لنفسها المعادلات العلمية التي انقطعت عنها وهي في السنة الثانية لكلية الطب..

في الوقت الذي كنا نقاوم بشدة من أجل حياة مشتركة لصنع تجربة مميزة, حكمتنا الفوضى أكثر مما حكمنا التنظيم. تحكم بنا مراقبة الجميع للجميع وتكديس الملاحظات في القلوب.. أعتذر من جرأتي, وأتمنى إن نشرت آلامي أن يعرف القارىء أن الكلمات مثقلة بضريبة اختصار حياة بنيناها باللحم والدم وتشتت الروح.

في الغرفة الثالثة, (وبعد أن أنهينا وجودنا في الغرفة الرابعة), صرنا على تماس مباشر مع بعضنا البعض على مدار 24 ساعة, عدنا في وقت كنا نهجي بالخروج ونراه أقرب من تلك الغرفة.. في وقت كان نداء الحرية يمزق الصمود الجاف.. لذلك أطفأنا شمعة الفرح عند وجودنا بدون طرف خارجي.. أطفأناها بدون أسف.. بقي أمامنا مشاحنات تشير في أحد وجوهها إلى النزق الذي دخلنا فيه. مشاحنة ذهبت بصوتي في مشادة مع شريكتي في الطبخ الخاص, ولسبب غالبا كان تافها بقدر ما

يمكن أن نكون تافهين أحيانا.. حينها جربت نفسي في الصراخ وفشلت, وتأكدت أنني لولا قدرتي على السخرية لضاعت روحي من الإحساس بالغبن..

كانت الغرفة الثالثة موطننا في السجن قبل وبعد إقامتنا.. فيها:

كنا نحتفل بعيد تأسيس الحزب, شكلنا شعار المنجل والمطرقة من قصاصات الصوف الأحمر والأبيض الناتج عن الحياكة على الحائط مع التاريخ 6 آب. نحتفل برأس السنة, نشرب من النبيذ الذي صنعنا بكميات قليلة أو من الويسكي الذي حضرنا بنقع التفاح بالسبيرتو.. كانت سهراتنا واحتفالاتنا تملؤها البهجة التي تستطيع تجديدنا لزمن قادم..

حاولنا تصنيع النبيذ بعد خروج الإخوان بكميات كبيرة لرأس السنة القادم.. محاولة جلبت لنا هما ثقيلا لاعتقادنا الدائم بأننا سنتعرض للتفتيش, الذي يشبه اعتقادنا بالخروج القريب. كنا على يقين أننا لن نشرب ذلك النبيذ, لعله سيتحول إلى خل أو سنتركه دون معرفة مصيره ومن غير أسف..

في الغرفة الثالثة, سمعنا أن رفيقة لنا حضرت جلسة تحضير أرواح في الندوة, فثارت ثائرة البعض ضدها, نعتت بالتخلف, وقصفت غيابيا بنيران علمانية الباقي.. نيران تخرج من صدورنا بدون مبرر كاف وبدون نتيجة إلا التنفيس..

فيها, كان يجري التحضير للاحتفالات العامة في المناسبات, خاصة عيد الأم. احتفلنا بأعياد ميلادنا وميلاد أطفالنا,هناك كانت الهمسات والغمزات, كانت صناعة التكتلات, هناك امتزجت الأحلام بالإحباطات, امتزج الغناء بالبكاء, امتزجت القوة بالضعف, وجدنا وأضعنا, ودعنا واستقبلنا, حلمنا بالغد وخفنا منه, امتزج كل شيء بنقيضه, حتى ضاعت التخوم وضاقت الصدور.

فيها, استقبلنا رفيقتنا (وسيلتنا الهامة في التعبير وكنا مازلنا في الغرفة

الرابعة) تبكي من شدة ما نالت من توبيخ في الزيارة, أهلها حملنها مسؤولية تعبهم, وخجلهم من المجتمع, متهمين إياها بأنها وضعت رأسهم في الرمل وهي من حي الرمل. وبدلا من إضفاء البهجة المنتظرة من الزيارة انشغلنا في تهدئتها.

هناك.. رفيقة تركت الزيارة, تشتم أهلها لقلة الأخبار في جعبتهم والفلوس في جيوبهم, ونحن نعرف ضيق حالتهم و شدة معاناتهم.. كنا قد طلبنا منها أن ترحمهم وتعفيهم من الطلبات التي هي فوق طاقتهم..!!

أيضا, أخرى لم تأخذ من أهلها فلوسا" مع أنهم قادرين لأنها تعمل وتريد الاكتفاء..

مفارقات عجيبة, فسيفساء كان يمكن أن تكون جميلة باختلافاتها لو أننا انتبهنا أكثر.. استهلكنا قسما من قدراتنا في التبرير هنا, والتخفيف من الأحزان المرافقة هناك, وتركنا للاستغراب مفعوله في الصمت.وتركنا لخلافات حول التفاصيل مفعولها.

في السجن, تلبس حذاء مريحا", وغالبا شحاطة ليست لك إن كنت لا تخجل من الفقر..هناك, ل 33 بنت في الغرفة الثالثة 33 شحاطة. بعد المعاناة أصبح لكل واحدة حذاء.. هناك أحذية راقية للزيارات.. ليس بالضرورة أن تكون الشحاطة على مقاس رجلك, غالبا تكون أكبر لذلك تكبر رجلك, وأنت لا تعرف ولأن البائع يهمه أن يبيع, فقد اشتريت حذاء عند خروجي بمقاس رجلي قبل الاعتقال.. والذي كان أقل بنمرة فلم أستفد منه. لا أعرف سبب هذه النمرة زيادة هل هي الفلقة أم الشحاطة؟! لا أقصد من هذا العرض إظهار حزني النمرة الزيادة بل عرض صورة كثيرا ما لفتت نظري.

في الغرفة الثالثة, كانت الشحاطات تلون الممر بين المصطبتين, عشنا هناك لا نعرف أن نقلع فردتي الحذاء بجانب بعض عند اعتلاء المصطبة, واحدة خضراء بجانب واحدة صفراء, بلاستيك بجانب نعل..

كان من هموم إحدى رفيقاتنا ترتيب الشحاطات بالشكل الصحيح, فيصبح المنظر مختلفا, ولكن بعد ساعة سيعود لاختلافه الأول. اختلاط الأحذية سيصل برفيقتنا إلى الغضب تسمع الجميع محاضرة ضد فوضى خلع الشحاطات, وتناشدنا في الانتباه الذي لن يكلفنا أي جهد ومن ثم تقوم بترتيبها.

وفي الغرفة الثالثة أيضا, الثياب على الرفوف في حقائب كبيرة. من حسن الحظ أن التعامل مع تبديل الثياب لم يكن بتواتر كبير ساهم ذلك إضافة إلى قلتها في بقاءها مرتبة بعض الشيء .سعيدة الحظ من تحظى بتلك الكنزة وذاك البنطال.. في يوم الحمام تشتغل الشطارة في انتقاء الثياب.. حمدا لله أننا فرزنا الثياب الداخلية بعد نقاش وجدل.. وأفرزنا ثيابا مخصصة للزيارات.. ثيابا تشبه تلك التي تراها في الشارع, لها من الحداثة ما يجعلها أنيقة, خاصة إذا ترافقت مع سيشوار الشعر والماكياج والحذاء المناسب. تشتهي نفسك وأنت تلبسها أن تكون هناك مع المارة, تذهب إلى عملك, وتمارس حريتك.

أماكن النوم على المصاطب, حصر وفرشات صغيرة بجانب بعضها لكل واحدة فرشة ومخدة وحرامات صوف, أصبح لدي لحاف بعد خروج الإخوان تركته لي صديقتي, نطوي الفرشة عند الاستيقاظ ثلاث طيات نضع فوقها المخدة واللحاف ثم غطاء وتتحول إلى كرسي للجلوس أو الاتكاء, مع بعضها شكلت ديكورا من طقم كنبات الجلوس. إضافة إلى ذلك كان لدينا كراسي نخرج بها إلى الباحة في الصيف, أو نضعها بجانب المدفأة في الشتاء, الكراسي لم تكن على العدد ولكن لم يحصل أن اختلفنا من أجلها, كان هناك حلول بديلة على أطراف أحواض الزريعة في الباحة وأطراف المصاطب في الغرفة.

في الغرف وعند إغلاق الأبواب كانت حياة أخرى بانتظارنا استطعنا أن نحتال على أنفسنا, وندير ظهورنا للأعباء الواقعة على كاهلنا, نستعجل

النوم عندما تسوء الحالة مع إحدانا على مبدأ نوم المظلوم راحة له. تكون أكثرنا عذابا من تلجأ إلى النوم ولا يتحقق لها, هي تعتقد أن سببه شخير إحداهن, أو ضحكة أخرى, أو ما يصلها من همس.. متناسية السبب الحقيقي الذي يكمن في صدرها وعقلها وروحها.

الغصة الأكبر ذلك الاكتشاف, كان الأهل مع البنات أكثر بخلا, لو كان لأسرة شاب وبنت في المعتقل, سيكون نصيب الشاب من قدراتهم أكبر. كما يحدث في التعليم وغيره عندما تكون القدرات متكافئة, لا أعرف حكمتهم في ذلك, ربما الشاب هو الذي يطالب أكثر, أو أن لهم طباع الفلاح.. يقدرون بطولة الشاب عند اعتقاله, فيكون سجنه موضع فخر لهم أحيانا, على مبدأ الحبس للرجال, كما لا يقبلون بكسر نفسه ما استطاعوا, ويعيبهم اعتقال البنت مهما كانت ثقتهم بها, لا يعرفون كيف يدافعون عنها. كما أنها لا تعرف كيف تطالب بحقوقها لدفن بعض الآلام التي تحيط بها. ربما يشغلهم كثيرا ما ينتظرها عند خروجها, يقارنون ابنتهم بقريناتها من الصديقات والقريبات. تلك تخرجت وتلك تزوجت وابنتهم مازالت سنة ثانية.. هذا في المشاعر العميقة. وربما كان هناك أسباب أخرى.. لكنها كلها تفتح على نفس الجرح, ظلم المجتمع للمرأة وظلمها لنفسها.

على باب الغرفة الثالثة, جرت ملاسنة بين مدير السجن و بعض الرفيقات, أدت إلى إعلان الإضراب.. بعد أن تحولت الملاسنة إلى استخدام الأيدي..

في الغرفة الثالثة, تابعنا نهائيات كأس العالم عام 1990 بشغف الأغلبية, التلفاز موجود, والوقت يستغيث بما يشغله, والمشاعر ترقص مع الشباب الجميل في الملاعب, أجمعنا جميعا نحن المتابعات للدورة, على جمال لاعبي الفريق الايطالي, وكل عازبة خطبت شابا, والمرتبطة سمحت لنفسها بخيانة من تحب.. ولحسن حظنا أنه وصل إلى اللعبة الأخيرة,

أغلبيتنا كنا متحمسات لفوز ذلك الفريق, لكنه خسر قبل الدور النهائي أمام فريق الأرجنتين, فكنا ضحية حزن لم نتوقعه, القهر يترجم حالنا.. كل عبرت بطريقتها, ربنا بالغنا في التعبير.. لكن الغريب والمحزن أكثر من رحيل الفريق المفضل, كان ردة فعل رفيقتنا التي لم تتابع المباريات والتي كانت تستغل فتح الأبواب لوقت متأخر, حيث سمح قانون السجن بذلك, في زيارة صديقاتها في غرفة المخدرات.. جاءت وصوتها وضحكتها يسبقانها.. شمتانة, لم تكتفي بذلك بل صبت على رؤوسنا درسا في الثورة الكونية, كان علينا أن نقف مع الأرجنتين تعبيرا عن وقوفنا إلى جانب حركات التحرر.. ولولا ضبط النفس بسبب الخوف منها لتفجرت مشكلة حقيقية.. لم تكلف نفسها تأجيل الموضوع إلى اليوم التالي. أو لم تناقش حقها على الحكم في موضوع لا تهتم به.

في الغرفة الثالثة كان التلفاز أداة لها حضورها المميز, المسلسلات الرومانسية والأفلام والموسيقى الكلاسيكية والبرامج الثقافية. كنا نتابع التلفاز منذ ساعة التأمين, بأيدينا أدوات العمل وعيوننا عليه, تعلمنا العمل وبقاء عيوننا على شيء آخر.. أما العقل والوجدان فلا أحد يعرف أين؟ نعوض عن الحرمان أحيانا بالاستغراق بمشاهد.. نعبر عن أشواقنا بالبكاء المر على مشاهد أخرى.. بالمحصلة كان التلفاز أداة لتقطيع الوقت وللمتعة والثقافة والتنفيس عن المكنونات..

في الغرفة الرابعة, ظل حضوره ضعيفا. كان للتسلية حضور أكبر, كذلك العمل, كان يذهلني عمل واحدة من الأخوان بالسنارة, يداها تعملان كالآلة بل أسرع, تعمل بسرعة الألم الذي يسكنها, وبقوة الصمت الذي تصدر نفسها به.. سنتان معا في نفس الغرفة لا أتذكر أنني سمعت صوتها في حديث أو مشادة كلامية أو غناء كان ظهرها دائما لنا نحن الشيوعيات يفصلنا عنها البراد خاصتها .. وجهها إلى الأخت الأكبر بينهن, كانت الأخيرة ذات صوت عال وحضور مميز فيه رائحة خفة

الدم ولكن بلسان سليط.. قلن أن الأمن عند اعتقالها قصوا لها جزءا منه.. لعل سبب الحضور الكبير للتلفاز أتى مرور الأيام توسعت حاجتنا للهروب, في النهار مع القضائيات وبعد التأمين في مشاهدة التلفاز.. لم يبق الكثير من الأحاديث.. قلنا كل ما لدينا, لم يبق الكثير من الرغبة لمناقشة ما يستجد من أحداث كبيرة.. بهت لون الأشياء دخلت وغيري في الرمادي.. غرقنا في التفاصيل أكثر.. رضخنا لقانون عالم الصغائر..

على أحد شبابيكها, كانت السهرات الرومانسية لواحدة من الأخوان, سهرات أخذت مشاهدها من أفلام أيام زمان. على باب..في.. أمام.. إلى جانب..تحصل أشياء معنا رغما عنا, ومن وراءنا.. يأتي ذلك بالتأكيد استجابة لمشاعر نعيشها.

عن المشاعر في السجن, الأمر أكثر تعقيدا, أنت تبحث عن الرضا عن النفس عن السلام والأمان, في مكان يسرق الأحلام والحاجات الإنسانية, قي السجن تتضخم المشاعر السلبية, تسمع عن المخدرات وانتشارها, تحسب حساباتك بالخوف على من تحب بالانزلاق, تسمع بالأمراض فتتخيل أن صحة من تحب مهددة.. في الحوادث تتوقع أقرب الناس إليك ضحية حادث, تأتيك الوساوس والمخاوف من غير استئذان, ذاكرتك تجهد أكثر من اللازم, وخيالك يصبح حصانا جامحا يأخذ منك هدوءك ويعطيك الخشية, والإحساس بالأمان يغدو الكذبة التي تضحك بها على نفسك. و بعد زمن من التعاطي مع الأشياء بصورة غير منطقية تتضرر المشاعر الإيجابية وتضيع الألفة بين الأصدقاء مع التعاطف عند الشدائد..

تصبح بعض المخاوف التي تظهر بردود الفعل طرائف ينبهنا لها غيرنا من اللواتي كن يعشن السجن بواقعية المحكوم بعدد سنوات محدد.. كنا هناك نلجأ لتفاؤل نرغبه عبر فرش ورق الشدة, أو في قراءة الفنجان,

عند خبيرات انتشرن يقرأن المستقبل.. من تلك الطرائف أنه في ذات يوم, وبباحة السجن الكبيرة كانت شابة من الأخوان, تستمع إلى مستقبلها من سجينة مخدرات أجنبية, قالت لها: ستموتين بحادث سيارة, أخذت الفتاة ترقص في الهواء فرحا.. قدرت الأجنبية أنها أخطأت التعبير, حيث تتكلم بعربية مكسرة, حتى سمعتها تقول: يعني أنني سأخرج ستكون لي حريتي.. كان مضى على سجنها تسعة أعوام وكان عمرها 25 سنة بعد مرور كل تلك الأعوام. انطلاقك إلى الشوارع يصبح حلما حتى لو كانت نهايته الموت بعد محاصرتك في القفص. بالتأكيد الموت أصعب.. ولكن للحرية طعما" رائعا"..

للدفاع عن ذلك الطعم يأتي رد فعل أحدنا قاسيا بقسوة الجدران التي تم إكراهنا على التظلل بها.. على بوابة السجن قال لنا زائر لأخته: الحياة في الخارج صعبة وتزداد قسوة نحن نحسدكم أحيانا.

تحسدوننا على ماذا؟ على هذا المقت الذي نحن فيه؟ على هذا الدوران في الحلقة المفرغة؟ على البؤس الذي نسببه لكم؟ كيف لكم أن تشدوا أزرنا بهذه الطريقة؟ لسنا صغارا, ولسنا متحمسات أكثر من اللازم لدفع الثمن عن كل من يشعر بضيق الحياة في الخارج.. سيل من رد قاس بمقدار الجرح.. مع أن الحياة عودتنا على تلك المساومات إذ عندما تكون في ضيق يطلب منك محبوك أن تتذكر من هم في حال أسوأ منك..

تلك أسوأ مساومة نخلقها لنتوازن مع التعب, الحياة تتطلب أن ننظر دائما للأفضل وأن نسعى للأفضل.. نحن لم نخلق للتعب ولكن ربما نجبر عليه, وإن دخلنا فيه لن نجده راحة, بل نعترف به ونتعامل معه على أساس قدرتنا على التحمل. لو قيل هذا الكلام الذي يقارن الخارج بالداخل قبل أن تغزو الوحدة ثقافتنا, لو وصلنا قبل سنتين ربما تناولناه بطريقة مختلفة, أما بعد أكثر من ثلاث سنوات على الاعتقال خاصة مع المتغيرات التي طالت العالم والوطن والتي وسعت خيبتنا, فإننا إن لم نشم رائحة الخداع

في هذا الكلام, سنشم رائحة الجهل والتجهيل.
لماذا لا يلجأ البشر إلى الصمت, حين لا يقولون ما يقدم للآخرين في حالة ضعفهم ما يقويهم؟ ألا يعرف البشر أن المظلوم يكره الظلم ولا يستطيع أن يلونه إن تجاوز قدرته على التحمل, ويكره بنفس القدر المراوغة في تجميله.
قسوة السجن لا تتوقف عند حرمانك من أداء واجبك تجاه من تحب, وهذا بحد ذاته ضرورة لها مردوها, بل إن الحد الأدنى للحياة لا يتوفر.. هناك تعيش وفق قوانين لا إنسانية.. تصحو عندما يريد ذلك المجموع.. تنام عندما يريدون لك ذلك. وإن رغبت في السهر فيجب أن تراعي الآخرين, فيصبح السهر بدون حركة ولا كلام, تؤاخذ نفسك إن سعلت لأنك ستزعج الآخرين, وستحرج إن أصابك إسهال لأن 33 امرأة لهن حمام واحد. إن أكلت لقمة زيادة حسبت عليك, إن لم يكن لديك شهية للطعام الكل سينصحك.. إن كنت منزعجا فأنت بدأت بالتخاذل, وان كنت مبسوطا فأنت في طريق الجنون.. مزاجك لا ينتمي إليك.. غرائزك معطلة.. معرفتك محددة ومغلفة.. لا يمكنك أن تنجز عملا مهما إلا إن كنت موهوبا. أن تفكر وتبدع تحتاج إلى الحرية بملء الفم, في السجن غالبا تبدأ العيش على الذاكرة وتنهكك آمالك إن أجهضت, والشيء الحقيقي الذي تأمله حرية بانتظارك.
هناك أناس يستطيعون خلق أنفسهم من جديد في السجن, لكن الأغلبية لا. نتساءل في الحرية لماذا لا يوجد لدينا مبدعون إلا في مجال بعض الفنون؟ ويتفق الجميع بأن حريتنا ناقصة.. الموهبة تحتاج إلى مناخ مناسب لتزهر, فكيف إذا لم نكن مدربين على إخراج مواهبنا من السبات الذي هي فيه في مناخ مليء بالمعوقات..
يستطيع الإنسان أن يتفهم ظروفه مهما اشتدت قسوتها, ولكن ليس بالضرورة أن يكون قادرا على التفاعل معها وإنجاز أعمال تحقق خطوة

للأمام يرغبها وتستحق أن يتذكرها.

غاب يوم آخر, كان يوم السبت موعدنا مع فيلم الأسبوع, وكان الفيلم هو الفيلم المصري:- زوجة رجل مهم- ولأول مرة منذ زمن أعيش بجماع شخصيتي مع شيء, عشت الفيلم لحظة بلحظة, وأنا العاشقة لعبد الحليم, والكارهة لكل أنواع الظلم خاصة ما يتعلق بحجز الحريات للشعراء والحالمين.. شعرت أنني معنية بالظلم الذي يتكلم به الفيلم.. لأول مرة عقلي ووجداني مع ما تراه عيناي..

عند النوم قلت تصبحون على وطن.. وأنا أفكر ما هو الوطن؟

عندما كنت في بداية مشواري الثقافي كنت أناقش هكذا أفكار: ما هو الوطن؟ كنت مقتنعة أن الوطن هو أولئك الناس الطيبون الذين أنتمي إليهم بصدق, وأشعر بدفئهم بصدق, حينها كانوا رفاقي وأصدقائي وجزءا من أهلي, لم أكن أعلم بأنني سلكت حينها طرقا مستحيلة.. لم أكن أعلم أنني سأعبر الموت في سبيل فكرة عادية.. هي لم تكن فكرة عادية ذلك أننا كنا نبحث عن حركة لا يمكن ربطها بالمكان الذي كنا فيه.. أما في تلك اللحظة فقد شعرت أن الوطن هو: الحرية, ابنتي, عملي.. هو التخلص من بعض الجنون الذي دخل أعماقنا.. صغر الوطن أم كبر؟!

أعتقد أنه أخذ شكله الواقعي وسط الآلام التي كنا نعيش, وفي جو الاستهلاك الذي يسحب معه القيم والمعاني إلى شطآن يصعب الوصول لها إلا بشق النفس..

تخجل فلسفة الأشياء من مفردات الواقع...

هل كان من الممكن أن أدرك هذه التحولات لو لم أعبر ذلك النفق؟.. لو لم أقرأ تلك القصائد التي تخلقها الحياة عند المحك؟

ما هي الحرية؟ في الماضي وقفنا عند مقولة "الحرية هي وعي الضرورة" الآن أراها ركض في الشوارع. لقاءات.. صدف.. خيبات أمل. أنت حر ولك صوت وأقدام تعرف اختيار الطريق.. الحرية هي

المواجهة والصراحة, هي أن تكون أنت بقدر ما تستطيع.. تعرف أين تقف ومع من, من يسندك.. من يهزك.. الحرية هي كل المقارنات الممكنة وغير الممكنة.. هي الثقة العالية بما تحمل من قدرات واستخدامها في منفعة الجميع وأولهم أنت.. لكنك في السجن لا تعرف حرية إلا خروجك ومن معك إلى الطريق. حيلتنا ضيقة.. تحملنا كاد يبلغ أقصاه.. وكان لابد من فتح باب السجن إلى غير رجعة. الخلافات كانت تافهة والمشكلة كان في تداول الخلافات على أرضية من كان منكم بلا خطيئة فليرميها أو(يرميني) بحجر. بدلا عن الحب حيث غار في الثنايا التي تجعدت لتحاصره. كان الخوف من الوقوع في الخطأ الظاهر رغبة, وتناسي ما ينتابنا من مشاعر في أضيق مكان نتيجة مؤسفة.. والأخطر كان في ظهور أحد تجليات الوعي عند البعض في كيل الاتهامات بدون أي دليل واستسهال إطلاق الأحكام التعسفية.

نمت وأنا أحاول التأكد من معرفتي للوطن والحرية.. أحسست قلبي يرقص مع أهلي.. كان عتبي على الأصدقاء كبيرا, لأنهم لم يحملوا مع أهلنا إلا القليل.. أحسست بحاجتي للأفكار المقاتلة من أجل حق الإنسان في العيش والتعبير عن أفكاره.. خشيت ألا أعود للعمل.. خشيت ألا أستطيع تأمين سكن.. نمت على خشيتي ورغبتي. شعرت بأنني أعد نفسي للخروج من متاهة اكتفيت منها.. دفعني إليها ذلك النشيد الذي اعتقدت أني فهمته وقربني من وطني وحريتي.. وللمرة الأخيرة, سأدفن ذلك القلق في فراش يتحول إلى كرسي في النهار, لن أعود إليه ولكن لن أنساه.

الفصل العاشر

الخروج إلى النور

في الصباح مع أول رشفة قهوة صباحية, بعد أكثر من سنة من الضرب على البرميل من تلك الغريبة, أتى الشرطة من الباب الخارجي, يغمرهم الفرح, أدركت أن الظلم سيزاح عنا جميعا.. نحن النساء من كل التهم السياسية مطلوبات لفرع التحقيق العسكري والسياسي.. لم أشعر بالفرح الذي تخيلته البارحة, هناك الخوف.. سبق وأن طلبنا الفرع قبل أكثر من سنة لمساومتنا على الحرية, بقينا أياما هناك بدون معنى.. أعادونا إلى السجن بعد جولة مجانية للأعصاب في حينها, اللعب في الأعصاب مهنة يتقنها الأمن ونحن نتقن الاستجابة لها. ربما كان هناك قرار بالإفراج عنا وغيروا رأيهم, فهم أيضا يعملون بأوامر.. المؤسسات عندنا تعمل وفق قانون الانصياع.. كل مؤسسة تنفذ قرار لمؤسسة تفوقها أهمية في المحافظة على السلطة.. لم أفرح كما يجب ولكنني فرحت وخيط الخوف الذي يلازمني موجود. لم آخذ شيئا معي: قصاصاتي ودفاتري بقيت.. لبست ثيابي, أتحسر على فنجان القهوة وفي أعماقي أطلب الخلاص من الزمان والمكان الذي كنت فيهما..

مرة أخرى أترك فنجان القهوة, ولكن هذه المرة إلى المكان الذي أستطيع أن أشربه متى أردت, ومع من أرغب ما استطعت ذلك, هذه المرة سيكون لي حرية في الاختيار.. قبل اعتقالي كنت أشرب القهوة على

الريحة(بالسكر الخفيف).. مع فنجان سادة عند المساء فقط.. في السجن كان حقنا فنجان واحد من القهوة في اليوم, رأيت أن يكون سادة وصباحا إيذانا بقدوم يوم جديد.. الآن نسيت طعم القهوة بالسكر الخفيف. لا أعرف إن كنت بدلت طريقي مع هذا التبديل.

لجنة من الضباط لاستقبالنا كل واحدة على حدة, طبعا ناقشنا موضوع التعهد السياسي قبل مقابلة اللجنة وكنا موافقين أو موافقات عليه.. مثل الحلم مر ذلك الكابوس.. بعض النصائح من اللجنة, لم تستطع أن تنسينا أنفاسا انتشرت في الريح تحكي آلامنا, لخصت حياة من فارقوا الحياة لفترة ومن فارقها للأبد.. نصائح تفضح الناطقين بها بانعدام مشاعرهم.. وكأن الجراح التي عانينا منها ظلما كانت بغير قصد منهم.. انتهى الكلام الأخرس, ثم إلى الحجز في غرفة أخرى, لم يطلبوا منا أي تعهد شرطا للخروج, مما جعلنا نشك بالغايات, مع أنه وصلنا من قبل عناصر الأمن الصغار أنه إفراج, ولكن كيف إفراج بدون تعهد؟! رفيقتنا قبل سنة كانت ستخرج بواسطة كبيرة, خسرت حريتها لأنها لم توافق على التعهد الأمني, فكيف الآن؟ حتى التعهد السياسي لم يطلبوه, ترى هل تمكنوا من قراءة الصمت في حناجرنا؟

حتى لو كان هناك قرار بالإفراج. فذلك يمكن أن يتغير في ثانية في ظل الأحكام العرفية. ولن نتبادل تحيات الوداع حتى نخرج من القمقم. لحظات انتظار, تجاوزت الصمت, كادت تصل لقسوة الموت.. فقط لو ساومونا على التعهد السياسي لنصدق!. ساعات كانت أوسع من الزمن الذي أدى إليها. أقسى وأضيق تشبه المكان الذي نحن فيه. لم تلغ لهفتنا للقاء المنتظرين الذين تجرعوا الألم معنا..

قبل سنة, طلبونا للفرع, ناقشنا موضوع التعهد الأمني إن طلب وكان البعض مع قبوله, أخذنا رأي الحزب في الخارج لنحسم الآهات التي تؤرقنا إن وضعنا أمام هكذا خيار.. هذه السنة لم نناقش الأمر, تركنا

الحرية الكاملة في حسم الأمر لكل منا .. مع التأكيد أن التعهد الأمني غير محبذ. بل هو معيب, ينتقص من كيانها حتى لو كان من أجل المراوغة.
جئنا إلى الفرع لنكون في الحرية, المهم ألا يطلبوا منا إدانة للماضي الذي شكل المهم والمميز في وجداننا..
وداعا سجن دوما, حيث رقصنا ودبكنا, بكينا وضحكنا, كذبنا وصدقنا.. أكلنا وأضربنا عن الطعام.. مارسنا كل ماله علاقة بالسلوك البشري إيجابيا أو سلبيا.. تحملنا وأتعبنا بعضنا, كنا السند لبعضنا في المحن وبكل ما حملنا من طاقة. خرمشنا,أحيانا, بعضنا بقسوة في الراحة, حّرمنا الصوت المرتفع والمنخفض, صرخنا بأعلى أصواتنا, قلنا حيث لم نتكلم ولم نقل حيث تكلمنا.. ثرثرنا وصمتنا..
ذلك المكان لم يكن مناسبا لنكبر أكثر, اكتفينا منه.. مرت الأيام وكل ما فيها من تلوين مطرود من الحسابات الشخصية.. أيام وسنون ستترك بصمتها حتى اليوم الأخير لذاكرة كل واحدة فينا..
انتظار محاط بالأسلاك الشائكة..
في تلك الساعات الصعبة, تذكرت قصة امرأة فلاحة من منبج, كانت مع الإخوان وبتهمتهم, بريئة وبدائية, تجاوزت الخمسين من عمرها حين طلبوها لمقابلة اللجنة عند الإفراج عنهن, رأت السجاد بعد أن نسيته, هذا إن كانت تعرفه, فخلعت حذاءها على الباب, أضحكت الرجال الذين هجرت قلوبهم الرحمة. ربما, هي تذكرت الجامع, بينما هم سخروا من قسوتهم.. روى من رافقنها القصة حين عدن ليأخذن أغراضهن من دوما, ضحكنا من القلب على القصة التي لم يبق منها إلا تلك المفارقة الغريبة.. اختصرنا الألم الذي رافق الإحساس بالظلم بصورة كاريكاتيرية, غطت جروح الضحية وبمفارقة أنقذتنا من مرارة الواقع..
قلت في نفسي الإفراج إن كان فقد جاء في وقته, لا يوم ناقص ولا يوم زائد, هذا هو القدر يلطف بنا أخيرا. وكما يقولون لا أحد يموت ناقص

عمر, كذلك لن نخرج بناقص يوم, سأخرج في الوقت المناسب يكفينا أننا سنخرج جميعا إن خرجنا.

عقلي مازال يعمل.. أعصابي لم تهترئ بعد, إرادتي أعتقد أنها قوية.. مازال أمامي متسع من الوقت لمعالجة مشاكل تبحث عن حل, واستقبال حياة مؤجلة.. يوم آخر في السجن ربما أخسر فيه الكثير من أسلحتي..

في غرفة الانتظار الأخيرة, تذكرت كيف أن بعض المعتقلات في السجن, فرحن بتدخل صدام في الكويت, لأن ذلك سيقلب الأوراق في المنطقة ويكون بالتالي احتمال إفراج عن المعتقلين, أخريات فرحن لأنهن تفاءلن في تحرير فلسطين بعدما وصلتنا أخبار المظاهرات في تونس والصاروخ في القدس, عمل بهلواني كان كافيا" لتأجيج مشاعر نصر نبحث عنه, فيتراءى لنا بالحماس الكافي لنزيد في الدفاع..

عجيب هذا العقل, في دقائق يختصر أيام من نقاشات كانت, من آلام جمعت وفرقت, يتابع عيون كل من يحيط به, همساتهم وحركاتهم, يستنتج ويخفف من قسوة اللحظات.

الانتظار جعل الحمل ثقيلا", والذاكرة تفعل ما تفعل لتعالج الزمن من بطئه, والذهن متوقف عند الإفراج والخوف من عدمه. نتمشى بتوتر وكلما نظرت واحدة في عيني أخرى تقول بلهفة: شو طلعة؟ متمنية أن تجيبها الأخرى أجل. مع أن الكل في الهوى سوا, ولا واحدة تعرف أكثر من الأخرى, كان ذلك مجرد اطمئنان على أحاسيسنا, على مبدأ تفاءلوا بالخير تجدوه. يجب أن تكون طلعة, لأنهم لو أعادونا إلى دوما ستتسرب أرواحنا بعيدا عنا.. سيكون تقبلنا لإحباط جديد صعبا.. تحليل متفائل يخشى تفاؤله, ومتشائم يخشى تشاؤمه, لكن الثواني الأخيرة اقتربت, اللجنة رأت الجميع.. انتهى عملها.. أما نحن فلم يعد بإمكاننا أن ننتظر وبعد..

مبروووووك..

يمكنكم استخدام التليفون بدون ضجيج وبدون أصوات توقظ الحراس والمحروسين, هنا ممنوع تنفيس الأشواق المحبوسة..

بدون كتابة أي تعهد!!! جميعنا عائدات إلى ديارنا.. اتصلت بأختي في حي المزة, وبدقائق كانوا عندنا لقرب البيت من الفرع, ذهبت معهم وأختي وابنة عمي.. وصلت البيت قبل الجميع, دققت الجرس فتحت لي صبية تختلف كثيرا عن تلك الطفلة التي تركتها قبل خمس سنوات, ابنة أختي الحبيبة.. متلهفة ركضت لأسمع صوتها عبر الهاتف, لن أتأخر عليها بعد اليوم ثانية واحدة.. لا يوجد هاتف في البيت الذي تسكنه روحي.. اتصلت إلى بيت قريب, بنفس سرعتي أتت.. رن صوت الحبيبة في أذني, ستأتي غدا.. ستأخذ أذن من مدرستها.. رغما عني قبلت الانتظار ليوم إضافي, نمنا على أمل أن يغني عصفور لقاءنا في اليوم التالي أغنيته التي انتظرها أكثر من اللازم..

خرجنا في 26-11-1991 الساعة الثانية ظهرا, تاريخ ميلاد جديد, سنحتفل به كل عام, نتذكر بأننا عشنا أكثر من حياة, بظلال ومصادفات وأحلام.. تغيرت ملامحنا. عدنا إلى زمان صعب, لن تثنينا صعوبته عن التطلع لخلق الرضا عن أنفسنا في المستقبل.. سنعوض أياما, ذهبت منا رغما عنا وفي غفلة عنا. سنحاول التعويض في كثير من جوانب حياتنا..

كن معي في المعتقل, خرجنا, بعد أن تعارفنا, يجمعنا حب أقل يحتاج لصلاة ونشيد جديد من أجل التكفير عن خطأ لم نقصده ولكن لم ننتبه لعدم حدوثه.. وزمن مر حتى الآن يؤكد صعوبة استعادة ما راح لأن أداء النشيد يزداد صعوبة أمام حاجز من الضجيج الحالي..

بعد انتهاء الدرس الصعب

كان المحك الأقسى الذي كشف كل العيوب: السجن, كان لكل واحد وقفة مع نفسه ومن حوله, مع التجربة قبل السجن, وخلاله, وكان يمكن لوقفة جريئة بجرأة الأفكار التي تبنيناها أن تعطي دروسا لنا ولغيرنا, وقوة لنا في مجتمع تستعصي الحركة فيه, ويحتاج لكل أبنائه الذين يحبونه ليبقوا على قلوبهم الدافئة وضمائرهم الصاحية لتحويل عشق الوطن في عملية إنقاذ بعد كل عمليات البيع والشراء التي طالت الإنسان في ظل حكم العصابات..

خشينا ونخشى جميعا من هذه الوقفة الجريئة, الكل يخشى المواجهة. لم نعتد على النقد والبوح, نسمي ذلك فضائح في زمن ليس لنا, يتربص أسياده لنا. متناسين أن كل شيء مكشوف لمن يهمه الأمر.. الحياة بعد الخروج من المعتقلات سرقت وقت الجميع, البعض لا يريد أن يجد الوقت. البعض طوى الماضي في النسيان, وآخرون في ملف مغلق أمام واقع جديد في شروط عمل علني وتفاعل بين الداخل والخارج.. البعض يرى أن محاكمة الماضي إن هي إلا نبش في قبور لن تقدم شيئا للحياة, دون أن يمنعهم ذلك من الدوران في فلك الماضي والتغني به إن لزم الأمر.. بالمحصلة هناك عمليات هروب من المواجهة تشبه ما فعله من سبقنا.. هروب إلى الأمام أم إلى الخلف يمينا أم يسارا هروب من أجل فوائد شخصية, أو من أجل لاشيء لا فرق كلها تؤدي إلى نفس النتيجة.. الرفاق بعد السجن الطويل, خرجوا ليبدؤوا حياتهم متأخرين. بعضهم دخل مجال رجال الأعمال, وسلكوا أقصر الطرق للتعويض, كان الفشل بانتظارهم. وبعضهم عرف طريق النجاح.. آخرون كافحوا, بظروف تساعدهم على العمل.. التعب كان أكثر في صفوف الذين لم يجدوا عملا,

هناك من يجر نفسه للانشغال بقضايا المجتمع وتلوين الحياة السياسية والثقافية بوسائل الإعلام المختلفة, وآخرون مصرون على إعادة عزف الأغنية القديمة بواقع مختلف معلق بالصمت والوحشة.. هناك من انحنى أمام العاصفة وهناك من يقاوم.. من يسير خطوات باتجاه النسيان واللامبالاة بعد العصيان.. أو لبس ثوب جديد, والصراخ على قاعدة ليبرالية لم تأخذ وسائل التعريف الكافية بعد..

كشفت العلنية عيوب لم يكشفها السجن.. كشفت تضخم الذات عند البعض. وانقياد بدون تفكير عند آخرين.. كشفت حجم غربة البشر عن ذاتهم.. كشفت الازدواجية في الشخصية من أجل عدم تقييم التجربة.

للأسف, لم تفض حياتنا إلى زمن قادم حلمنا فيه, وهذا ليس ذنبنا لوحدنا. بل إن الزمن الحالي أشد عتمة, فتح للانكسار طريقا.. والاعتراف بذلك خطوة لا بد منها, علينا بكل الأحوال الاستفادة من تجاربنا..

ترى هل كنا متقدمين على عصرنا عندما كنا شبابا متفتحين على الحياة العامة أي قبل ثلاثين عاما؟ أم غرقنا في رومانسية لم تفتح الطريق إلى حيث رغباتنا, فغرقنا في مهام لا ترى غذاءها في الواقع..

قبل خمس عشرة سنة أتذكر نفسي وأنا في القفص أعاني من الخوف على الذين أحبهم وهم في ظروف طبيعية, بداية تحول إلى مالك قوة وشجاعة في مكان غير ملائم.. الآن أشعر بضعفي وهو أيضا في غير مكانه..

كنت أشعر بالقوة قسرا لضرورة الحفاظ على التوازن الذي كان هاجسا, أما الآن فإن ضرورة التحول إلى ذاتي تجعلني أشعر بوطأة الضعف..

اعتقدت أن نبش الذكريات سيزيح الهم ولكنه استحضره.. وازداد الجرح اتساعا..

ترى ماذا فعلنا, أفعل؟ ماذا ننتظر, أنتظر؟ أين كنا..كنت؟

أهملت عملي فسبقني الآخرون.. ولكني أسير. أقف بدون أمان كاف ولكنني أقف. لم يكن طموحي قبل ربع قرن أن أسكن في بيت جميل, لم

يكن في أحلامي خيوط الذهب.. كانت أحلامي العامة هي طموحي الشخصي.. أنهض, أو أحاول النهوض بالمجتمع بالتكاتف مع المتحمسين على هذا الفعل.. لم نستطع لأسباب موضوعية وذاتية.. أي فشلنا على الأقل في المدى القريب.. دخلت في قلب الفشل والخيبات التي كانت في السجن, وبعده والتي كانت أقسى.. في عصر يكشف الأمراض التي تعشش في النفوس, أمراض غطتها السرية في العمل, وربما ساهمت في تكون بعضها, يبدو لك أنها ولدت الآن ولا أحد يعرف ماذا سيحل بها؟
زرعت حبا وتواضعا في قلب ابنتي, لكنني لم أستطع أن أزرع القوة الكافية فيها لتواجه ضربات عصر الاستهلاك الموجعة, فكبر الجرح في قلبي.. لا أجد الراحة إلا عندما أبتعد عن نفسي وأراها من بعيد أراها بحب فأعود إليها.. أحاول التخفيف عنها لكن طاقتي تكون أحيانا في الحد الأدنى.. ويكتب ألمي جملته لشحذ الهمة, ينقصني الأمان..
إنها الجروح النفسية, خطيرة لأنها أحيانا تظهر بعد فوات الأوان, فتكون مزمنة والشفاء منها صعبا", ماذا تفعل بجروحك الكثيرة؟..وأنت لا تتمكن من قطع صلات تعرف أنها تتعبك. تلهث وراء استقرار وأمان لم تزرع له.. تأخرت في اللحاق بكل درب تدخله, ويزداد التأخير حيث يتذكر الجميع أنك امرأة.. جروحك التي لا تستطيعين معالجتها تملأ حياتك بالحيرة, ولا تعرفين بالضبط كيف بدأت.. تعرفين أن السبب لك دور فيه وللآخرين دور عندما وضعت نفسك خلفهم, وفي أحسن الأحوال بينهم.. لم تعط لنفسك فرصة كافية للتمرن وإنضاج تجربتك. وأنت تعلمين أن الحياة سلسلة من التجارب فيها الايجابي والسلبي, ستتعلمين منها بقدر ما تكفين عن اللطم على وجهك, وبقدراستخدام معرفتك.. أحيانا مخاوفك هي التي تصنع قراراتك, تقودك مخاوفك من الآخرين, أو على الآخرين, إلى آخرين, وإلى طريق غامض.. هذا بحد ذاته مشكلة, حيث تحاصرك متاعبك في وقت لا يناسبك.. لا تتمكن من تجاوزها

فتعبر فوقها, وتكون مضطرا لدفع ضريبة مستحقة من غير ذنب في حينها.. و بإدراكك المشاعر التي تقويك تجد ما يساعدك في المضي كي لا تغرق بالندم... بداية تبحث عن الأمان.

أتذكر ذلك الشعور بالاطمئنان الذي رسخه أمان أحاطتني أمي به, لأحارب هذا القلق الذي خلقته بنفسي ودخل إلى البيت الذي يحيط بأيامي الحالية, يحزنني أن أجد نفسي محاصرة بالتوتر.. يزعجني أنني أعود وألوم نفسي وكأن جرحي الذي لم أشعر به ذلك اليوم لن يندمل.. وماذا بعد؟ أعرف ما أريد ولكنني مازلت أبحث في بحر لا أجيد العوم فيه, أتمسك بمقود فقد قدرته على سلوك الدرب الصحيحة, أحتاج سندا تراءى لي قيه, أسطورة الثلاثين عاما في المعتقل, أخذ نصيبه في كل الأماكن المظلمة.. كيف تحمل كل ذلك؟ ماذا فعل الخوف في روحه؟. لونه استعصى تغييره بكل الإكراه الذي مورس بحقه.. شيوعي لم يصبغه السجن.. هل كان يصلي سرا؟ أم أنه منع زيارة الخوف كل تلك السنين, هل كان مجنونا أم رسولا؟.. يتكلم بسرعة, نغمة صوته هادئة, غريبة ربما تخفي توترا لم ألحظه.. صوتي أصبح غريبا تخنقه الرغبات المتأخرة, والأمنيات المستحيلة.. وأحيانا الذكريات الداعية للهروب من الواقع. ربما يخفي وراء هدوئه عاصفة.. موسيقا صوته في الحديث والضحك تجهر بذلك, نظرته أيضا, تعرفت عليه وأنا في أشد الحاجة للخروج من الشعور بالضجر الذي يخنقني, كنت أتساءل بشأن أولئك الذين دفعوا ثمنا لبحثهم عن الحرية, والذين فقدوا الكثير من العزيمة, كنت أعتقد أنه سيساعدني في تجاوز ذلك الضجر.. وقبل أن تشتد مراهناتي اختفى ومن غير سبب, وبدون إنذار أيضا.. ابتعد بعد أن امتلك ثقتي. لم تكن الصدمة قاسية.. لأنني لم أحمله الأمنيات.. لم ألم نفسي, بل حزنت عليها لأنها تبتعد بالآمال أحيانا أكثر من اللازم.. تحاول الاتكاء على الآخرين للخروج من مآزق الزمن الغريب والطريق الصعب.

أنا من بقي لي. هذا هو الدرس القديم المتجدد.. سأعيش في ظل روحي التي كانت و ما تزال تبحث عني, كان يجب أن أعرف أن ثلاثين سنة حصدت وزرعت الكثير في روحه, والبحث عن صداقة معه أنا في غنى عنها لما تتطلب من مداواة لجروح فقدت القدرة عليها.... بكل الأحوال عدت إلى النقطة التي بدأت منها في البحث عن متكأ مريح. مع درس مهم: سيكون لي أصدقاء بقدر ما أشعرهم أنني لست بحاجة لهم.

بقدر ما أكون مستقلة, وبقدر ما أحب نفسي, أستطيع الوصول إلى ما أريد, وما أريده ليس كثيرا" إنه الأمان والراحة من التفكير غير المجدي. لا أحتاج إلى أولئك الذين يريدون مني اعترافا" صريحا" بعظمتهم. هذه السذاجة رحلت عني, كما أنني لا أمتلك موهبة الإطراء, أنا ريفية, لم تتمكن المدينة التي أعشقها من أن تزيل روح الفلاح التي في داخلي, بساطة وعفوية وصراحة جارحة أحيانا, إضافة إلى تأصل صفة الخجل من تجميل الأشياء عند الضرورة بما يتناسب مع ثقافة هذا العصر. هل يمكن لعجزي عن التلون, وعدم تمييزي بين الخجل والكرامة, أن يهدم ما أريد بناءه؟! وهل يمكن لي أن أدوس على تلك القيم التي هي أنا؟! مرة أخرى الخوف.. وهذه المرة أنا أمام مفترق طرق صعبة. بل طرق قصيرة وبلا نهاية..

يتعذر وصولك للنهاية عندما تتوه, حتى إن كانت طرقك قصيرة فهي ستتداخل وتمنعك من الوصول.

وقبل أن أشعر بالضيق الذي اعتدته لابتعاد صديق دون معرفة السبب.. أتتني إشارة أهم من الإجابة.. هدية تحمل مفتاح لفلسفة جديدة وحل مناسب أو أكثر ملاءمة.

تعرفت إليها, بعيدة عن الأوساط التي يلفها الضجيج.. ليس لها علاقة بالسياسة, لكنها تحاول أن تكون شخصية مترفعة عن الفردية, وهي في قمة التفرد. أراحت نفسها من المخاوف بتقليص علاقتها بالمجتمع,

اختصرت الوطن ببيتها: هناك حياتها, عملها,علاقاتها, مملكة روحها وجسدها الذي لم تشوهه السنون, روحها الهادئة تمكنها من إرسال ابتسامة حب للجميع. لم أسألها كيف أو متى كان ذلك حلها, لكن عرفت أنها مرتاحة.. أحسست بالسلام الذي تعيشه.. راهبة في منزلها, تحب عملها, تراكم معرفة باستمرار.. صباحها في الوقت الذي تريد, تأكل عندما يقرصها الجوع, لا تفكر بنوعية الطعام, تنام حين يغلبها النوم, لا شيء يبعدها عن نفسها.. التلفاز آلة غبية بالنسبة لها, لم تدخل إلى بيتها الفضائيات.. لا أعرف كيف جذبتني هذه الشخصية التي لا يجمعني بها ظاهريا إلا شغفها بالقراءة.

أعتقد أن الموضوع أكبر من هذا الجمع الظاهري, ربما دفعها إلى تلك الحياة: خوف ما في وقت مبكر.. جعلها تبعد الأرق عن نفسها, فاكتسبت سعادتها الخاصة. أعيش هذا الخوف الآن.. لكنني أحب الحياة بشغبها وهدوئها بعد الشغب.. أحب الأمان بعد التوتر, أحب تنوع الطعام.. أمل الطعام سريع التحضير, أحب الالتزام بالنوم مساء.. والاستيقاظ صباحا باكرا.. أحب العيش بطريقتي ولكن مع الآخرين, أحب البيت حين يكون للأصدقاء رائحة فيه.. أغب من الفرح الذي ينثره الآخرون في الهواء الذي أتنفسه.. أحب صوتي عندما أشعر بالناس يبادلوني الحب.. أحب الحديث الذي يفوح عبير الحياة فيه بدون شعارات وأقوال.

هل أكتفي بالبحث عن سلام معزول؟ هل يمكن إنهاء الوجود بعمر ليس له طموح مع الآخرين, يريد طوي صفحات من الماضي كي لا يرى المزيد؟ أسئلتي التي تضيع حروفا ببعضها وأنا أزيح الغبار عن أسبابها. تدفعني للابتعاد عن الكثير من البشر والمشاريع.. تنسيني حاجتي للذهاب في الكون الرحب.

أنا التي بدأت أرى بطريقتي.. بدأت أدقق بين الكلمات, أحزن وأبحث عن الفرح, أشعر كم هو بخيل هذا الزمن.. أقرب المستقبل بأحلام مازالت

تأتي أخشى أن تكون مجرد أحلام, أصطدم بواقع الجفاف الذي أصاب القلوب بعطش لن يشفيه كأس من أي مشروب. وجودي الحالي عندما أبحث عنه في الماضي يمزقني.. أين أنا منهم أولئك الذين بذلت معهم أعز ما أملك؟: طموحي, وقتي, وعملي.. أصدقاء ذبت معهم في وعد لم يكتب له الحياة.. الآن ومتأخرة بدأت فرديتي تعذبها سنين مضت سريعا.. يعذب ذاتي أنني رغم كل ما رأيت وسأرى.. وبرغم كل المسافات التي تبتعد بي عني وعنهم, ورغم أنني تخلصت من شعور كان يعميني ويقدمني قربانا لمجد لن يكون لي نصيب به, مازلت أعتبر أنهم جزء مهم من حياتي.. أصدقائي. مازالت هالتهم تحيط بي, تدق بابي, تقلق انتقال أرغبه.. ربما لأنني اكتشفت ما أريد متأخرة.. وربما لأن الزمن الباقي في المكان المتبقي يدفعني إليهم.. لا أقول أنني أحبهم, ولا أقول أنني لا أحبهم, أشعر بنسيان يلفنا.. ولكن من هم؟ ومن أنا؟

يدا بيد مشينا سرا, معا جمعنا الفرح, معا أعاد تشكيلنا الألم والحزن.. معا كنا نحاول أن نكون ملائكة, أتى المحك الأصعب الذي فتح كل الأوراق فبعثرنا شظايا, يصعب لملمتها.. لأن آنية الماضي لم تعد موجودة لتتحمل وتحمل..

النسيان الذي يصعب علي, في زمان يشتد قسوة.. دفعني أن أفرغ خوفي قبل مزيد من التغير في صورتي وصوتي.. ضاع مني الكثير.. ضاقت الصدور ولم تعد تتسع للأشواك والألوان وآثار أيام وسنين مرت. ضاقت تدعونا إلى رمي الكثير علانية وبصمت وراءنا.

وأنا هنا, من شرفة أسئلتي.. وممرات التخبط متاهتي الجديدة.. أراها قريبة مني تلك الفتاة التي اختارت الابتعاد عن الناس وهي شابة صغيرة.. أكره هذا الاقتراب, ولكني أقترب.. أقترب بخوف من نموذج يحاكي نفسه ولنفسه, يقدم للآخرين حين تكون الأذرع ممتدة له.. يكف ويستغني عن الآخرين حين ينسونه بقصد أو بغير قصد. كيف يستطيع

الظلم حين يتكامل أن يدفعني إلى هذه النهاية الظالمة؟!

لا أتمنى المضي في هذا الطريق, لليل والنهار حقوق على وجداننا بالتلون بالأماني مع الآخرين.. للتعب ذروة, للفرح سقف.. والإنسان معني بالبحث عن فرحه مهما حصل. لا أريد أن أصبغ الزمان والمكان بلون واحد كما فعلت هي.. أترك مسافة بيني وبينها فأرى أن شعورا بالأمان لا يتطلب كل ذلك الانعزال.. أنظر إلى نفسي أخشى البقاء في حيرتي وأخشى أن أكون مجهولة إلى نفسي إلى هذا الحد..

الإنسان أكبر مجهول في الدنيا..

مجهول للآخرين عندما يريد, ومجهول عن نفسه حين يسهو.. أن تعرف نفسك هو الطموح, أن تعرف الآخرين.. انظر سلوكهم, انظر في عيونهم ستعرف, ولكن بالحدود التي يقررونها.. ولا تكذب على نفسك أكثر مما تتحمل من نتائج قادمة. لا تقفز فوق جراحك بل عالجها في الوقت المناسب.. جملة عتب كافية لإزاحة جبل من الهموم. إن كنت أندم على شيء فهو ندمي على ابتعادي عن نفسي وركضي بعيدا دون أن أنظر إليها.. والآن هل أستطيع أن أترك مسافة كافية لخيار أفكر فيه؟

أنا أتوه وأتمنى أن أجد نفسي في داخلي, لأعاهدها على الوصول إلى الهدوء والانسجام والصدق والألوان.. يؤذيني هذا الصخب الذي مازلت أجدني فيه.. يزعجني الضجيج الذي نطرح به أفكارنا.. يزعجني الهدوء المصطنع الذي نلبس به سلوكا مفارقا. وأحاول وضع النقاط على سنيني, تواقيع أتت كلها خارج الأمان الذي يقتضيه الموضوع فوصلت بي إلى التعب:

تعبت من اليوم الذي أصبحت فيه أما في عام 1987.

تعبت من انتمائي إلى حزب العمل الشيوعي في عام 1997.

تعبت من اليوم الذي عشت فيه لأرضي الآخرين في عام 2000.

تعبت من اليوم الذي تخليت فيه عن نفسي في عام 1996.

تعبت من اليوم الذي لم أعد قادرة فيه على اتخاذ قرار في عام 1986. تعبت عندما أدركت, جاء ذلك متأخرا جدا على السنين التي سجلت. كنت شيئا, وأصبحت شيئا, وتغيرت إلى شيء, وكرهت شيئا", وأحببت شيئا".. ومازلت أبحث عن شيء. يعذبني أنني حزينة أكثر من اللازم من شيء.. خاصة في أوقات العري. حيث تتقدم الذكريات المؤلمة, وأرى كل ذلك التدهور. كم عبرت ولكن بدون برامج, عبرت المستحيل لأصل إلى حاضر يفرض نفسه بالألم الكافي للبحث عن خروج, لصعوبته يزداد الشعور بالألم.. في حالة التوازن تجذبني حساباتي للصمت.. أفقد القدرة على الكلام. أتذكر تلك الأيام, في ذلك العمر الجميل, حين كانت أفكاري هي أفكار الجميع الذين كنا معا.. وأضحك من سذاجتي في تلك الفترة وأشعر بالحنين لها بسبب انعدام الرغبة واللامبالاة التي أتتني منذ وقت قصير..

15 سنة مرت... جروح تزول , وجروح تأتي..

هناك في الغرف وعند إغلاق الأبواب. لم أعرف الأرق, الآن عرفته لأن الكوابيس عادت لتكتم صوتي, تأخذني إلى طرق مفروشة بالوحدة, أرى القادم مرهون لضياع أتمناه مؤقتا, كتب عنوانه في ذلك المكان. وأتساءل هل يمكن لذلك السجن أن يستمر في داخلي؟! هل يمنعني سجني من الخروج المناسب؟ عندما كنت في الزنزانة عملت على شحذ قوتي من أجلي وأجل ابنتي, كنت أمسك الأحلام بيدي.. كأن الحرية التي كنت أنتظرها هناك على باب القفص, كانت تخفف الجروح, أو تمنعها من التقرح, الآن يتكامل الإحساس بالهزيمة والسلبية واللامبالاة في المحيط, مع الجو البوليسي الذي سيطر على البلاد.. مع غرق المجتمع بفساد يكاد يقضي على كل شيء جميل.. أصبح المحيط عاجزا عن إنجاب الأبطال.

وكثيرون وأنا منهم ذاهبون إلى غربة تبدو من غير رجعة..

أخرجت ما في صدري بأمنية الموضوعية, أنا التي تغيرت وكم تغيرت

في طريق النضج, أنبش في الماضي دون أن أتنكر لشيء حتى أخطائي, أخطائي جزء مني لا أخجل منها, الآن لم أعد أغفر لنفسي ما كنت أغفره, أحاول أن أنقذها رغم الصعوبات.. تغيرت, ولكنني مازلت وفية لإيماني بالعيش في مكان أجمل.. ما تغير هو ذلك المكان.

كان المكان العالم.. أصبح الوطن.. ثم حيزا محدودا من الأصدقاء.. نحن الذين مازلنا نعيش على مبدأ أنا وابن عمي على الغريب, وأنا وأخي على ابن عمي, ضاق الوطن ولم يعد هناك أممية ثالثة ولا رابعة.. هناك حقائق وظلال.. هناك ظلم واسع عميق وظلم على السطح.. قوي وضعيف.. موجود وغائب.. حاضر وماضي.. حاضر يحمل أحلام الماضي بدون مبرر.. هناك أمام وخلف.. كراهية وشبيه الحب. هناك ما يحتمل وما لا يحتمل.. هناك قدرة وعدم.. هناك قدرة على الانتقام وعجز..هناك قتل وتدمير من غير إرادة للضحايا.. هناك أنا وأنت.. نحن وهم.. هناك هم فقط.. هناك جلاد وضحية ووطن مازال يضيق.. هناك وهنا, كل شيء أمامنا وكثير خلفنا.. يمكننا أن ننظر إلى الأمام أو ننظر إلى الخلف ونعتقد أنه أمام.. ننظر إلى الخلف ونعرفه خلفا.. هناك قريب وبعيد.. هناك سلام واستسلام.. بيدنا أن نجعل الممكن مستحيلا", لكن لا يمكن أن نجعل المستحيل ممكنا".. هناك القدرة على التعبير والخنوع.. هناك الشجاعة في المواجهة والاحتماء بالصمت.. المسألة دائما كيف؟

أول تجربة واسعة للنساء في المعتقل ابتدأت عام 1987.. تجربة معتقل سارت بنا إلى أصعب المواجهات. تلك التي تمت مع الرفاق. تكتشف أن معركتك مع أعدائك لم تكن تحتاج إلا لبعض الحماس, أما هنا مع أصدقاءك فأنت تحتاج إلى شجاعة أكبر, وحنكة كافية ليفهموا أي تغير في موقفك دون أن تتأثر الثقة بينكم.. كنت أعتقد أنني امتلكت بعض الشجاعة في حلب في السنة التي سبقت اعتقالي, شجاعة كافية لطرح أفكاري و قناعاتي, لأنتقد عند الحاجة, حتى لو كنت جارحة في نقدي. في

السجن فقط اختبرت أسلحتي جيدا.. وجدت أن شجاعتي كانت مرتبطة إلى حد كبير باستقوائي برأي الأغلبية بالحزب. ورأيت فقاعات الصابون أسلحتي.. رأيت الرغوة التي أحتمي بها.. عندما لم أعد بحاجة إلى ذلك الضجيج, الضجيج الذي منعني من حقي في صنع أحكامي أنا.. عندما بدأت أنضج باتجاه أن أكون أنا.. صحيح كان ذلك في بيئة مشوهة, لكنها أعطت تلك المساحة للتأمل والعودة إلى الذات.. هناك للحق بدأت أستغني عن بعض أوراق الملفوف التي كانت تغلف روحي.. لكنني استغنيت عن أوراق ليحل محلها أوراق قاسية داكنة اللون لن تزول إلا في بيئة صحية نوعا ما.. وجدت نفسي معزولة إلا من بعض قواي.. أصدقائي الحميمين كانوا قليلين.. فقد كنت بعيدة عن التكتلات التي نشأت أمامي.. في السجن عرفت أن كل ما أحمل من بناء اهتز, لأعيد البناء بالضرورة في مكان يمسخ كل شيء فيه.. الهواء هناك يبدو هواء.. كل شيء يبدو وليس فعليا.. لذلك لم أستطع الإعلان عن مخاوفي وهواجسي.. طرحت أفكاري مع نفسي ودائرة ضيقة جدا من الرفيقات.. ولكن متبصرا" ذكيا" كان قادرا على اكتشاف ما بدأت أنحاز إليه. غبي سيعتقد أن الخوف والحزن على من فقدت للأبد كان السبب في الصمت الذي دخل إلي, ولن يلغيه كلام أقوله, لأن ما أردت قوله فعلا لم يسمعه أحد.

وأنت تسترجع ذاكرتك, تجد أفكارك التي لم تبح فيها تجلس هناك, تنتظر الوقت الذي تسمح لها فيه بالتأثير. لم تعالجها في وقتها, ولكن عقلك ناقشها ربما لم تدرك ذلك جيدا حينها, ولكن حين تسمح لها تدرك أنك كنت ستكون مختلفا, لو أنك ملّكت نفسك وعقلك الحرية التي هي حقك, وأنت من أضاع هذا الحق وليس أحد غيرك.. خرجت الأفكار في وقت يصعب نشرها وتصعب كتابتها حتى.. بكل الأحوال, كان الجهر بالهواجس مستحيلا.. اكتشفت حاجتي إلى أن يكتشفني الناس بدون يافطات.. اكتشفت أنني أفضل التعامل مع الأذكياء.. مع الصادقين.. مع

الأقوياء.. واكتشافاتي المتواضعة لنفسي وللآخرين كانت بداية النضج. لا أعرف إن كان طبيعيا أن أبدأ في ذلك العمر وفي ذلك المكان المزدحم والمحاصر بالترقب والمراقبين.. في الثلاثين من عمري وفي الغرفة الثالثة.. أم تأخر. لا أعرف العوامل التي ساعدت أو أخرت في هذا النضج.. ما أعرفه أنني بدأت أعزي نفسي بنفسي.. وأخذت وعدا مني أن أنظر للناس في عيونهم وهم يتحدثون, لأسبر قوتهم وصدقهم ومراوغتهم أو..

في العلن.. لم يعد السلوك يحتمل أكثر من تفسير, أصبحنا عراة أمام بعضنا.. أصبحت الأسرار كذبة لن تنطلي على أحد, الضوء مسلط على كل شيء حتى على مقدسات الماضي أثناء العمل السري..

الآن لا أقول أنني بنت ذلك الزمن.. بل أنا بنت نشأت بين قمتين.. عملت في الحزب بين قوسين.. عاشت المعتقل بين خوفين... بعد المعتقل تناسيت ذاكرتي القديمة لأشكل أملا هو في الحقيقة كان وهما.. الآن نبشت ذاكرتي وفتحت كل الأبواب لأفكار سجنتها: في يوم لم أعد أذكر متى؟ وبفتح الأبواب كنت أحاول التشكل من جديد في عمر لا يحتمل الخطأ والتجريب..

بعد الذاكرة يأتي الآن..

الآن, لا تغريني ولا تشدني ظواهر الفعل السياسي المنتشرة هنا وهناك.. هذا لا يعني أنني أتباهى بوضع المتفرج على ما يجري, ولا أعتقد أنها بطولة أن يختار المرء وجوده الفردي, بعد أن خبر العمل الجماعي.. وليس من القوة الانسحاب لكنه الجواب على ما العمل؟ مازال مطروحا.. اعتقدنا بالإجابة التي ينطوي الكتاب عليها قبل أربعة عقود, والآن ننتبه إلى أن الجواب يستحق مزيدا من البحث ويحتمل الاختلاف. كي لا نعيش ضعفنا بعد الأوان وفي غير مكان..

هناك وفي أول فرصة للنظر والتأمل, عشت مونولوجا طويلا مع نفسي..

في البداية كنت أرتحل إلى عينيه لأحدثه عن الصدمة التي عشتها بالتعرف على أفضل الرفيقات كما كان يقول.. بدأت أتلمس أبعادي بعد العيش في السجن وبالمقارنة التي لم تعد خجولة أبدا ولكنها صامتة تماما.. هناك بدأت علاقة صحيحة معي. مع الزمن تحول حديثي معه من عتب رفيق إلى مواجهة ستتم عندما أخرج.. تولدت لدي رغبة رهيبة في فتح الملفات, ليس دفاعا عن نفسي بقدر ما هو استفادة من تجربة: رغم كل ما فيها أعتز بها.

هناك.. في سجن النساء كان الصمت حلا لطريقة حوار مغلقة, وبقي على كل واحدة أن تعرف كيف تحافظ على نفسها وتوازنها.. تجربة البنات كانت بدون رأس واضح المعالم.. لم يكن فيها قيادية منتخبة في المؤتمر.. ولم يكن لواحدة السيطرة على الأغلبية وغير مأسوف على ذلك, لذلك كان الغياب ممكنا والحضور غير مهم.. بعد زمن ستشعر كل واحدة بضعفها وستخرج من ذلك باللجوء إلى التكتلات التي تصنعها حالات الضعف الذي سيظهر والحاجة إلى مداراته.

كان أول وآخر اتصال لي بالحزب بعد أيام من خروجي.. عرفت من قابلت, أدركت أنني تغيرت من انفعالي الذي كان حياديا.. لم أعد أرى الناس بالطريقة القديمة.. حكى لي عن الجهود التي بذلت من أجل مضر ومعرفة مصيره, والإحراجات التي مست السفراء السوريين في أكثر من مكان في العالم.. وإصرار الحكومة السورية على عدم الجواب, علمت أن مضر كان من محاور عمل الحزب.. ولم يكن هناك كلام آخر مهم.. اعتقل هذا القيادي مع من تبقى بعد ثلاثة أشهر, كنت مازلت مع نفسي.. حساباتي للقادم.. أكثر ما يشغلني وضع مضر الغامض.. وبدأت زياراتي الدورية للفرع أسأل وأنا متأكدة من الجواب..

ماذا أنتظر؟ أنا لا أستطيع محاربتهم.. ولا أريد ذلك, أريد فقط و فقط أن أعرف مصيره.. في آخر مرة زرت فرع التحقيق طلب مني الضابط

الذي أقابله (ألا أعذب نفسي أكثر من ذلك, مضر مفارق لهذه الحياة !!!!
وعلى لسانه قال: لعن الله م . ف).. في داخلي المشتت قلت: لعن الله كل الظالمين. الذين يأخذون العالم للتضحية بكل شيء جميل.. الذين يدفعون أمثالنا للتمسك بمثاليتهم.. كنت أعلم أنه من الراحلين, ولكني أريد ورقة تثبت ذلك, قال لي يمكن لك أن تقدمي طلبا" مع آلاف الطلبات التي في الدرج, ربما يأتي يوم و يكون لهذه الورقة معنى! وضعت الطلب, وودعت الفرع بلا عودة حتى الآن. وغصة يتناوب حضورها وغيابها لمعرفة مصيره..
وان كنا نقول في حكايتنا أن الحي أبقى من الميت.. لكننا لم نقلل من دور الحي للوصول إلى حقيقة الغياب تحت التعذيب.. خاصة إذا كان الحي يعمل في مجال حقوق الإنسان.. مازال مضر في دائرة النفوس حيا.. مازالت السلطة لا تريد الاعتراف بما ارتكبت.. ومازالت حقوق الإنسان في بئر عميق رغم كل اليافطات المرفوعة.. والمهام السامية المطروحة في مؤتمرات دولية, برعاية حكومات ومؤسسات مجتمع مدني ومؤسسات دولية وبسقف لا يحتمل تفاؤل من قبل الضحايا في بلاد يحكمها الاستبداد, مؤتمرات لأولئك الضحايا ممثلون حولوا نضالهم من الطرق الشائكة في بلادهم إلى طرق معبدة آملين بامتنان لهم ومباركة استمرارهم في الثورة وهم الذين حولهم اللجوء السياسي إلى مطرودين من بلادهم .

تأتي الأفكار تفرض نفسها أحاول اختصارها ليست لأنها غير مهمة بل لأن أهميتها لا تحتمل الاختصار إلى تلك الدرجة, أختصرها لأنني مضطرة غالبا إلى العودة إلي وجعي الذي يداهمني.
أيام ليست لك, عليك الحفاظ فيها على نفسك و توازنك.. ووجدانك الذي يعج بقصص البطولات والتضحيات من أجل التغيير في المجتمع, يساهم

في تقديم بعض الراحة التي ستمكنك من العبور. وسواء عشت الحياة بمفردك, أو مع الآخرين, بالغنى والتنوع الذي تريد أو لا.. استمرار علاقتك بقديمك إن كنت تحترمه سيعينك في الحصول على علاقات تعبر بك إلى تنوع يزيح مخاوفك من قادم سيأتي , السهرات مع الأصدقاء شغلناها بتناول سير الغائبين و حكايات السجن..سير من يتسلق القمم على حساب التجربة , وضع التبريرات أو لا حسب المزاج والحاضرين. ليسوا وحدهم من ضحى, ولكنهم هم عرفوا كيف يصلون في زمن العلنية, ووصلوا...هم كأفراد ليس لهم قيمة إن لم يتكلموا باسم الذين أصبحوا أرقاما", أصبحوا لا شيء. إلا عند الحاجة لهم لتجميل صورة البعض حيث يريدون الحديث عن المعارضة.. صادفنا زمنا قاسيا بعد الخروج من المعتقل وجدنا الصبر بأن يوما قادما سيكون أفضل , سيكون هناك زمن للحديث الصادق.. وسيكون هناك مكان لهذا الحديث..

على الورق كثير من التفاصيل انسكبت تقطر بالألم لم أرغب في كتابتها, انفرادي مع نفسي أعطاني شعورا" بالأمان فسالت الأفكار.. ترجمت أفعال وردود أفعال, اختصرت حياة يصعب اختصارها لخصوصيتها..
ماذا بعد:

حرف يحتاج لنقطة:أردت وضعه خوفا من ظلمي لها في سياق اندفاعي وحماسي: امرأة حالمة.. مسالمة.. ذكية.. أكره الشجار.. الشجار يجعلني أستخدم أسلوبا" أكرهه وهو الهجوم أفضل وسيلة للدفاع لكن دفاعي لا يصل إلى حد الإساءة للآخرين, لا أطالب بحقوقي بشكل مباشر, أنغلق لأحمي نفسي و لكن دائما" أجد مخرجا" من قوقعتي من خلال أصدقائي الكثيرين, لا أعرف الخطط للوصول لذلك دائما" لا أصل, لا مبالاتي الظاهرة لا تعكس بدقة ما يدور بذهني. واجهتني متاعب عديدة في

الحياة.. تلويت من الألم في فترة السجن حيث كنت أما" محرومة من الاستمتاع بأمومتها, بل على العكس عشت أمومة جريحة. زوجة فقدت مساعدها في تكوين الأسرة, فكان عليها أن تقوم بدور غير مؤهلة له.. تمت محاصرتي من ثلاثة أشياء كان يجب أن تمنحني القوة.. أمومتي.. أسرتي.. عائلتي!! ملاذي غالبا الصمت و الهرب و الأحاديث الثنائية الخاصة مع أناس قريبين من روحي..

خرجت بأمل أن آخذ حقوقي بعد كل الظلم الذي تأكدت منه, خرجت إلى فراغ, جلت في كل أركانه, و كان كل شيء يؤكد لي أن هذه الجولات لن تكون بفوائد شخصية إلا إذا دفعت الثمن و بداية الثمن أن أشعر الجميع بضعفي وعدم حاجتي لأحد, متناقضات تحكم الكثير من العلاقات.. القوة ترهبهم إذا تحلت بها المرأة, لأن قوة المرأة جارحة لرجال لا يجدون ضرورة للصدق في العمل.

نظرت ورأيت بعد أن كنت أنظر ولا أرى, سمعت وفهمت بعد أن كنت أسمع دون تفكير, أحسست بالأشياء, اتهمت من قبل واحدة بأنني شاطرة فقط بالسخرية من الذين يعملون والذين لا يعملون.. كان حكما" ظالما" لكنني وجدت فيه تعبير من تشتت نفسها بين كل النشاطات لتفعل أي شيء ولو كان ثمنه تقييمات فارغة عشت أجواءها فترة من الزمن.

انتظرت بقوة غودو ليفرز الغث من الثمين وكالعادة لم يعد.

أريد عملا" أقرر فيه ما يخصني فيه وأجد نفسي ونضجي فيه وأحدد موقفي من موقعي دون أن ألغي نفسي. أعلم أنني إن نجحت فأنا مقدمة على الانقلاب على نفسي, وأعلم أنه في التغييرات الصغيرة يكفي إيجاد الطريقة الملائمة للسلوك الجديد, أما من أجل تغييرات جوهرية فعلا فيجب إعادة النظر في آلية عمل العقل الذي نحمله.. في أفكارنا.. وذلك يحتاج إلى نفس طويل و تجربة و عمل دائم. في التغيرات النوعية.. نحتاج إلى ولادة جديدة بدل الاستسلام لإغراءات التغيرات المرسومة..

ذهبت وعدت.. أعيش كميت أحيانا لا أشعر بشيء, أشعر بالظمأ أعرف أن روحي عادت.. السجن كان لمدة زمنية محددة شعرت به بالهزيمة, اكتفى السجن مني ولكن الهزيمة لم تكتف أشعر بها حين لم يعد لي طاقة على تحمل المزيد عندما يضعني الغضب في مواجهة الحائط..

في السجن كان الآخرون يوقظوننا من النوم على الموعد اليومي مع الفطور الجماعي.. الآن آلامي توقظني من الصمت, خوفي يوقظني من اليأس.. لا وجود للأحلام.. مازلت أقلب الأفكار.. سأهرب كي أخفف من ملل قد يصيبكم.

كنت أحب الحياة.. مازلت أحب الحياة. أحيانا أتحسر على شبابي الذي كان خاليا من الشك, أحيانا أضحك من نفسي التي تدفعني بهذا الاتجاه, لأنني أعلم أنه لو عادت بي السنين أكثر من ربع قرن فسأبحث عن الأقواس. ألمي مشروع ولكنني حريصة على تجاوزه وأتمنى أن يكون بعد معالجة أسبابه, أكثر ما يؤلمني هو عجزي عن تنفيذ قرار أعجز عن اتخاذه لأنني أخشاه.. مشكلتي ما يمنعني من التوحد مع نفسي الحرة دائما.

حرف وضع بصمته واختفى: عاش لهبا في فترة الحماس, كان قادرا" على التضحية بكل شيء من أجل قناعاته, مظهره فارق عقله, حيث كان حضوره الصاخب يعاكس هدوء عقله و تنظيمه, عرفته لا مباليا" بتفاصيل الحياة اليومية لصالح انشغاله بنفسه مع الآخرين, عمل قياديا" في الحزب و كان ذلك على حساب وجوده في البيت, لم يعرف السؤال عن الأعماق أو عما يشغل أقرب الناس إليه, أراح نفسه من تلك الأعباء, فبدا لي غير محب.. عانى من الربو منذ طفولته لكن ذلك أعطاه اتساعا لصدره المريض.. انه شاب التناقضات.. عندما عاش التخفي لم يكن

بإمكان الحزب مراعاة وضعه الصحي فعاش في ظروف فاقمت أزمته, عندما أخذ دوره في حلب أخذ الربو دوره في محاصرته وعندما اختطف إلى المعتقل كان في ذروة النضج من أجل الاستشهاد, تؤكد رسائله الأخيرة لي (قبل يومين من اعتقاله) تفاؤله وعزيمته الشديدة, ويؤكد وضعه الصحي أن الصبر والتحمل يعني مفارقة الحياة في بعض الأحيان, ويؤكد الهياج الذي كان به الأمن أن روحه ليست ذات معنى لهم, وأن جسده سينال من التعذيب ما لن يتحمل.

في آخر رسالة له كان يتمنى أن يراني في ساحة معركة ومواجهة لا بد قادمة, لكنه لم يتحمل الانتظار أكثر ولو تحمل الانتظار أكثر لكان غير رأيه وقال: الله يخلي الأولاد.. و أيضا أخجل من دمع أمي.. بل أكثر من ..

خانه ذكاؤه, خانه عناده, فرحل قبل الأوان, رحل ولم يترك وصية, ولم يعرف مصير الراية التي ضحى من أجلها, الرفاق كل في همه والأهل غارقون في عجز المظلوم, وأوان العمل على قضية مثل قضيته لم يأت بعد..

كانت مشاريعه كبيرة وكثيرة كلها مع الآخرين, لم ينجز منها شيئا" اختصر كل أمجاده الشخصية بالشهادة.. ولم نحظ بشرف تقبل العزاء ولا كتابة رسالة رثاء أو شكر على تعزية أو ممارسة موهبتنا في كتابة نشيد نقول فيه أنه كان قربانا لمجد كاد ألا يكون.. لم نعبر له عن امتناننا بترتيب حفل تأبين يليق به.. رحل ولن نتمكن من زيارته في بيته الذي لا يحتاج إلى تصميم. للأسف حتى هذا البيت لا نعرف له مكانا إلا الصدور الدافئة التي لن تنساه وأمثاله.

